AHMED TAYEL

رواية
Novel

أحمد طايل

المتشابهون

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

المتشـــــابهـــــون

روايـــــة

أحمـــــــد طـــــايل

..يخلق من الشبه أربعين.
جملة تتردد دوما في كثير من الأمور الحياتية، الغالب الأعم تقال بشكل أقرب للعبثية، وبأسلوب غير قانع أنها حقيقة، بألفعل لكل منا من يشبهه، ملامحا، روحا، فكرا، فليبحث كل منا عن المتشابهين معه، ليأنس بهم.

أحمد طايل

..1..
عقد السهاد معه عقدا منذ شهور، عقدا من طرف واحد دون أن ينال موافقته، أملي عليه سطوته، وتملك منه، ولكن إحقاقا للحق، كان رحيما لحد كبير، بدأ تنفيذ بنود عقده بالتدريج، ثواني، دقائق، سويعات، ثم عندما أيقن من هيمنته وسيطرته الكاملة، شاركه ليله

دوما، أقضّ مضجعه، أذهب النوم من عينيه، جعل بندول رأسه يتواصل بالطرق العنيفة، أصابه الصداع بشتى أنواعه، التساؤلات كانت تموج وتثور داخله، ما سبب كل هذا؟ فهو طوال عقود عمره، كان يتعامل مع الحياة بمرونة تامة، الحياة لا تحب من يجادلها أو يصارعها، سايس الحياة، تعيش بأمان وراحة بال، حتى عندما تستدعي الضرورة أن يكون طرفا بنقاش موضوع مهم حياتي أو بعمله، يسمع، يتبادل النظر مع كل أطراف النقاش، ويكتفي بإيماءة الرأس موافقا مع الطرف صاحب الغلبة، تعلو شفتيه بسمة خفيفة كلما تذكر هذا الشعار الأبدي الذي لم يخرج عن خطه مطلقا ولو مرة على سبيل الخطأ، ابتسم للدنيا تضحك لك، كلما أصابه السهاد، ينهض مسرعا إلي الحمام، يغلق الباب من الداخل، يقف أمام المرآة، يتأمل وجهه، يجزع حينما يجد مساحة الشعر الأبيض تتزايد، لم يكتفِ بكساء (فوديه)، بل زحف لاحتلال مساحات أكبر، كاد يصبح كساء الرأس كاملا أبيض، يرى مزيدا من التجاعيد على مساحات الوجه والعنق، العروق أصبحت نافرة تماما مع كرمشات بالجلد المصاحب لها، الهالات السوداء أيضا أخذت نصيبها منه، صارت سمة واضحة أسفل عينيه، كان يشعر كل يوم يمر بزيادة مساحات الغصة داخله، والتساؤل، لمَ؟ لم يتغير شيء يستدعي كل هذا، لم يصل لإجابة، السبب الاوحد الذي أقنعه هو اقتراب سن التقاعد، على الرغم من من أن هناك ما يزيد عن الاربع أعوام على هذا، كلما مرت سنة كلما ازداد قلقه، اكتفى بالتمتمات والهمهمات، ورفع الوجه إلي السماء، رافعا إصبعه، بعينيه كلمات

*لك الأمر من قبل ومن بعد، لعله خيرا

زملاؤه بالعمل لاحظوا شروده، وزيادة عزلته، هم يعرفون طبيعته منذ أن جاء للعمل وهو ببدايات العشرينيات من العمر، شاب طويل القامة، منتصب الهامة، حنطي البشرة، الخجل يكسوه تماما، يشارك بكل مناسباتهم بهدوء دون أن يبدي أي حراك، المشاركة بالحضور الشكلي، عرفوا عنه أنه كتوم، لا يحب أن يتسلل لحياة أحد، أو أن أحدا يتسلل إلي حياته، كل ما عرفوه أنه يسكن بشقه بشارع (قدري) القريب من جامع ابن طولون، و(قلعة الكبش) الذي يبعد عن ضريح (السيدة زينب) حوالي سبع دقائق سيرا على الاقدام، يلبي لمن يطلب مساعدة من أي نوع دون ضجر، طوال

العمر لم يتغير مطلقا، تغير الشكل والملامح بفعل الزمن، أما طقوسه لم تتغير، لم يعرفوا له أصدقاء، ولم يحاولوا أن يعرفوا، اكتفوا بحياده، وببشاته وعدم التقاعس عن أي أمر بخص أحدهم حتى لو كانت به تكلفة مادية، لم يرد أحدا خائبا، حتى الآن يتذكرون ليلة زفافه، قام بدعوتهم جميعا سواء من قسمه أو الأقسام الآخرى، أرسل إليهم (أتوبيسا) فاخرا، ذهبوا، المتزوج أتى بزوجته وأولاده، والمتزوجة أيضا صاحبت زوجها وأبناءها، (الاتوبيس) تكدسوا به، ذهبوا تلبية لشهامته، وبدافع فضولي هو الأقوى، أرادوا أن يعرفوا من هو؟ ومن عائلته وأهله وأهل قريته الرابضة بين أحضان الدلتا؟ قرية تتبع إحدى مراكز مدينة طلخا بالدقهلية، أول مرة سمعوا اسمها، تبادلوا الدهشات، (ميت عنتر)، تندروا، (ميت عنتر) الا يكفي (عنتر) واحد، استقبلوا بالطبل، والمزمار، ورقص الخيل، العناق من جميعهم على العلى الرغم من من عدم معرفتهم سابقا، اصطحبوهم إلي سرداق مجاور لسرداق أكبر، الموائد المتراصة ذات الشكل الواحد، الكراسي المذهبة الآنيقة، السجاد الوثير الذي تغوص به الاقدام يكسوا كامل محيط السرداق، يتلفتون انبهارا، تساؤلات نهشت دواخلهم، كيف لمن يملك كل هذا الثراء الواضح أن يرتضي بعمل وظيفي ممل؟، يعود عليه ببضع عشرات من الجنيهات، وأن يتعلق ذهابا وإيابا بأبواب المواصلات، اكتفوا بالهمهمات والتمتمات (لله في خلقه شؤون)، دعوهم إلي الطعام المكدس بشكل باذخ على كل الموائد، تلال من اللحوم متعدد الصنوف، وأطعمة نالت من دهشتهم، لقد شاهدوها بأفلام الأبيض والاسود بموائد الباشوات، لم يتخيلوا يوما أن يروها واقعا ويتذوقوها، أنتابتهم الدهشة التي ارتسمت بوضوح تام على وجوههم، عبروا عنها بتبادل النظرات، أقبلوا على الطعام بشكل شبه هستيري مصحوب ببعض الخجل حتى لا يرى الآخرون نهمهم، بعد فترة ليست طويلة أطاحوا بخجلهم وراء ظهورهم، فكلهم مشغول بالتهام الطعام، أنتفخت البطون، حتى تخوف بعضهم منهم أن تأتيهم الرغبة بإفراغ أمعائهم، فكيف التصرف؟!، أنقذهم من المأزق نداء أحد الرجال بصوت جهوري:
من يريد الاغتسال، يتفضل معي

حمدوا الله جميعا فرارهم من المأزق، يتقدمهم الرجل، يسيرون خلفه صفا واحدا كأنه طأبور فصل مدرسي، قادهم إلي بيت مكون من خمسة طوابق، فاخر البناء، نوافذه تأخذ شكلا جماليا يجمع بين القديم والجديد، على شكل شرفات بها تعديلات تواكب الزمن، أشار لهم الرجل بالدخول.
*خذوا راحتكم، هذا بيت الحاج (الحسيني فرحات) والد العريس، يا أهلا يا أهلا، شرفتمونا، البيت بيتكم.
بهو فسيح للغاية، أكثر من صالون موزع على كل الأركان، الالوان متناسقة، وبعد الارائك المكسوة بالقطيفة، نقوش الجدران تنم على أن صاحبها يفهم جيدا بعلم الجماليات، بضع درجات عالية تقود إلي عدد من الحمامات، الحمامات على اليمين الرجال، والحمامات على اليسار للسيدات، حمامات فخمة، بها الماء الساخن والبارد، والمناشف ألفخمة ذات الملمس القطيفي الجميل، أخذوا وقتا طويلا رجالا ونساءً ليمعنوا النظر إلي مظاهر الأبهة التي يشاهدونها المرة الأولى رؤية العيون، خرجوا وقد زاد طنين سؤال الدهشة داخلهم:
*لماذا يرتضى أن يكون موظفا تحت إمرة رؤساء، بعضهم نرجسيون وبهم قصور نفسي يمارس سلطوية السلطة بشكل مرضي، مقابل حفنة جنيهات؟، لايجدون أية إجابات، يعودون للتمتمة.
*لله في خلقه شؤون وأمور
مع ازدياد بريق عيونهم وعيونهن.
سار بهم الرجل إلي السرادق الكبير، أشار إليهم بالجلوس بالمكان الذي خصص لهم، قريبا من مكان جلوس العروسين، كل الآنماط البشرية متواجدة، أصحاب بدلات شديدة الفخامة، أصحاب جلابيب كشمرية وصوفية فاخرة، تعلوها عباءات مطرزة، وعطور متعددة تملأ المكان، الهمس يأتيهم من المحيطين بهم من الرجال والنساء.
*طول عمره الحاج (الحسيني) رجل حق لا يحيد عنه أبدا، يعامل الكل على أنهم من أهل بيته، نزيه لا يحرم أولاده من أي شيء، كثير العطاء لا يتأخر عن أحد، يعود المريض، يشارك بكل المناسبات، يتصدر المشهد عندما يحضر مسؤول للقرية، يعرض طلباتها، يكون على رأس أي مجلس عرفي لحل أي مشاكل تخص أهل قريته

بكياسته وفطنته وفراسة رأيه، سمعوا عن طقوسه المتوارثة من الأب (الشيخ فرحات أبو الحمد) أول من حمل شهادة العالمية الازهرية بالقرية وربما بالجهات المجاورة، كان علامة فقهيا، حتى أن القول الشائع حينها، كيف نطلب ألفتوى من آخرين، ولدينا كبير أهل ألفتوى، ورث عنه، أنه عند كل نداء صلاة، يخرج مهرولا ومن ورائه أولاده جميعا وأحفاده الذين بلغوا سن ألفهم، حتى لو كانوا بالحقول أو بشؤون أخرى من شؤون الحياة، كان قبل خروجه فجرا للصلاة يوقظ الزوجة آمرا لها بلين:
*أيقظي البنات وأدوا الصلاة، بركة للبيت ولكم.
كانوا يصيغون السمع مندهشين من وجود رجل مرتب، منظم محبوب لهذه الدرجة، صحوا من دهشتهم على ارتفاع دقات الدفوف وأصوات المزمار، ووقع أقدام الخيل على الأرض، هرعوا جميعا مندهشين إلي مقدمة السرادق، رهط من السيارات على تعدد أنواعها، تثير الغبار على العلى الرغم من من أن الوقت ليلا، كثير من السيارات مزدانة بالورود وبأشكال متعددة، قلوب متناسقة، كلمات حب، اسماء العروسين، وقفت سيارة من طراز حديث جدا جدا، بمنتصف حلقة من السيارات، تطلق أبواقها المتعددة الاصوات، الدفوف تدق، المزامير تعلو نغماتها المتناسقة، وخيل يرقص بشكل استعراضي متناغم، النسوة من أهل القرية على مسافة ليست قريبة، بأزيائهن المتشابهة، وعصابة الرأس أيضا المتشابهة، يصفقن ويضربن الاكف ويزغردن، وسبحان الله بإيقاع متناغم ليس به أي نشاز، العريس ينزل من السيارة، يسرع إلي فتح باب نزول العروس، يتباطأ ذراعها، يحيط بهما أصدقاء وأقارب العروسين من الجنسين، أخذوا وقتا طويلا من الرقص والزغاريد، ورقصات التنورة، والراقصات اللآتي يحملن الشمعدأنات، صاحبهم الجمع المحيط بهم إلي حيث (الكوشة)، الرقص ساد المكان، والصيحات والزغاريد تعلو وتعلو، شباب يمر على الجلوس بالمشروبات والحلوى، فجأة ساد الصمت، أنتبهوا لدخول بعض الذين قوبلوا بحفاوة بالغة، صعدوا بهم إلي منصة العروسين، أعدت فرقة عازفين، أخذوا بعض الوقت لتجريب الاتهم، عند التأكد من سلامة كل الأمور، ساد الصمت قليلا، خرج من وراء الستار المطرب (محمد طه) الذي قوبل بتصفيق حاد وتهليل، صدح

بمواويله وقتا طويلا، الهمس يجيء من خلفهم، أن ليلة زفاف الجد (فرحات أبو الحمد) جاءوا له بمطربة صغيرة السن ترتدى العقال متشبهة بالغلمان، على الرغم من صغر عمرها أبهرت الجميع، مع الأيام ذاع صيتها، وعرفوا أن اسمها الذي لم يعرفوه وقتها (أم كلثوم)، سمعوا أيضا أن ليلة البارحة (الحناء) ونقشها على أيدي وأقدام العروس، أتوا للنساء بالمطربة الشعبية (خضرة محمد خضر)، طال بهم السهر إلي ما بعد منتصف الليل، صعدوا لتحية العروسين وأخذ الاذن بالمغادرة، أمامهم ساعات سفر طوال، تبادلوا معه العناق والتبريكات، أشار العريس إلي أحد الرجال، أتاه مهرولا، همس له بشيء، أسرع على ألفور لتلبيته، سبقهم يتبعه بعض الرجال في مقتبل العمر، وبعض من الشباب، ناولوا كل رجل وسيدة أكياسا كبيرة، هدايا العرس، بادلوهم الشكر، أخذوا الطريق للعودة إلي منازلهم، النعاس غلب الصغار، أما الكبار لم ينتهوا طوال الطريق من الحديث عن العرس، وما شاهدوه من علامات اليسار الحياتي، وخرج من صدورهم هذه المرة التساؤل وبصوت عال.

*كيف لإنسان يتمتع بكل هذا الثراء والرفاهية التي تكفي أجيالا عديدة من بعده، أن يكون مجرد موظف حكومي؟!!

لم يتوصلوا للإجابات الشافية، ما كان على كل منهم الا ضرب الكف على الكف، ورفع أهدابه متمتما.

* فعلا لله في خلقه شؤون وأمور، لعلنا يوما نصل لردود تشفي فضولنا.

ظلت ليلة العرس حديث الوزارة وأروقتها زمنا طويلا يضاف إليها الكثير من بهارات الحكايات، بهارات تغير الكثير من حقيقة الأمور، بل تجعل الحقيقة تحت هيمنة وسيطرة الخيال، ونحن كوننا شرقيين من عشاق الخيال هرباً من الواقع بشقيه الحلو والمر.

..2..

صحا من نومه على غير عادته التي لازمته رحلة العمر الطويل، طقس لم يغادره ولو مرة، كان يستيقظ قبل آذان ألفجر بنصف ساعة على الأقل، لم يؤخر أو يقدم ثانية عن هذا الموعد، ساعته البيولوجية تم ضبطها على هذا النمط، حتى أن زوجته الطيبة، ابنة الاصول التي رافقته منذ أكثر من ثلاثين عاما، كانت تداعبه أحيانا.

*والله يا رضوان، أصبحت متأكدة أن العصافير تبدأ بعزف موسيقاها اليومية وزقزقتها عندما تصحو كأن بينكم اتصالا غير مرئي، ما في يوم تسهو وتنسى طبيعتك، ساعة سويسرية عتيقة.
هذه الزوجة بنت الاصول، حقيقة تزوجها تقليديا تنفيذا لرغبة الأب الباحث دائما عن مصاهرات تزيد من وجاهته الاجتماعية، وهذا أمر سارت عليه كل أجيال عائلة (أبو الحمد الرشيدي)، حكوا له وسمع كثيرا أن هذا ميثاق عائلته، لم يغادر ركابهم على طول العقود، لم يستطع أحد من أفراد العائلة أن يخالف أي بند من بنود هذا الميثاق، ولكن للحق منذ اليوم الاول أثبتت أنها خلقت لأن تكون زوجة تفهم كيف يجب أن تكون الحياة الزوجية، أشعرته أنها (الست أمينة) أنموذج المرأة المطيعة لأوامر ونواهي زوجها، ولكن ما يجب أن يذكر وبكل الاحترام أنها زوجة متطورة، متغيرة حتى لا تصل هي أو زوجها إلي الملل، تودعه بابتسامة، تربت عليه بحنان بالغ، يعود منهكا، يجد كل ما بالشقة تغير نظامه، تغير مكانه، مما يشعره بأنتعاشة روحانية، منذ أيام الزواج الأولى، وبحوار متأن وهادئ، اتفقا على عدم الآنفتاح مع الآخرين، العلاقة الجوارية لا تتعدى تحيات الصباح والمساء، والمشاركة بكثير من الحذر والحواجز بالمناسبات، وخاصة بأمور العزاء، الاكتفاء بعلاقاتهم مع الأهل والأقارب، مع وجود حدود احترامية، انفتاح العلاقات يجعلك تدور في فلك أحداث لا تهمك أو تعنيك، ولا يصيبك منها الا كل ما يعكر صفو الحياة ويجعلها عرضه لعواصف وأنواء، فستصبح أشبه بسفينة تتلاعب بها كل أنواع الأمواج وأنواؤها ، تبسم بداخله حينما تذكر مقولة قالها أثناء النقاش، لا يتذكر متى قرأها أو سمعها، لا تجعل أحدا يلون حياتك فربما لا يملك سوى قلم وحيد وبلون وحيد هو اللون الاسود، تفهمت هي وتفهم هو ما يهدفان إليه، وسارت بهم الحياة، بشهور قليلة كانت قد نالت الايثار الكبير من عائلته، كانت وبلا طلب أو أمر لها حين الزيارات المتعاقبة تصر على ترتيب حجرة الأب والأم، تعد الطعام بيديها مصحوبا بفاتح جديد للشهية اسموه ابتسامة (ناهد) أو كما كانت الأم تناديها دوما وبفرحة طاغية (نهوده)، حتى أن الأم بإحدى الجلسات التي تجمعها بزوجات أبنائها تحدثت

*سوف أقول لكم شيئا ولكم أن تعتبروه وصية، مؤكد لكل أجل كتاب، وهذا أمر لا جدال فيه، عندما تحين ساعتي، أوصيكم بأن تكون (ناهد) مع القائمين على تغسيل جسدي وتكفيني، أعرف أنها ستفعل على الرغم من مشقة هذا عليها، هذه وصية والوصية أمانة بعنق صاحبها إلي يوم الدين.
كلهم لحظتها رفع الأيدي، وخرجت أصواتهن بآن واحد كأنهم كورال فرقة غنائية.
* نرجوك يا أمي أن لا تعيدي هذا، ربنا يمتعك صحة وعافية، ويطيل بعمرك، أنت ريحان الحياة
وأنتابتهن موجة من البكاء وانهلن لثما وتقبيلا لها. وقد نفذت الوصية بكامل حذافيرها.
وكان هو أيضا صاحب الحظوة لدى عائلتها، لم تشكُ أو تتذمر أو تطلب شيئا ربما يثقل عليه، على الرغم من يقينها بيساره المادي، لم تفعل ما تفعله الزوجات، أن تستقبل الزوج بقائمة لا تنتهي من الطلبات والشكاوى والنحيب والعويل، على الرغم من أنه لم يكن رومانسيا، أو ممن يجيد الغزل وإطلاق كلمات الحب، كان يكتفي بأن يصوب عينيه نحوها مليئة بعرفان ومحبة، الحب ليس كلمات تقال، بل أفعال عفوية تصل بصدق لمستقبليها، يذكر بأيام زواجه الأولى كان يتعامل معها على أنها أمر واقع فرض عليه وعليها، كان هناك حاجز غير مرئي بينهم، ولكن بذكاء فائق منها استطاعت إزالة كل الجليد، وتجعله يتحقق من مقولة سمعها من أبيه قبل زفافه بأيام، مقولة سمعها من أبيه مرات من قبل، حال زواج إخوته وأخواته، كان الأب حريصا بهذه اللحظة أن يجمع كل الأبناء، يوجه حديثه مباشرة للابن أو الابنة، ممسكا بكلتا اليدين، مصوبا نظراته بحده، يقول بصوت جهوري:
* لا تتعجلوا الحكم على أي أمر من أموركم، التروي وإعمال العقل أساس الحكم بشكل أقرب للصواب بدرجة كبيرة، وهذا مطلوب أكثر بالزواج، الزواج ينقل الآنسان من حياة إلي حياة مغايرة، بدلا من كونه كان تحت مسؤولية أسرته حتى لو كان كبيرا بالعمر، وحينما يصبح زوجا أو تصبح زوجة يجد نفسه مسؤولا، يحتاج بعض الوقت ليتفهم أبعاد هذا الآنتقال من حال إلي حال، ولكن حال الزواج يحتاج ترويا وتريثا أكثر وأكثر.

سار هو وإخوته ذكورا وأناثا على هذا المنهج الذي عايشوه مع الأب والأم، وما يتذكرونه من الجد والجدة، لم يشاهدوا يوما صوتا عاليا، أو نهر بشدة، أو حتى مجرد نظرة غاضبة.
نظرت زوجته إليه بدهشة بالغة دون أن تنبس ببنت شفاة، فهي تعرف طبيعته، أن يترك للحظات حتى يصل إلي يقظته التامة ، نظرت إليه مرات حين طال صمته، مد يده وربت عليه بحنان مرات ومرات، مبتسما بسماته الصغيرة والقصيرة، حدثها قائلا:
*أعرف ما يدور برأسك من تساؤلات، لماذا لست كما اعتدت طوال أيامي، سأجيبك بجد للمرة الأولى لا أعرف سببا لهذا الكسل الذي يعتريني، ويمنعني من النهوض، أشعر بقدميّ كأنهما مكبلتان بأصفاد حديدية ثقيلة، أشعر بحاجتي للنوم، كلما أردت أن أفتح عينيّ كطبيعتهما يعودان سريعا لإطباق الجفون سريعا، ولكني بصدق لن أستسلم لهذا الخمول والكسل، هناك مصالح لناس وشركات معلقة برقبتي، وداعا أيها الكسل، وأطلق ضحكة سريعة مقتضبة، وللمرة الأولى بحياته ومؤكد ربما تكون الاخيرة، قفز من فراشة، وأسرع إلي حمامه، تتابعه كلمات زوجته المصحوبة بضحكاتها التي تشع عطور البهجة.
*هذا يوم لابد من ذكره دوما، الحاج (رضوان أبو الحمد) مزق شرنقته وتمرد على طقوسه، سوف أكتب هذا حتى أسترجعها دوما، وسوف أنبئ الأولاد والأحفاد بقفزة الجد هذه القفزة الشبابية التي لم أشاهدها على مدار سنواتنا معا.
وعادت إلي إطلاق رنات ضحكاتها، أتى من الحمام حليق الذقن، مشذب الشعر المتبقي على الجانبين، باسما مردفا بالحديث:
*دعي لنا بعض الأمور الخاصة بنا، ليس كل شيء يقال.
لم ينتظر الاجابة أسرع إلي ارتداء ملابسه على عجالة، اقترب منها، شدها إليه، احتواها داخل صدره، مال عليها، تناول شفتيها بنهم، طالت القبلة، حتى ان الدموع طفرت من عينيها، بل انهمرت بغزارة، ارتجفا سويا، أرادت الخروج من هذه الحالة، تبسمت بسمه خرجت عنوة.
*ماذا بك؟ هل تشعر بشيء لا نعرفه؟ الله يجعله خيرا بأمر الله.
*حبيبتي، ما يجيء عفويا دون أن يأخذ وقتا للتمهل فهو الصدق الشديد، وأنا عبرت بما شعرته دون أي اصطناع، ولعل الرسالة

وصلت، مع الأسف نحن كثيرا من نتجاهل أمورا نحن بأشد الحاجة إليها، أتركك قبل أن أجد نفسي عدت شابا مجنونا، مفتونا، وآخذك من يدك، نهرول ونذهب لمكان خال من كل الناس، سلام عندما أعود، ربما تجدين (رضوان) بلا أغلفة خارجية، وكوني مستعدة للعشاء بالخارج الليلة وعلى النيل.
رفعت أهدابها، واتسعت حدقتا العينين، صاحت به قبل أن يسرع بالخروج وإغلاق الباب خلفه.
* رضوان) جد ماذا هناك؟، ما أراه وما اسمعه غريب على، مع فرحتي الا إنني قلقة، طمني أرجوك.
* والله والله لاشيء، تقدري أن تقولي لحظة تمرد على اعتياد عشناه طويلا، كان شريكا دائما لنا، الا يحق لنا أحيانا أن نتمرد، وأن نصفق الباب في وجه الاعتياد، آسف لأننا عشنا الملل والسأم كثيرا، صحيح تمرد متأخر كثيرا، ولكن ربما نستطيع الحياة بشكل مغاير.
مد كفه، رابت على وجنتيها، أعطاها ظهره منصرفا، مشيرا لها بالتحية الباسمة.
اعتاد مرؤوسوه ورؤساؤه منه الجدية، وعدم إثارة أية مشكلات، والذهن المرتب القادر على إضافات قوية لنشاطات الادارة التي بدأ بها موظفا بأول درج الوظيفة، حتى وصل إلي منصبه الحالي، مدير عام إدارة التخطيط بوزارة الاقتصاد، كان يفاجئ رؤساءه بتقارير وتحليل للوضع الاقتصادي محليا، إقليميا، دوليا، يناقش ويستعرض المشكلات وأسبابها وحلولها، ورؤياه للقادم، كان يصيب الجميع بالدهشة؛ لذا قفز سريعا إلي الصفوف الأولى، دون أن يمارس الطرق التي يجيدها الكثيرون، التملق أو تنازلات متنوعة الزوايا، على الرغم من هذا كان مبهما للجميع، لا يعرفون عنه أي زوايا خلاف، اسمه وعائلته ومحل ميلاده، وسكنه، أمور لا تشفي غليل أصحاب ألفضول والبحث عن حيوات الآخرين، حاولوا بكل الاساليب، ولكنهم دوما يعودون خاليي الوفاض تماما يتصببون عرقا باردا وساخنا، كل صباح يأتي إلي مقر الوزارة يستقبله العامل المختص بمكتبة الذي ينتظره بموعد لا يتغير بمدخل الوزارة، عندما يرى سيارته مقبلة من بدايات الشارع، يقفز درجات السلم مهرولا بشكل هستيري يعطي إيحاء لمن يشاهده أنه قد ينكفئ على وجهه، ولكن هذا أبدا لم يحدث، بهذا الصباح تأخر عن موعده

المعتاد، ساوره القلق عليه، ولم يكن أمامه الا الدعاء بسلامة العواقب، ولما لا ينتابه القلق، الرجل على الرغم من غموض زواياه الحياتية، كريم فوق أي تصور، كريم دون أن يشعرك بأي نوع من الأمتهان، في موسم دخول المدارس يهمس له باحترام بالغ.
* أنتظرني جانب السيارة، سنذهب لقضاء أمر معا.
يذهب به إلي محلات راقية، يجعله ينتقي ما يناسب أولاده من ملابس مدرسية وما يناسب مناسبات أخرى، يذهب به إلي ألفجالة يشتري كل احتياجات العملية التعلمية على مدار العام، لا ينسى شيئا مطلقا، يصرف ببذخ غير ملزم به،
وكذلك بكل المناسبات، وكثيرا ما يجزل له العطاء، وعندما يعود من القرية، يعطيه مفتاح السيارة قبل انصرافه من العمل، طالبا منه أن يأخذ ما هو موجود بشنطة السيارة هدية للأولاد،
حقيقة هناك الكثير مما يجعله يتصبب عرقا وقلقا.
أنتبه على بوق السيارة الذي يميزه جيدا، انفرج وجهه، لم يشعر بنفسه الا مندفعا يقفز درجات السلم قفزات شاب بالعشرين وهو من تجاوز من العمر الاربعين بعدد من السنوات، أسرع بفتح باب السيارة، تناول الحقيبة المنتفخة بالأوراق، معروف عنه أنه يصطحب معه بعض الأوراق لينهي ويستوفي ما يتطلبه من إجراءات، تعلم من صغره، الا تؤجل عمل اليوم للغد، فما بالك بعمل يحتاج سرعة إجراءات، الوقت لا ينتظر وتكلفة انتظاره باهظة وباهظة للغاية، نزل على غير عادته بالسنوات الاخيرة، كان يرتكن بنزوله على ساعد العامل، هذه المرة أزاح ساعده برفق، نزل رشيقا، منتصب القامة، مد يده داعب وجنتي (منتصر) العامل بربتات حانية مرات ومرات، على قدر سعادته بهذه المداعبات على قدر ما أصابته غصة فجائية آلمت صدره، ترقرق الدمع بعينيه، وجد نفسه لا إراديا ينحني يشد يد (رضوان بك) كما اعتاد أن يناديه منذ أن عمل معه، أراد تقبليها، أنتفض جزعا ساحبا يده بشده وللمرة الأولى يصرخ به ناهرا بعنف حتى خيل (لمنتصر) أنه ربما يصفعه عدة صفعات.
* ماذا تفعل، أنا لا أحب منك أو من غيرك هذا، نحن جميعا أبناء لأبي البشرية (آدم) الذي لم يفرق بين أبنائه، لا فرق بين أحد وآخر.
أرجو أن لا تفعل هذا مطلقا معي أو مع أي آخر، يا أخي لماذا تقلل

من نفسك، الناس ليست ثروة وجاه ومناصب، كل هذا زائل، ما يتبقى الا السمعة وطاعة الله.
أسرع الخطى يسبقه ليفتح باب المكتب، وضع الحقيبة مكانها المعهود، أخذ جانبا حتى جلس، وقف أمامه بانتظار أي توجهات، أشار إليه أن يأتي إليه بقهوته، وأشار إليه بالآنصراف طالبا منه إغلاق الباب خلفه ولا يدع أحد يدخل لبعض الوقت لإنهاء بعض المهاتفات، بعدها ينغمس تماما بفحص ملفات مرتبة بما يراه، الاهم فالمهم، بكل ملف يضع ورقة بيضاء يدون رؤيته، والتأشيرات والملاحظات التي يراها هي القرار النهائي، بعدها يتناول التقارير الواردة من موظفيه لمهام كلفوا بها، كثيرا ما يرسل لصاحب التقرير يستدعيه للحضور، يناقشه بالتفاصيل التي بتقريره، يحاوره بهدوء، يبلغه أنه كان صائبا في هذه الجزئية، وجانبه الصواب بجزئية أخرى، يعطيه بعض نصائحه، دوما يبتسم ابتسامته القصيرة والهادئة، ثم يعطي بعض التوجيهات لأمور أخرى يتم تكليفهم بها، يقطع دراسة ملفاته رنين الهواتف المتراصة على مكتبه، يسمع بلا أية مقاطعة، يكتفي بترديد، واضح، مفهوم، أرى أن نهتم بعض الشيء بهذا الجزء، يضع السماعة، يتناول أخرى، بصوت خافت دائما، يلقي أوامره وتوجيهاته، بهدوء تام، لا يذكر أحد بالوزارة أنه سمع صوته يعلو، حتى بأوقات الازمات الطارئة، لا يتوتر، يبحث عن معالجات بمنتهي الهدوء والتصالح النفسي، مؤمن تماما بأن التوتر والعصبية والآنفعال الزائد، هو السبيل الاساسي والحتمي وبنسبة كبيرة للقذف بالاهداف المرجوة والمنشودة لأي من أمورنا الحياتية والعملية على تعدد زواياها إلي التهلكة وألفشل، عندما يدعى للقاء الوزير ونوابه ومساعديهم ومديري الأقسام، يفاجئهم دوما بتقديم ما يشبه التقارير عن نتائج الأعمال عن فترات زمنية ماضية، يفند السلبيات وأسبابها ويضع أمام أعينهم سبل وطرق العلاج، يبرز الايجابيات، يشرح شروحا وافية عن أسباب نجاحاتها، ويضيف إليها ما يراه من إضافات تزيد من الوهج الايجابي، يقدم دراسة شاملة مع خطواتها ورسوماتها البيانية لخطط تناقش، يشرح ويقدمها بشكل مبسط وسلس التي تجعل من الخروج بها إلي أرض الواقع وحيز التنفيذ سهلا، بريق الدهشة نحو هذا الرجل الذي يسبق الجميع بخطوات وثابة يزداد كل اللحظات، الكثير من

القيادات دائمي الاستشراد بآرائه ورؤياه، الآنبهار مع كبر التساؤل داخلهم، عن مكنونه الخفي، وحرصه الدائم على أن يبعد بخصوصياته كل البعد عن أن تكون ضمن وليمة النميمة اليومية، تعاقب عليه الكثير من الوزراء وأصحاب القرار، بدون أن يتقرب أو يمارس لعبة الرقص أمام الجميع، كان ينال الحظوة دون سعي منه، وكأن من يترك الوزارة إقالة أو استقالة أو تعديل وزاري، يترك ملفا لمن يخلفه عنه، ما من رحلة عمل لوزير أو مسؤول كبير للخارج أو بالداخل الا وكان على رأس القائمة، ما إن يأتيه علم بأن هناك مهمة الا وتجده يعد تقريرا وافيا محدد الملامح، يبين سياسات الجهة المتجهين إليها، سياستها الخارجية، الاقتصادية، وأوجه التعاون الممكن أن يكون بين البلدين، بكل رحلاته كان يجد نفسه محط الآنظار، الكل ينصت بكل ما بالمسام من خلايا الآنصات، وبذات الوقت يحاولون قراءة ما بداخله، ولكن هيهات، الوجه هادئ، منبسط الملامح، لا تظهر عليه أي من أمارات تساعدهم على الولوج لعالمه أو قراءة سيكولوجيته، هو يتذكر جيدا هذه الليلة التي جلسوا جميعا متحلقين حول الأب، عادة كان ينتهجها الأب، ولكن بلا مواعيد محددة، أن يجلس متوسطا كل أهل بيته، يتذكر جيدا كلماته.

* سوف أقول لكم كلاما أرجو أن يكون ساكنا داخلكم ما حييتم، وأن يكون أيضا دائمًا أمام أبصاركم، وورّثوه لأولادكم، لكل إنسان خصوصياته، هناك خصوصيات عامة، وأقصد هنا خصوصيات العائلة والأسرة بكاملها، وهذه تحتاج دوما للجلوس ومناقشة مستجدات حياة الأسرة بما يضمن أن تسير بشكل مستقيم، واثقة الخطوة والهدف، هذه خصوصية تقرب بينكم، لأنكم نسيج واحد، لابد لكم من التماسك والالتفاف سويا لدرأ أي منغصات أو ما يؤدى إلي تفريق شملكم، إن حدث وسمحتم بتفتيت خصوصياتكم العامة، سيكون الثمن غاليا، أن يعيش كل منكم بجزيرة منعزلة، وهذا لا أرجوه لكم سواء كنت حيا أو ذهبت إلي رب كريم، وهناك الخصوصية ألفردية التي تخص الآنسان وحده، وهذه وأؤكد الاف المرات، يجب عليكم الحرص عليها، بمعنى لابد لكل منكم أن يكون له بعض الجوانب والزوايا التي تخصه وحده، لا أن تكون أشبه بالثياب المعلقة باستمرار على أحبال الغسيل تتعرض لكل أنواع

التعرية، أن تكون عرضه لملايين العيون، كل منهم يلوكها ويمضغها بالطريقة التي تناسب عقيلته وتفكيره، إن تحولت خصوصية الآنسان للتعرية والأختراق، لن يستريح مطلقا، لأنه عار مجرد من كل أرديته أمام الجميع، حينها تأكدوا أن كل الطرق تؤدى إلي توجيه كل الطعنات إليكم وتظلون بحالة نزيف دائم، لا يعرف الطريق إلي الآندمال والشفاء على مدى طويل وبعيد، ليس معنى قولي هذا مطالبا لكم بالعزلة وإغلاق الأبواب أمام المجتمع المحيط بكم، ولكن لابد من وضع حواجز لحد ما، الخصوصية ببعض جوانب حياتنا، مثل صناديق الطائرات والسفن، هم يسمونها سوداء، ولكني أراها بيضاء، عيشوا الحياة بوسطية، لا مغالاة ولا مزايدات أو تطرف أو تضخيم للأمور، هذه رسالتي توارثتها من السابقين ومن خبرتي بالحياة، أعرف تماما أن كلماتي ستظل نصب أعينكم لأنها كانت عندي أيضا إرثا عن الأجداد، يحفظكم رب العباد.
تمتم داخله مادا يده يمسح بها بعض دمعات لاحت بمقلتيه.
* رحمك الله يا أبي، والله أسير على منهاجك، وورّثته لابنائي، صحيح أن الولدين كل منهم مغترب باختياره، لم أقف مطلقا أمام رغباتهم، لأني علمتهم الحوار الديموقراطي، وتحمل المسؤولية، مع الحفاظ على موروث العائلة من العادات والقيم والاعراف، والتمسك بتاريخ الأسرة والاضافة إليه من نجاحات وتميز، حقا أوجه التشابه تنتقل مع كل الأجيال، ليس ضروريا أن يكون التشابه ملامحا وبنية جسدية، التشابه بألفكر، بالنمط الحياتي، بالكياسة وألفطنة وتحديد الخطوات والمواقف بلا تردد وبهدف واضح.
على الرغم من انهماكه الكبير بالعمل وأنكبابه على ملفات العمل بألفحص الهادئ، وسيل المكالمات التي لا تنقطع الا أنه لا يشعر بأي نوع من الاجهاد الجسدي أو النفسي.
قطع حبل أفكاره والتدقيق بالملفات المكدسة أمامه، رنين متواصل من الهاتف، تجاهل الرد مرة، وعندما تواصل الرنين، رفع السماعة، وقبل أن يتلفظ بالسؤال عن ماهية الطالب، أتاه صوت متحشرج مكتوم، مشوب بدموع، كلمات متقاطعة تحتاج لمن يجيد تكوين جملها.
* أنا (حسين) ابن عمك (أبو الوفا أبو الحمد)، أحتاجك لأمر عاجل، لا يصح إيضاحه بالتليفون، غدا الجمعة أحضر إليك قبل صلاة الجمعة،

نصلي بالحسين ثم نجلس بمكان هادئ، لأن الأمر لا يمكن الحديث عنه ببيتك، لن أزيد أنا فعلا بحالة تخبط، أنتظرني غدا، سأحدثك لحظة وصولي القاهرة، سلام وأسرع بإغلاق الهاتف تاركا له نهبا بالتساؤلات والقلق، تمتم لذاته.

•يارب يكون خيرا، ولكن الصوت وحشرجته واحتمالية البكاء لا تنبئ بخير، يارب سهل ويسر.

دق الجرس يستدعي (منتصر)، دخل مسرعا دون طرق الباب، وقف منتظرا التعلمات التي يعرفها تماما، هي ساعة إنهاء عمل اليوم، ينتظر نهوضه من كرسيه، يسرع لتناول الحقيبة التي دوما منتفخة، يسرع بفتح الباب ويفسح الطريق له ليمر، يسبقه لفتح باب السيارة التي يحمل مفاتيحها من الصباح، يودعه بالدعاء المعتاد.

*يارب طريق السلامة، ربنا يمتعك بالصحة والعافية، لا يترك مكانه الا بعد إعلان السيارة بداية العودة.

تذكر وعده لزوجته بتناول العشاء بالخارج، طرأت برأسه فكره، يعرف مدى عشقه وعشق زوجته للطرب الاصيل، قرر على ألفور مفاجأتها بحجز تذكرتين بحفل فرقة (أم كلثوم)، توقف بالسيارة بمكان، بعيدا عن حركة السير، أخرج هاتفه، بادر بمهاتفة صديق له يعمل بدار الاوبرا، لم يطل رنين هاتفه، جاءo صوت صديقه (خالد محروس) كعادته ضاحكا بشوشا.

*يا الله فعلا القلوب عند بعضها، حالا والله كنت أفكر بالاتصال بك، أكثر من أسبوعين لم اسمع صوتك، تحت أمرك يا غالي.

*أريد حجز تذكرتين بحفل فرقة (أم كلثوم) هذه الليلة، أنا فعلا مقصر معك، ولكن أنت تعلم مسؤوليات العمل، سوف نلتقي قريبا، أنتظر أن تخبرني بالحجز، اترك التذكرتين باسمي لدى شباك التذاكر، دوما أثقل عليك، سامحنا.

*لا تقل هذا الكلام ثانية، نحن إخوة، سلام يا غالي.

سار وبرأسه مطارق تدق رأسه، طرقات ودقات متصاعدة، منذ أن هاتفه ابن العم، السؤال ينهشه تماما، ماذا هناك ليستدعي الحضور؟، وحشرجة الصوت، ماذا هناك؟، يئس تماما من الوصول لتفسير، عند سوبر ماركت على مقربه من منزله توقف، هاتف زوجته طالبا أن تحدد احتياجاتها من السوبر ماركت، أملت عليه قائمة، سارع للتجول بزوايا المكان، يدفع عجله الشراء أمامه، يتوقف

هنا وهناك، انتهى أخيرا، أخذ مكانه أمام الكاشير، أعاد مهاتفة زوجته ليتحقق من عدم نسيانه أيا من الطلبات، صاحبه أحد العمال، دافعا أمامه عربة التسوق، هو وجه مألوف للعاملين بالمحل، كان شديد السخاء معهم، عاد منشطرا إلي قلق يسكنه بشأن ابن العم، وسعادة تغمره تشعره بحيوية افتقدها من سنوات لا يعرف مداها.
لم يشعر الا بيده تبحث عن كاسيت به موسيقا (ألف ليلة وليلة) موسيقا تجعل منك شاعرا تتماشى مع النغمات وتنظم كلمات أخرى، رفع عقيرة جهاز كاسيت السيارة، كاد أن يتمايل ويصفق مع الموسيقا، كلم نفسه.
*اه واه لو رأتك (ناهد) وأنت على هذه الحال لوصفتك بالخبل، حمل ما أتى به، صعد درجات السلم يدندن، وضع الحاجيات على أقرب مكان، نادى بصوت منغم متقطع، ن ا ه د، أتت مهرولة، لم تسمع هذا النداء من سنوات، كان يرددها دوما، يبدو أن بعض الكلمات هي أيضا تصاب بانتهاء الصلاحية، اتسعت حدقاتها دهشة، لا أثر لما تعودت عليه، الوجه الذي لا تستطيع قراءته، بقدرة قادر تحول إلي كتاب مفتوح، كل جزء منه ينبئ عن أن هناك أمورا جعلته ينزع قناعه اللصيق به، لم يشبع رغبتها بألفهم، بل سارع بطلب الغذاء فهو على حد قوله جائع، وجه لها الحديث.
*نتناول عداءنا، ثم نخلد للنوم قليلا، وراءنا عشاء بالخارج، هيا لا تضيعي الوقت، بالتأمل بي، والله أنا زوجك (رضوان) لم أتغير أو أتبدل.
قفز نحوها فاتحا ذراعيه على كامل سعتهما، راغبا باحتضانها تنازعه الرغبة في أن يرفعها بين يديه، ويدور بها هاتفا وزاعقا بكل ما بحنجرته من قوة، أحبها، أحبها، هي أدركت ما ينويه وما يريده، هرولت نحو المطبخ، ضاحكة توجه له الحديث.
*ماذا بك يا رجل؟ هل أصبت بداء مراهقة الشيخوخة؟ أنسيت أنك جد؟.
*وهل السن أيا كان يمنع أن نعيش الحب؟ وأن نمارسه ونتمتع بمذاقه؟ عامة ننتظر الغذاء، وللحديث بقية.
مردفا ختام حديثة، بقهقهات عالية صاخبة زادت من مساحات الدهشة لديها.

تناولا الغذاء بين حوارات عن أيام خوالٍ مضت، عن بعض مواقف مرت بهم، مع بعض اللمسات الحانية، يتضرج وجهها باللون القرمزي كأنها فتاة بالعشرين، حكى لها عن مهاتفة ابن العم، وأنه لم يجد تفسيرا، ساعدها بنقل أوعية الطعام إلي المطبخ، وضع يده على كتفها، يبعثر شعرها الاسود ألفاحم، المسترسل حتى الردفين، يقبله، سار بها إلي حجرة النوم، جلسا على حاله ألفراش، يتلمس جسدها بأصابع عازف ماهر، استكانت بحضنه، هي منذ أن دخل الشقة، بعيونه نداءات تعرفها، طرحها على ألفراش، أخذ يقشرها من ثيابها، يقبل الثياب، كلما قبل جزءا، تموء مثل قطة سيأمي جميلة، الدماء الحارة سادت كل جسديهما، أقبلا على بعضهم ملتحمين ومنصهرين تماما، أحس هو وأحست هي كأنهما بليلة زفاف أولي لهم، طال بهم أمد الحب، وعندما انتهيا، أدخلها بين ذراعيه، تتوسد صدره، بين اللحظة والآخرى يتبادلان النظرات عفويا وبآن واحد، تعلو الشفاه بسمات خفيفة، تساؤل يتصاعد داخلهما.

*ماذا حدث؟ ما سبب التغير الذي ألم بهما في وقت واحد؟ هل هو إحساس بحاجتهم إلي الاحتواء، الاهتمام أكثر؟ فلم يعد لهم من أحد، الولدان كل منهما انطلق إلي عالمه، أخذتهم حياتهم الجديدة، أصبحا لديهما مجرد اسماء مدونة بشهادات الميلاد، يتصدقون عليهما ببعض المهاتفات صوتا وصورة، وبعض الزيارات التي تتباعد بين الوقت والآخر، زيارات أياما وتنتهي أسرع مما بدأت، وكأنهم يتوسلون ويتضرعون للأقدار أن تسرع بانسلاخهم عن حياتهم السابقة، تنهيدة طويلة للغاية خرجت من الصدور، تمني كل منهما أن يصرخ بكل ما بالصوت من علو، الا لعنه الله على صناع الرياح والتغيرات التي قتلت الكثير من القيم والرواسخ التي تربينا عليها، فسخت كل شيء، صلة الرحم، الود، دفء التلاقي، صرنا الات صماء، مجرد إرسال واستقبال، يااااه كم أنت عجيب أيها الزمن! وكم أنت عجيب أيها الآنسان! تهرول دون تمحيص وتمعن وتدقيق ودراسة لما يأتيك من الرياح والاعاصير يبهرونك بصريا وغرائزيا فيسيل لعابك، ولا تنتبه لعديد من ألفخاخ والشراك المعدة لك بمهارة تامة، يا الله كم أنت ساذج أيها الآنسان!!، تنهيدة عميقة ذات رنين صدرت من كليهما بوقت واحد، بعدها لاذ كل منهما بالآخر وذهبا بسبات عميق، انتفض على رنين المنبه المرتفع، نظر

عفويا إلي ساعته، يالله لقد استغرقا بالنوم ساعتين أو أكثر، ربت على ساعدها برفق، فتحت عينيها مبتسمة، طالبها بالأسراع لأخذ حمامها، وهو أيضا سيفعل، لأن الوقت داهمهم.
*أي وقت مازال الوقت باكرا، عادة لا نتناول العشاء الا بعد العاشرة، فلماذا التعجل؟
*أعددت لك مفاجأة، فهيا لترينها.
*أية مفاجأة؟
*كيف تكون مفاجأة إذا؟، الاهم أنها سوف تبهرك، هيا أسرعي.
لم يمر وقت طويل الا وكانوا على أهبة الاستعداد للخروج، تباطأ ذراعها، بعد نصف ساعة كان يدخل بها إلي مبنى الاوبرا، هي طوال الطريق تناشده السؤال عن أين وجهتهم؟ ينظر إليها مبتسما.
*صبرا، لحظات وتجدي الاجابة، لا تتعجلي.
عندما وجدت نفسها بمضمار الاوبرا لمعت عيناها ووجدت نفسها تعانقه، تجذبه إليها تطبع قبلها على جبينه، تربت كثيرا على يديه، أخذا الطريق إلي أماكنهما على حسب التذاكر المرقمة، ساعتان من الطرب الكلثومي الشامل لأغان عدة مرت بكل مراحل رحلة غناء سيدة الغناء العربي (أم كلثوم)، بعدها ذهبا إلي أحد المطاعم المطلة على النيل، بالهواء الطلق تتفتح الشهية، يتأملان
صفحة النيل وانسياب مياهه، سريان المياه أشبه بشريط الحياة، بها التواصل، بها توقف قليلا كأن المياه أيضا تفكر بخطواتها القادمة، الوقت قارب على منتصف الليل، جميل أن الغد يوم جمعة، عادا لمنزلهما كل أرديتهم مليئة بألوان شتى من السعادة، بدلا ملابسهم، هو يشعر برغبة عارمة لمطارحتها الحب من جديد، علت شفتيه بسمة خفيفة، تذكر قول صديق له، لا حديث له الا عن الحب وأطروحاته التي لابد أن تتغير بين الحين والآخر، مرة همس لجلسائه.
*احذروا أمرا مهما، أن لا تظهروا اللهفة بشكل مبالغ به، النساء لديهن قرون استشعار قوية، قد تذهب بهن إلي أن هذه اللهفة الشديدة هي محاولة من الرجل لتطهير نفسه من إثم ارتكبه سواء فعلا أو قولا، كونوا طبيعيين لا تندفعوا إلي أمور تدعو للجدل.

بريق عينيه يحدثانها عن رغبته، هي أيضا تضرج الوجنتين تنبئه بذات الرغبة، اندفعا إلي بعضهما بتلاحم اشتاقا له طويلا، بعدها استغرقا به تماما.

..3

..استيقظا قبيل ألفجر، سارعا بالاغتسال والوضوء، جلسا على مقاعدهما اليومية، هم اعتادوا هذا من اليوم الاول، أخذا بتلاوة القرآن الكريم بصوت يجمع بين الخفوت والعلو، يتماهى كل منهما مع الترتيل بخشوع تام، بل كثيرا ما تتبلل الوجنتين بدموع العشق الالهي، آذن ألفجر، الاذان يتردد من مساجد وزوايا قريبة وبعيدة، يشعران أن الدنيا كلها تؤذن وتعلن الخشوع، سبحان الله! لحظة الاذان هدوء تام يغلف كل الاجواء، كل كائنات الحياة تستجيب، لا أمر يعلو فوق أمر ونداءات الله، يؤم الصلاة، تنساب كلمات القرآن بسلاسة وخشوع وتهدج الصوت، كل مسامهم خاشعة، متضرعة أن يظل القرآن ربيع قلوبهم، بل ربيع كل محتواهم، ينهيان الصلاة، يأخذان بالدعاء لوقت غير محدد، هذه لحظة التماهي والتفاني في حب الله، بعدها تنهض لتعد له كوبا من اللبن الدافئ المحلي بملعقتين من العسل الأبيض المضاف إليه بضع جرامات من غذاء الملكات، هذا دوما يكون قبل إفطاره بساعة زمنية، ينهض ذاهبا إلي الشرفة التي أصر حين أكثراء هذه الشقة أن تكون شرفتها واسعة، تسهل الحركة بها، وأن تتيح الرؤية بزوايا متعددة، يجلس على كرسيه الهزاز، يهزه أماما وخلفا، طقس اعتاده لم يتقاعس عنه مطلقا ولا يتغير، أحيانا يغمض عينيه، محاولا استرجاع بعض الأحداث القريبة والبعيدة، يرتكن أحيانا على سور الشرفة، تلقائيا يفك أزرار منامته العلوية، يستقبل نسيم الوقت الباكر وقتا طويلا، كأنه يطمئن على وجود مخزون ورصيد ربما يجده أيام الجفاف، أيام الجفاف لديه هي أيام لا يستطيع مزاولة طقوسه، دوما هي جلستهم بعد صلاة ألفجر، يتبادلان الحديث بالعيون والبسمات، كثيرا ما تجد نفسها تبكي، يربت عليها يهدئها.

*أرجوك لا داعى لتكرار هذا، دعواتك لهم، أنا مثلك أفتقدهم، ولكن هذه الحياة، هم بحاجة لأمان، الزمن أصبح بحاجة للركض السريع للوصول لأحلام وأهداف، دعواتك.

يقترب منها، يضم رأسها يقبله مرات مع ربتات حانية، تدفعه برفق قائلة.

*هل من العدل أن نتعب ونسهر الليالي، نكبر ونحلم بهم معنا لا يغادروننا، وعندما نصل لمحطة الحلم واكتمال تحقيقه، تأتي الزوجات وتبتعد بهم، صحيح هي الحياة، فقط الحياة يجب أن تكون رحيمة بنا، كان يجب أن يظلا أمامنا نراهما دوما، نستعيد حياتنا وحياتهم من أولادهم أحفادنا، حلمت معك بلعبهم أمامنا يضيؤون حياتنا، ولكن بالنهاية ذهب كل من الولدين، واحد بالشرق، والثاني بالغرب، لا نراهم الا على فترات طويلة، لأيام، نراهم من خلال الخصائص الالكترونية الحديثة، كل شيء أصبح معلبا، داخل أنبوب، غابت الروح، هكذا الحياة، الأهل يزرعون ويبذلون حياتهم، والآخرون يتمتعون بالثمار، ربنا يسعدهم.

ترتمي على صدره وتبدأ بالبكاء والنشيج، يأخذها بصدره، يقبل رأسها مرات ومرات حتى تهدأ تماما، الغريب أن الخوف ينهشها أكثر كلما طلبها للمطارحات الحميمية،

تساؤل لم يغادرها يوما، أليس من الممكن أن يكون حاملا لموروث العائلة، هذه العائلة المزواجة، سألته يوما عن هذا، أجابها بهدوئه المعتاد وببريق عينيه الذي لم يخبو يوما، بل يزداد كلما مر العمر! وبسمة ساحرة تعلو شفتيه تقول الكثير مما هو مكتوم.

* ولماذا أكون شبيها؟، لكل قاعدة استثناء، وأنت بلا مبالغة استثناء، وجدت بك كل النساء، أنت أنثى كل الاوقات وألفصول، أعطيتني كل ما حلمت به، فكيف أكون لغيرك؟ صدقيني عندما تسول لي نفسي بالنظر لسيدة سواك بالطريق أو بالعمل أو بمناسبة عائلية، أجد حبك يعيدني للصواب دوما، ثم هل من الضروري أن أكون شبيها لعائلتي؟، رحم الله رجلا عرف قدر نفسه.

وتعلو ضحكته منهيا وساوسها.، يخرجها من هذه اللحظات المؤلمة والمربكة بالحكي عن مواقف سابقة تدفعهما للضحك حتى تدمع عيناها، طقس يومي لم يتغير منذ اليوم الاول للزواج حتى بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما، لم يتغير الا بالنذر اليسير، عند زيارات للأسرتين، أو وعكة صحية ألمت بأحدهما، لم يتفقا عليه، كان عفويا دون أي ترتيب أو نقاش. داوم على الإفطار بالمنزل، أيضا حريص على ضرورة الغذاء بالبيت، الا عندما يستدعي العمل ساعات مطولة، يتناول شيئا يسد رمقه، ويسرع لمشاركتها جلسة الغذاء اليومية، تشعره هذه اللحظات بكثير من الحبور الذي يضخ بلا توقف أوكسوجينا شديد النقاء، له إحساسه بأن الأيام لا ولن تغير به شيئا، وهذا أمر جميل.

..4...

.بهذا اليوم جلس جلسته نفسها، أتت له بكوب الحليب الدافئ المحلي بالعسل وغذاء الملكات، يتجرعه دفعة واحدة، هو بهذا يسير على ذات منهج الأب والجد، الفارق الوحيد أنهم كانوا يجلسون ببهو البيت، الجد كان يختلف قليلا، كان يضيف بضع بيضات نيئات إلي المشروب، يتجرعة دفعة واحدة دون توقف، الأبناء يحيطون به، عندما ينتهي يوجه نظره إليهم إشارة إلي أن يفعلوا مثله، كان صغيرا يجلس بين الصغار الأكبر منه أو الاصغر منه، يشاهدون المشهد اليومي، الأب والأعمام كل منهم يستجيب لنظرة الجد، يرفعون الآنية إلي أفواههم، يرى من يتجزع، ومن يمتعض، ومن يتلذذ، ومن يغمض عينيه هربا من هذا، الكل يمتثل دون نقاش، بعدها تكون الصواني قد أعدت، الجد والأبناء يلتفون حول أكبر صينية، ثم صواني الحريم، زوجات الجد، هو رجل مزواج، لم يتوصل أحد إلي عدد زيجاته، كان أهل القرية يهمسون أنه يتزوج كل فصل، للربيع زوجة بمواصفات خاصة، ولكل من الشتاء والخريف والصيف ما يناسبه من زيجات، كان يسرح بعضهن بكل معروف، يبتني لها بيتا مستقلا لها ولأولادها، وينفق عليها كأنها زوجته، وربما يعيدها يوما ما، والصغار على حسب العمر حول عدد من الصواني، الصبيان على حدة، والآناث على حدة، لا يجرؤ أحد على البدء بالطعام الا بعد أن يرونه يشمر أكمام جلبابه الواسعة، وتمتم بالبسملة، ثم اقتطاع لقيمات من الخبز وغمسها بالطعام، بعدها تجد هرولات وتدافع الصغار نحو الطعام، تدافع بلا أي جلبة أو ضوضاء، الكل على رأسه الطير، الصمت التام يسود المكان، لا تسمع الا قرقعة الملاعق، يتمهل الجد

بالطعام كثيراً، فسره يوما لصديق له، أنه يفعل هذا حتى يأخذ الجميع حقهم من الطعام، ظلت هذه الطقوس سائدة بكل الوجبات، حتى غادر الدنيا بعمر يقارب التسعين دون أن يشكو مرضا أو وهنا، بل أنه قبل وفاته بعام تزوج فتاة بالعشرين، كان زواجه هذا دائم الحكي على المصاطب والعتبات، وسهرات أهل القرية، العجيب أنه تركها حاملا بالشهر السابع، مات وهو جالس أسفل شجرة توت عملاقة بالقرب من مدار الساقية، غادر بلا أي مقدمات، شيع إلي مثواه وسط حشد لا يظن أحد أنه يتكرر، الناس بالقرى يحتضنون بعضهم، يحتضنون الألم والوجع وأي مصاب جلل، مثلما يحتضنون ألفرح والسعادة والمناسبات المبهجة على اختلاف مسمياتها، يااللهول الفارق بين ناس المدن وناس القرى، بالمدن الكل بعزلة تامة، لا يعنيه أي أمر حتى لو كان جارا له بالبناية نفسها، الكل له جزيرته الخاصة والمنعزلة عن الآخرين، تبلدت الاحاسيس والمشاعر، الكل أسير الذاتية والآنانية والمصالح الخاصة بشكل مفرط، العلاقة بين أهل المدن هي إشارات باليد وإيماءات بالرأس وكفى؛ لذا تجد البرودة والغربة سائدة بغالبية بيوت المدن، خلاف القرى وإن أصابتها بعض رياح التغير ولكنها لا تبتعد بهم عن موروث عاداتهم وطباعهم، ودوما الود والتراحم موجود بشكل عفوي وتلقائي.

...5....

.بهذا اليوم غادرت رداء ظل محتلا لها عمرا طويلا، ما إن وضعت الطعام البسيط للإفطار حتى سارعت بشكل أدهشها، تشعر كأنها بسنوات شبابها الأولى، أنها خفيفة الوزن بلا ترهلات أو زيادة وزن، أو أنها حملت وأرضعت، وزادت عدة كليوجرامات على وزنها من جراء كل هذا، وكأن هذه قد تعرضت لبعض النيران التي ساعدتها على التساقط من على كأهلها، تركض نحو حجرتها كأنها ابنة العشرين، شعرت كأنها ليست هي، لم تمارس الركض منذ السنوات الأولى للزواج، كأنما يركضان خلف بعض مع ضحكات تجلجل، ومداعبات، وقفت أمام مرآتها، تتأمل وجهها، وجه ضاعت منه التجاعيد التي كانت بدأت ترتسم على جيدها، مررت يدها على الوجه كاملا، يا الله ما هذا؟ بشرة ناعمة تماما كأنها بشرة صبية بمعية الصبا، ابتسمت لذاتها، حقا الحب الصادق مع مطارحة الجسد أوكسير يجدد الخلايا، هو الليلة ألفائتة أشعرها أنها بليلة زفافها الأولى، الأشياء العفوية التي تأتي على طبيعتها تكون كاملة الأمتاع وإعادة بناء الخلايا والافئدة، بعثرت شعرها على وجهها، مازال شعرها تاجا وشلالا أسود طويلا، هو يحب دوما بعثرة شعرها، يقول لها: إنه يراها أشبه (بموناليزا هذا الزمن)، أو (نفرتيتي فاتنة ألفراعنة)، الليلة كانت غير

كل الليالي، للمرة الأولى يتفوّه بالحب صراحة وبصوت عال، كان يكتفي بالهمس الشحيح، البارحة اسمعها أحلي الكلمات تحول إلي شاعر من الكبار، تنساب الكلمات العذبة السلسة التي تدخل القلب بلا أي استئذان، هو أيضا نزع رداءo، كان يقول: إن الحب فعل يحس ويصل للطرف الآخر، هي تعودت منه هذا، أشعرها بهذا، دون أي كلمات طوال سنواتها معه، ولكن الذي حدث الليلة جعلها تعرف أن للحب زوايا متعددة، كلمات الحب التي تنساب من الافواه دون ترتيب أجمل موسيقا تصويرية يمكن أن يبدعها أعظم موسيقار، مؤكد أن (بيتوهفن، وموتسارت)، وكل موسيقي العالم العظام عاشوا الحب قبل أن تداعب أناملهم الاتهم الموسيقية ويحدث التناغم الذي يعطينا هذا الجمال الموسيقي، تساءلت بصوت بين الخفوت والعلو، لماذا الآنسان دائم البحث عن الوجع والألم ويترك السعادة تتسرب من بين أصابعه، وبعدها يعض البنان ندما حيث لا ينفع الندم؟ غريب أن يركن للسكون، الا يعلم ويعرف أن السكون هو الارتماء بأحضان كل الكسل والعفن؟! ألقت بنفسها فوق ألفراش، أغمضت عينيها، وجدت نفسها تستعيد تفصيلات من أعوام بعيدة، هي ابنة كانت ختام رحلة إنجاب والدتها، بعد ثلاثة من الذكور، حملت بها بعد عشرة أعوام من إنجاب أخيها الاخير، حكوا لها أن فرحة أبيها بها عادلت كل فرحته بالذكور، كان دوما يقول لأمه:

*من أسعده الله ببنت ضمن حنان واهتمام بقية العمر، أما الأبناء يأتي الوقت وتكون لهم حياتهم الخاصة، ينشغلوا بها عنا، هذه هي الحياة مهما كانت تربيتهم ونشأتهم.

كان دوما يجلسها على ساقه حتى وهو جالس بين مجلس رجال، يهدهدها، يداعب خصلات شعرها، يربت على وجنتيها، يميل عليها يقبلها، كانت بيضاء البشرة المحاطة بدموية شديدة تورد وجنتيها، شقراء الشعر المسترسل الطويل، ورثت هذا كما قالوا لها من جدتها ألفرنسية التي عرفها الجد حينما كان يدرس بفرنسا، تركت الدنيا كلها لأجله، كانت غزيرة الثقافة، تجيد الحديث بكل شيء، وبعدة لغات، تعزف الموسيقا، تعشق السيمفونيات، تغني بداية كانت تغني سوبرانو، ثم بعد إقامتها عشقت الغناء المصري الاصيل، عشقت (عبده الحامولي، سلامة حجازي، داوود حسني، سيد درويش)، وغيرهم من أساطين الطرب، كل هذا سمعته الاف

المرات، لم تنل حظا من رؤيتهم، شاهدتهم من الصور المنتشرة بالمنزل .كانت مدللة من الجميع، الأب كان يراها عوضا عن أمه، ملامحا كان دائم الحكي عن أمه أكثر من أبيه، لم تفهم لماذا؟ الا بعد أن شبت وعرفت أن الأم هي الشاطئ الأمن للأسرة، قالوا لها: إنها نسخة أصلية من جدتها، نفس الملامح، نفس حركات اليدين، نفس الطباع الهادئة المتزنة، قالوا مرارا أن روح الأحبة تغادر جسدا عزيزا تسكن جسد عزيزا آخر، كانت كل رغباتها مجابة بلا نقاش، تنافس الكل بدلالها، شيء واحد غير مسموح به، عدم الأختلاط بأحد من خارج العائلة، ليس تعاليا، ولكن نوع من الحذر الشديد، بكل مراحل تعلمها، تذهب مع (عبد الغنى) سائق الكارتة، يذهب ويعود بها، من يريد من رفيقات من خارج العائلة فيأتين هن بعد إذن الأم، تلعب ورفيقاتها تحت عيون الأم، تراقب عن كثب، من تجدها متشابهة لحد كبير مع طباع ابنتها أهلا بها، غير ذلك مرة وعدت والطلب من ابنتها عدم الاستمرار مع هذه وتلك، كانت تنصاع بهدوء، كانت متفوقة بكل سنوات تعلمها، أتوا لها بمن يعلمها اللغات، اللغات كما تردد كثيرا على سمعها، جسر مهم لفهم الشعوب، أتوا بمن يعلمها الموسيقا والعزف على عده الات، كانت تعشق الرسم، أتوا لها بمن تعلمها الرسم بشبه احترافية، لم ينسوا أن يعلموها فنون الطبخ وإدارة بيت ستكون سيدته عن قريب، كانت تقود النشاطات المدرسية، عشقت حصص التدبير المنزلي، لم تكن يوما تغادر بشاشتها ورقتها وصوتها الخفوت الموسيقا بطبيعته، قالوا عنها وصفا، فعلا هانم تربية القصور والباشوات، حتى زواجها كان فجأة، تعلو شفتيها بسمات مصاحبة ببريق عينيها وتضرج وجنتيها، الأب (منصور الدياسطي) كان محاميا مرموقا، له مكتب أنيق بأشهر شوارع المنصورة، الكل يعترف بنجابته وحصافته، لا يقبل أي قضية الا بعد دراستها جيدا، إن وجد أن من سيدافع صاحب حق يقبل، غير ذلك لا وألف لا، ذاع صيته بكل محاكم مصر، إن كانت القضية خارج نطاق محافظته، ينهض باكرا، يركب سيارته يقودها بهدوء تام وحثيث، حتى أن بعض المقربين منه داعبوه:

*يا أخي يخيل إلينا أنك لو تستطيع أن تحمل السيارة على كتفيك وتسير بها لفعلت، ما هذا الهدوء الذي تسير به؟ مشوار الساعة

يستغرق منك ثلاث ساعات، حتى بالسيارة غير متسرع!!، يعود من كل قضاياه منتفخ الاوداج، بشوشا يحمل كما كبيرا من الحلوى والشيكولاتات بيضاء وحمراء، يعطي نصيبا منها للعاملين بقصر العائلة، القصر الذي يضم كل الأسرة، لكل منهم دور به، على الرغم من أن الريف بهذا الزمن كان دوما تحت سلطات عديدة، سلطة الأب، العمدة، شيخ البلد، شيخ الكتاب، المعلم، شيخ المسجد حتى يخيل إليك أن رداء القرية كله سلطة، الا أن الجد وعائلته خارج مضمار وإطار هذه السيطرة، كان ديموقراطيا فوق أي تصور، منح أولاده كل الحرية ولكنها حرية مقننة تحت البصر، تحت الرقابة وليس سيطرة ، هي تقييم وتزكية، الأخوة الثلاثة الآخرون، كل منهم نال حظه من التعلم إلي نهايته، العم (نشأت) خريج تجارة مع بعض الدراسات العليا، العم (بهيج) خريج الزراعة التي عشقها منذ الصغر، وظل يقرأ بكل كتبها بالعربية وباللغات الآخرى حتى مماته، العم (رؤوف) خريج سياسة واقتصاد متابع جيد لكل عالم السياسة لا يمل أبدا من تحليل كل مشاهدات قراءاته، على الرغم من تعلمهم وتوافر فرص عمل مميزة من علاقات الجد، رفضوا طواعية أن يكونوا أسرى وظائف تجعل منهم يدورون بساقية تدور طوال الزمن على وتيرة واحدة، كلها ملل وروتين وتعسف وإملاء تعلمات وقرارات الكثير منها صاحبه لا يعترف به، ولكنه يمارس سياسته الديكتاتورية دون أي فهم أو وعي، طلبوا أن يهتموا بشيء من أراضيهم، وكان لهم ما أرادوا، جاء الأب يوما قافزا درجات السلم الموصل إلي مدخل القصر، يصفر حينا، يدندن حينا، الأمر الذي أثار دهشة الجميع، هو لا يغادر حلته التي حملها طوال عمره، الوقار والاتزان والحديث الرصين محدد الاتجاهات دون أن يحمل بطياته أي معان أخرى، العم (بهيج) المعروف عنه المشاكسات المصحوبة بالمرح، أسرع إلي أخيه، أمسك بيده، أوقف طريقه، خاطبه.

*ماذا بك، تدندن وتصفر، لم نرك مطلقا كما نراك الآن، هل كسبت قضية شديدة التشابك؟، فعلتها كثيرا ولم نرك على هذه الحال، أبلغنا ماذا بك؟، كانت بعمر السابعة عشرة أو أقل قليلا، تقف ممسكة بسور السلم الصاعد إلي أدوار القصر، تحيطها الأم بيديها، وأيضا على بعض الدرج يقف كل الشباب المتزوجين وغير

المتزوجين، إخوتها وأبناء عمومتها كل يجاور زوجته وأطفاله، بتدرج هرمي، لم يعر أحدا إجابة، رد بمنتهي الهدوء مع إشارة من يده.
*نتناول الطعام ونسترخي قليلا، ثم للحديث معكم، لكل شيء ميقاته.
وأعطاهم ظهره صاعدا إلي الدور المخصص له، جاءo صوت (بهيج).
*أنت دوما هكذا، تترك الأمور معلقة، يا أخي سبحان الله ورثت عن أبينا كل صفاته، وأيضا الكثير من ملامحه، كان نفس الطباع، لا يشفي حال أحد الا عندما يأمره مزاجه، غريب أمرك.
*أخي الحبيب، التشابه موجود على مر الأجيال والعصور، تجد تشابها ليس بالملامح فقط، تجده بالحديث، بحركات الجسد، بطريقة السير، النظرات والايماءات والاشارات، بمخارج الكلام، بالتصرفات والقرارات، بلزمة كلامية معتادة، التشابه متوارث لأنه تاريخ، والتاريخ رفيق دائم للإنسان، ممكن أن نتشابه مع بيوتنا ومع أحيائنا، الآنسان عنوان لمكانه ولزمنه، والأماكن عناوين البشر، لو أمعنا النظر بالوجوه، تدلك على انتماءاتهم وأماكن إقامتهم، وبالمثل إن دققنا النظر بالبيوت والطرق والأماكن، سوف تنبئك عن المعلوم وغير المعلوم عن ساكنيها، إن كانوا وافدين أم من السكان الاصليين، لكل شيء تاريخ نستطيع قراءته وتفسيره لنصل إلي حقائق غفلنا عنها لأنهم شركاء بحياتنا، هذا حديث يطول، نجعله حديثنا وقتا آخر، سامحك الله أضعت لحظات من وقت أنا أحوج إليه، بعد العشاء لنا جلسه مطولة، الأمر يخصكم مثلي، فنحن إخوة والأخوة شركاء بكل شيء، سلام إخوتي الاعزاء.
سارع بالصعود هرولة بأعقابه قبيلته الخاصة كما يحلو له أن يسميها، .طالت غفوته، والجميع يتحرق شوقا لمعرفة ما يحمله من أسباب لهذه الحالة التي لم يعتادوا أن يروه عليها كثيراً، صحا على هزات خفيفة وصوت شديد الخفوت.
* (إصحي) ياحاج طال وقت نومك، لقد قاربنا على العشاء.
نهض من فوره، اغتسل وأخذ طريقة إلي حجرة الطعام بالبهو الكبير بأول أدوار البيت، المائدة الكبيرة متعددة المقاعد، كان الجد طلب تصنيعها خصيصاً لتكفي من يدعوهم من الوجهاء ومن رجالات الدولة ورجال الأحزاب التي تتولي إدارة شؤون الدولة، المائدة يجلس عليها الجميع، هي عادة متوارثة عبر الأجيال، يجلس الاخ الأكبر متوسطا ويحيط به من الجانبين إخوته حسب التسلسل العمري، ثم الزوجات

بنفس الحال، ثم الأبناء، هو يسير على نفس طقوس الأب ومن قبله الجد، جلسوا جميعاً يجمع بينهم ألفضول، ألفضول ساد الكل، حتى الحفدة الصغار الذين لم يبلغوا بعد مبلغ الحلم, انتقلت دهشة الكبار وارتسمت فوق وجوههم، الجميع ينتظر أن يرفع كمية ويمد يده يتناول أول لقيمات الطعام وهو يرفع صوته بالحمد لله حتى يقتدوا به، بدأوا الطعام والكل تتوسل أعينهم إليه أن ينتهي سريعا وأن يمنحهم حق معرفة أسباب ما يرونه من سعادة غامرة، تعمد هو البطء الشديد بتناول الطعام، نفس فعل الجد والأب، كان يتجول بعينيه بهم ويبتسم، لمعرفته ويقينه أنهم أشبه بالجالسين على جمر شديد الاشتعال، هذه عادة أيضا متوارثة أن لا يهدأ لهم بال الا بالوقوف على تفاصيل الأمور، ما إن انتهى واستعد للنهوض حتى كانوا يسبقونه إلي الصالونات، وقفوا بانتظاره وقوفا، لا جلوس الا بعد جلوسه أولا، جلسوا وجاءت الزوجات بألفاكهة والمشروبات، هم يدركون أنه لن يتحدث الا بعد إكمال كامل الطقوس، لأنهم على مدار الزمن يسيرون عليه مبتعدين عن أي خلل به, الخلل بعرفهم هو عصيان للوصايا، الكل يتململ بجلسته ويفرك كفيه، وهو يظهر عدم الاهتمام، بعد وقت رأوه طويلا، تحدث مطلقاً ضحكة قصيرة.

* ماذا بكم؟ كأنكم منتظرين نتيجة امتحان أو لحظة ميلاد، لا تنزعجوا الأمر كله خير، فقط أردت مشاهدة لهفتكم، إهدأوا تماماً، كل ما في الأمر أن جاء إلي مكتبي اليوم الحاج (الحسيني فرحات أبو الحمد)، مؤكد تعرفونه وتعرفون عائلته ومكانته، المهم أنه أتى يطلب يد ابنتنا الجميلة (ناهد هانم الدياسطي) لابنه (رضوان) المحاسب بوزارة الاقتصاد، طبعاً لم أعطيه ردا قاطعا، وأخبرته أن هذا الطلب لابد من عرضه على صاحبة الشأن والأسرة بكاملها، الحاج (الحسيني) بيننا معرفة من سنوات بعيدة، هو أصلا كان عميلا مميزا بمكتب الأستاذ (سليمان محمد) الذي تدربت بمكتبه بالبدايات، وعندما توفي الأستاذ، وقمت بفتح مكتب خاص لي، كان من أول عملائي، رجل يتمتع بالحكمة والرزانة، يتحمل مسؤولياته، هذا باختصار الأمر، ولكم الرأي فنحن أسرة واحدة.

العم (رؤوف) المعروف عنه من بدايات العمر يعشق معرفة تاريخ الأسر والعائلات مبرراً هذا بأن البحث بهذا يتيح لك كيفية التعامل مع الشخوص والمواقف، انبرى للحديث على ألفور.

شيء غريب بالعلاقات الآنسانية، عندما نرى على مدار الزمن، أن التوافق متواجد ومتشابه مع الكثير من أمورنا الحياتية، سبحان من كان له الدوام، تجد المصاهرات كثيرا ما تتم بين أسر وعائلات يجمع بينهما نوع من التشابه، التشابه بالصفات، بطقوسهم وأسلوب تعاملهم مع كل زوايا الحياة، بطريقة التفكير وتحليل المشاهد والمواقف، ولكن لابد أن نعرف أن هناك حالات من التوهم بالتشابه، هذه الحالات لا تكتمل مسيرتها، سرعان ما تظهر الأيام أن هناك فجوات متسعة بين الطرفين فتنفصم عراها سريعا، وللحقيقة إن عائلة (أبو الحمد) أصهارنا القادمين إن أراد الله، عائلة لها تاريخ وبصمات على مدار أكثر من مئة عام، هناك شأن يخصهم حريصين عليه جدا، متوارث عبر الأجيال، أن يتقاربا مع الكل، أن يقرأوا تفكير الكل من خلال التعامل، وعندما تتضح الرؤية ويتبينون أن هذا الشأن يوافقهم فكرا وصفاتا وطباعا، يتقاربون أكثر

ويتفاعلون معه بصدق متناه، الجد حسبما عرفت تقارب مع الأحزاب السياسية بزمنه: الوفد. السعديين، الاحرار الدستوريين وغيرها، تقارب وحضر لقاءات مع كبارهم، ولكنه بالنهاية اختار عضوية الوفد، وجد بهم حماسة وانتماء لقضايا الوطن، لا ننكر أن الكل ينتمي لوطنه ولكن تختلف درجات الآنتماء، انصهر ببوتقتهم، تبرع كثيرا، رافقهم بجولاتهم الدائمة بالمحافظات، أيام الآنتخابات كان مسموع الكلمة، بهذه الأيام كان لكل مكان كبير، يوجه الجموع التابعة لإقامته، نحو مرشحين بأعينهم، عرف سعد، محمد فريد، عبد العزيز فهمى، على شعراوي، أحمد لطفي السيد، مكرم عبيد، فخر الدين المفتش وغيرهم من كبار الرجالات الوفدية، تبادل معهم الزيارات، كان كل فترة يقيم الولائم لهم ويحتفي بهم بشكل كبير، كان يذهب لزيارة(سعد زغلول) كلما عرف بوجوده بقرية(مسجد وصيف) التابعة لمديرية الغربية طلبا لبعض الاسترخاء والتريث لأخذ قرارات مصيرية،

سكت قليلا لتجرع بعض الماء، الجميع بحالة صمت رهيب، العيون مفتوحة على سعتها تشاركها الاذان والمسام، هو صاحب سرد بديع، جعل منهم مشاهدة الحكي كأنه مشاهد تمثيلية، استحثوه بإكمال الحديث، تمنع عليهم بعض الشيء مشاكسة، عاد للإمساك بأطراف الحديث.

-عند نفي (سعد باشا) كان على رأس وفد كبير من أهل(ميت عنتر) يودعونه، وحين العودة من المنفي كان بالمقدمة مع فرق من العازفين، بل إنه أقام احتفالا كبيرا بقريته، من أجل تفانيه بحب الوفد، كان صاحب حظوة كبيرة لدى الجميع، مازال الكثيرون من أهل مديرية الدقهلية، على الرغم من مرور عقود زمنية كثيرة يتذكرون هذا السرادق الضخم الذي أقيم على مساحة ما يقرب من فدان أرض، بعد وفاة زعيم الأمة (سعد), بل لعلها السابقة الأولى الذي سار نعشا خاليا تعلوه صورة الراحل، جنازة مهيبة توشحت بمر البكاء، اعتزل الحياة بعض الوقت حزنا، ولكنه عاود مسيرته، اقترب من عالم الصحافة، كان شغوفا بالمعرفة، وجد بغيته بهذا العالم، عرف (محمد توفيق دياب، على يوسف وآخرين من أساطين الصحافة وقتها، كان يستمد معرفته من هذه العلاقات، يعرف الآنباء قبل وصولها للعامة، وكان ينقل هذه إلي ضيوفه بشيء به نوع من التباهي لأسبقيته بالمعرفة، كان أيضا على حضور الحفلات ألفنية بدار الاوبرا المصرية ، بل صار من المقربين جدا من (سليمان بك نجيب) مدير الدار، سار على هذا الدرب الحياتي إلي أن لقي ربه وهو قد تجاوز التسعين من العمر، علمت من أحد الأصدقاء المنتمين لعائلة (أبو الحمد) أنه قبل وفاته بأيام وهو كان بمرضه الذي طال شهورا تنتابه حالات متتالية من الغياب عن الوعى، وفقدان بعض الذاكرة لدرجة أنه كان يخلط بين أبنائه، ينادي على هذا باسم ذاك، وذاك باسم هذا، كان أيضا ينادي على رفقاء له رحلوا من سنوات، كان أيضا تنتابه نوبات من الضحك والبكاء في آن واحد، الأمر الذي يجعل من يزوره يبكي صمتا، قبل وفاته بحوالي العشرة أيام استدعى (الحسيني) ابنه الأكبر، طلب من الجميع تركهم وحدهم، أمسك بساعد الأبن بشدة، حتى أنه اعتصره تماما، خاطبه بصوت به بعض القوة.

*اسمع ما أقوله جيدا، ولا تحييد عنه مطلقا، وورثه لأولادك ولأحفادك، هناك قبل أي شيء جملة ضعها أمامك دوما، لا تتركها تغادرك ما حييت، لتكن منهجك الحياتي، اجعل إنسانيتك دوما الكفة الاعلى والارجح في تعاملاتك وفي علاقاتك وفي كل شيء، لا تكن مع الظالم على المظلوم, ولا تبخس حق المظلوم، لا تقل رأيا دون أن تتلقى من عقلك وقلبك ما يشعرك بأنه

صائب وبمحله، كن أبا لإخوتك، لا تسمح لأي أن يحاول شق صفوفكم، وتفتيت توحدكم، عيشوا صحبة ، بناء واحدا، لا تقبلوا العيش بجزر منعزلة، كل لحاله، لا تنس ميراث عائلتنا، بعدها ضغط بعنف على كف ابنه، هنيهة تراخت اليد، وسقط الرأس وذهب بغيبوبة تامة، هزات متتالية غير مصدق منه، ولكن بعد أيام كان نداء الله تم، واستجاب هو للنداء، انتظر أبناؤه أياما حتى يأتي رجال العائلة من مسقط الرأس الحقيقي للعائلة ببني مزار إحدى بلدان الصعيد المصري لحضور مراسم تشييع الجثمان، يوم تشييع الجثمان خرجت البلدة عن بكرة أبيها تودعه، اتشح الكل باللون الاسود، النساء وقفن لصق جدران الطريق المؤدي للمقابر، يشرن إلي التأبوت يقلن بصوت واحد مصحوب بصراخ وعويل، يشلشلن بطرحهن السوداء.

*مع السلامة يا حاج، يا كبيرنا، بعدك صرنا يتأمي، ربنا يرحمك ويسكنك جناته.

الحشد كبير جدا، كل أهل البلدة والبلدان المجاورة ومعارفه من عديد المدن والقرى بعيدة أو قريبة، كانوا بوداعه، الكل بكاه بحرقه وبصدق، السرادق ظل قائما لأيام ثلاثة، لم يفرغ مطلقا، ممتلئا عن آخره، الحداد بالقرية استمر لأكثر من أربعين يوما، القرآن الكريم يتصاعد من كل بيت، أرجأت كل الاعراس حزنا عليه, الكل ظل يلهج بسيرته أعواما طويلة، ومازال الحكي عنه مستمرا، هذه هي عائلة (الحسيني فرحات) التي أرى أنها تتشابه معنا بالكثير، وأرى أن مصاهرتهم تضيف إلينا مثلما نضيف إليهم، ولكن كما تعودنا بكل أمورنا القرار للجميع.

أمن الجميع على رأيه، ولكن الأب رفع يده طالبا الحديث.

* كل هذا أعرفه وتعرفونه ولكن لسنا من الأسر التي لا تترك لبناتهن الرأي، ومن هنا أوجه كلامي إلي صاحبة الشأن، والتفت إلي ابنته سائلا لها:

* ما رأيك؟ لست متعجلا بردك، خذي وقتك حتى يكون قرارك عن قناعة ورضى تامين.

طلبت الكلام بصوت شديد الخفوت، بل إنه يكاد لا يسمع.

* أبي بل آبائي، أنتم أدرى بمصلحتي أكثر مني، ومؤكد أن لا ترتضون الا سعادتي، والقرار قراركم.

ضمها الأب إلي صدره، قبل جبينها، ربت عليها كثيراً.

* إذاً على بركة الله، نرسل لهم نرحب بزيارتهم.

ارتأى إخوته أن يتريث يومين ويرسل بموافقتهم، وافقهم الرأي، وبالموعد الذي أعلن جاء الحاج (الحسيني) رفقة زوجته وإخوته وبعض من أولاده، وبأعقابهم سيارة محملة بخيرات الله من محاصيل وحظائر، جلسوا للحوار وقتا طويلا حول مجريات أحداث بالمنطقة وشؤون الزراعة والتجارة، وبعد ألفنجان الثالث من القهوة، تحدث الحاج (الحسيني).

* مؤكد أنت أو أنتم تعلمون جيداً متانة العلاقة التي تجمع بيننا من سنوات، والتي ستسمر على مدار الزمن، ومن هنا جئنا اليوم نطلب مصاهرتكم بطلب يد ابنتكم وابنتنا (ناهد)، لابننا وابنكم (رضوان) لنزداد شرفا بكم.

* يا حاج (حسيني) أنت نفسك قلت: إننا نعرف بعضنا منذ سنوات وتجمعنا علاقات أساسها احترام متبادل وود، وهي ابنتكم وهو ابننا، وشرف لنا مصاهرتكم، على بركة الله.

* إذا لنقرأ ألفاتحة.

رفعت الأيدي وارتفعت الاصوات بقراءة ألفاتحة، بعدها تبادل الرجال العناق والقبلات، وعلت زغاريد النساء بشكل متتابع، نهضت زوجة الحاج (الحسيني) تحمل بيدها علبة قطيفة باللون الروز، قدمتها إلي العروس قائلة:

* هذه هديتي لك ولا علاقة لها بشبكتك.

عانقتها العروس وجلست وكل الاعين مصوبة إليها تنتظر معرفة ما تحتويه العلبة، فتحتها العروس، شهقت بلا إرادة، ذهلت وذهل الجميع، عقد ثمين من الألماس بديع الصنع، ومجموعة من الاساور تناسبه وخاتم بذات التصميم، نهضت العروس وارتمت بأحضانها تقبلها بحرارة وبود متناه, الجميع أثنى على الهدية، اتفقوا على أن يتم كل شيء خلال أشهر لا تتجاوز الستة، بخلال زياراته المعدودة أيقنت أنه اختيار صائب، فهو هادئ، رزين، مرتب الذهن، وبخلال شهور كانت زوجة له بليلة شهد لها القاصي والداني، عاشت معه قرابة العشرة أيام الأولى بالقرية ومن بعدها إلي سكنها الحالي، طوال سنوات الزواج لم يبدر عنه لفظ أو فعل يغاير صورته، كان أبا حنونا يعطي مساحات كبيرة لأولاده، يحكى لهم قصص الآنبياء والصحابة، يحكي لهم عن أسرته، علمهم القران الكريم والصلاة، وفن التعامل مع الآخرين، فكأنا كما تمنوا، أخلاق وعام وتفوق، (إسلام وطارق) كانا ومازالا قرة عيونهم، الاول مهندس معماري مرموق، والثاني اختار اتجاه الطب ووصل إلي درجة كبيرة من التميز، ولكنهما أيضاً أخذا اتجاه الغربة مند أن التحقا بالجامعة، تعلما بالجامعات الأمريكية، تمتمت فليحرسهم رب العالمين، طال شرودها، أفاقت على يده تربت عليها سائلا.

* ما بك، بأي شيء كان شرودك؟

* أبدآ راودتني ذكريات أيام ماضية، تعرف أن علينا أن نعود إلي هذه الأيام إحياء لخلايانا.

* لك حق، أنا خارج، جاء إلي اتصال (حسين) ينتظرني بالقرب من سيدنا الحسين، نصلي واسمع له، ونعود، جهزي الغذاء، ربنا ما يحرمنا منك.

* مع السلامة.

..ما إن جلسوا إلي إحدى الموائد القصية إلي حد ما، البعيدة عن الضوضاء والجلبة التي هي عنوان مميز للمكان، سأل ابن العم عن مشروبه، طلب القهوة التركي المحوّجة، هو طلب كوبا من الشاي الاخضر بالنعناع، لاحظ ارتعاشات يد ابن العم وهو يرفع فنجان القهوة ليرتشفه، ارتعاشات كاد جسده يشاركها، لاحظ أيضا أن بسماته الباهتة التي يظهرها لإخفاء ألم كبير، لم يشأ أن ينكأ ألمه، اكتفى بكلمات اعتيادية معتادة بلقاءات تأتي بعد غياب، بعينيه بريق دموع متجمدة ومحاولة لقمعها لابد أن الأمر ذو جلل، لن يجرؤ على البدء بالحديث، هناك أوقات لا يمكن للإنسان أن يكون هو البادئ بالقول، يرتشف قهوته بصوت يكاد يكون صراخا، ينقر بأصابعه على المائدة نقرات متوترة متتالية، يفتح فمه لإطلاق عقال الكلام، ولكن سرعان ما يعود بالكلمات إلي حلقومه، انتهى من قهوته، وضع ألفنجان ألفارغ بشيء من الحدة، كاد أن ينكسر، أنكفأ ألفنجان، أفرغ بقاياه على المائدة، انتبه أحد العاملين للصوت، وشاهد ما حدث، أسرع بإحضار منشفة مبتلة، أخذ ينظف المائدة مهمسا، الأمر بسيط، حدث خير، شكروا الرجل، طال الصمت وتصاعدت موجات الارتعاشات، بعد وقت ليس بالقصير وجده يمد كفه اليمني ممسكا بساعده بعنف زائد، غارت عيناه، تخضبت وجنتاه ببعض دمعات تساقطت، خرج صوته مخنوقا متحشرجا مشروخا.

*اعذرني ابن العم، جئتك محملا بهم، لم أجد أمام أحد الا أنت، أنت دوما الاقرب لي، على الرغم من الاوقات البعيدة التي صارت تفصل بيننا، جئت ألتمس حلا منك، لن أطيل حتى لا أضيع وقتك، أنا لدي ثلاث بنات وابن وحيد، كلهم تزوجوا الحمد لله، المشكلة تتلخص في الابنة الصغيرة (ثريا), حاصلة على ليسانس تربية بتفوق وكانت قبل زواجها شرعت بإعداد رسالة الماجستير، مشهود لها بالجمال والاخلاق والعلم، وهي صفات لا تجتمع الا بالقليل، نحمد الله على هذا، منذ أن حصلت شهادة الثانوية العامة والعرسان يطرقون الأبواب، كنت دوما بحالة رفض بداعي الآنتهاء من التعلم، تعرف أني أعمل مهندساً بهيئة الطرق والكباري، علاقتي بالجميع مميزة، لا أتوأني على الوجود بكل مناسبات وملمات أي من الزملاء والزميلات، كان الاقرب لي زميلان من المهندسين، تقارب إلي حد التزاوج بين الأسر، أصبح ثلاثتنا كأننا واحد، عرفت كُلا منهما عن قرب، من كل جوانبهم، حتى جاء يوم وطلب مني صديقي (نعمان البرلسي) وهو من قرية مجاورة لنا، طلب مني الجلوس منفردين لبعض الوقت، ظننت أنه بحاجة لشيء يخجل أن يبوح به أمام أحد، جلسنا بعد العمل بأحد المقاهي، لم ينتظر لحظة بادرني بالحديث.

*أكيد أنت تعلم كم المحبة التي أكنها لكم، رب أخ لم تلده أمي، وأنت بصدق هذا الاخ، لذا يراودني من زمن بعيد، ربما وأطفالنا صغار، أن من الضروري أن نتصاهر، وقبل كل شيء أقول لك: إن اتفقنا أو اختلفنا لن يتغير من أمرنا شيء، نحن عشرة، عمر، لن أطيل عليك، أنت تعرف (فؤاد) ابني جيدا حاصل على ماجستير في القانون، ويعد للدكتوراه، ويعمل بمكتب محامٍ شهير بالقاهرة، وصاحب المكتب دائم الاشادة به، لذا أعرض عليك طلب يد ابنتك(ثريا) له، اعرض الموضوع على الأسرة، وأنتظر ردكم، وفي كلا الأمرين نحن إخوة.

بالحقيقة بالبداية وقع هذا كان شديد الدهشة، لأنني لم ألحظ أيا من علامات الاهتمام بهذا من خلال ابنه أو من أسرته كلها، كثيراً ما جلس الاثنان معا هنا أو هناك، لم ألمح مرة نظرة تعبر عن إعجاب متبادل بينهما، الأبن متقارب مع ابني الذي يماثله عمرا (كريم), وكثيرا ما كان يأتي ويتسامران معا، ويخرجان سويا لقضاء بعض الوقت مع زملاء لهم، المهم لم يكن أمامي الا طلب مهله لأخذ رأي باقي الأسرة، وهو ما تمت الموافقة عليه، جلست ليلتها مع كامل الأسرة، حتى الأبناء المتزوجين طلبت منهم الحضور، كنت قد شرحت لزوجتي (نجوى) كل ما دار بيني وبين صديقي، هي نفسها كانت بنفس حال دهشتي، جلست بين الجميع، حكيت تفصيليا الحديث الذي دار بيننا، فوجئت بترحيب الكل، بداعي أننا نعرفهم من سنوات، ولم نرَ أو نسمع عنهم ما يسيئهم، سألت (ثريا) عن رأيها، الاجابة المعتادة من الأبناء، رمت الكرة بملعبي، أنت أدرى بمصلحتي، وافقتهم بشرط أن تتعرف عليه جيدا من خلال جلسات خاصة بهم، تعرف طريقة تفكيره، أحلامه وطموحاته، وهذا ما يشير إلى مدى التوافق بينهما، تمت قراءة ألفاتحة وهذا ما اتفقنا عليه، دون أية خطوات قادمة الا عندما تقول لنا رأيها صراحة، زيارة وأخرى، لحظت ترحيبا منها دون أن تتفوه بهذا، كانت تستقبله بلهفة، ملامحها تقول سعادتها، بعد أقل من شهر، أعلنت موافقتها، سارت الأمور سلسلة لا تعقيدات بها ومن أي طرف، لم نُغالِ بمتطلباتنا؛ لأن الاهم أن تكون ابنتنا بحال ميسرة وسعيدة، كل الخطوات سارت بيسر، بعد ما يقرب من ستة أشهر كانت تزف إليه، كنت سعيداً لأني أتممت رسالتي نحو أولادي، ودعوت لهم بأن يكونوا سعداء، من زياراتنا لها، شعرنا أنها تخفي شيئا، دوماً شاردة، ليست معنا، ولكن كلما سألناها لا تتفوه سوى ، الحمد لله الحمد لله، خلال الجلسة أجدها دائمة الالتصاق بأمها تكاد تدخل داخل ثيابها، على الرغم من انزعاجنا قلنا ربما لم تعتد أن تبعد عنا، كنا نوهم أنفاسنا بهذا التبرير، نعود أنا وأمها الألم يعتصرنا، مر على هذا الحال ما يقرب من خمسة أشهر أو يزيد، بإحدى زيارات أمها، ضغطت عليها جدا لما رأته من الشحوب ونحول الجسد، بعد إلحاح من الأم، ارتمت بأحضانها وأخذت بالبكاء العارم، الأم تسمرت بجلستها، تلجم لسانها، تخشبت تماما، لم تستطع الحراك، أخذتها بحضنها مشاركة لها بالبكاء، شعرت بقبضة صدر هائلة وكاد قلبها أن يتوقف، تربت عليها وهي بحاجة لمن يهدأ من روعها ويربت عليها، بعد وقت طويل ونظرات متسائلة، خرجت الكلمات التي ما إن سمعتها من أمها الا وشعرت أنها ليست كلمات، لا طعنات نافذة وحادة بالقلوب، خرجت كلماتها مشروخة ومتقاطعة قالت:

*إن زوجها، (راجلها) على مدار الشهور الماضية لم يقربها مطلقا.

هي رفضت البوح لنا حرصا علينا، وقالت: أصبر ربما رهبة الزواج، ولكن كل هذا على أعصابها، حفظت سره ولم تتفوه لأحد، كانت تتصنع أنها سعيدة أمام أهله، ولما وجدت الأمر يزداد سوءا، فاض بها الكيل، الأم لطمت وصرخت ودقت على صدرها، ما كان منها إلا أن طلبت منها أن تسرع بإعداد حقيبة ملابسها والذهاب معها، وهو ما كان، سارا وسط ظلام الطريق، كادتا تتكفئان كثيراً، كانتا تكتمان بكاءهن حتى لا يثيرا تطفل الناس، فوجئت بدخولهم على هذه الحالة، انتفضت أخذت ابنتي بصدري، تصاعد صوت بكائها، سألت زوجتي ملتاعا.

*ماذا هناك؟ ما سبب هذا؟ انطلقي.

لم ترد على إلا باللطم والصراخ، أجلستها بجواري، احتويتهما بذارعي، طال صمتهما وطال نشيجهما البكائي، وأنا أزداد قلقا، أخذت أهدئ منهما، بعد وقت تم الهدوء، تكلمت زوجتي حكت ما قالته (ثريا)، للحقيقة أحسست كأني أصبت بالشلل، تصلبت أوصالي، العرق البارد يتصبب من كامل جسدي، تاهت معالم الأشياء من حولي، جلست محتويا رأسي بين يدي، وجدت نفسي أبكي مثلهن، لم أدرِ بشيء إلا وصوت ارتطام شيء بعنف على الأرض، أفقت على صراخ زوجتي، جالسة على الأرض واضعة رأس ابنتنا على ساقها، تضرب وجنتيها بهدوء، تنادي عليها، الوجه شديد الشحوب، لا شيء يشير للحياة، صرخت بي طالبة الأسراع باستدعاء دكتور أو إسعاف، خرجت لا أرى ما أمامي، هناك بالشارع أحد الأطباء، جريت أتخبط، أخذت أطرق بابه بعنف، فتح الباب، لم أعطه فرصة للسؤال، صرخت به أن يأتي معي على ألفور، الرجل فهم أن الأمر خطير، تناول حقيبته، وألقى على بيجامات عباءة على وجه السرعة، هرول معي، جلس على الأرض بجوارها، تحسس النبض، قام بقياس الضغط، أجرى بعض محاولات إفاقتها، وضع نشادر بالقرب من أنفها، أخذ وقتا طويلا، حتى فتحت عيونها إلي حد ما، تنهد وأخذ يدلك وجهها، أنهضها، طلب كوبا من العصير، أخذ يشربها، اطمئن ، خاطبنا.

*واضح أنها تعرضت لحالة هبوط حاد، ربما يكون من تأثير أنيميا حادة، يجب تغذيتها جيدا، والبعد عن أي مؤثرات نفسية سلبية، جو هادئ،

كتب صنفان من الدواء قال: إنهما فيتامينات، تركنا ونحن بحالة توهان، الأم أسرعت لإعداد طعام سريع لها، وأنا حائر ماذا أفعل؟ وماذا يقول الناس عن عودتها إلينا بعد شهور قليلة؟ وأنت تعرف الأرياف ليس لهم إلا الحكي، وتحويل الحبة إلي قبة، همست لنفسي، فوضتك بأمري يا رب، فجأة رن الهاتف، نظرت لأرى من الطالب، وجدت أنه (نعمان البرلسي)، أجبته كان سؤاله عن (ثريا) هل هي عندنا ؟، عاد (فؤاد) زوجها من عمله ولم يجدها، طمأنته وأضافت أن يأتيني هو وابنه على ألفور دون انتظار حتى الصباح، حاول أن يعرف السبب، وجدتني أصرخ به، نفذ ما أطلبه منك، لم تمر أقل من ساعة وجاء هو وابنه كل منهما ترتسم على وجهه كل ألوان الطيف، لم أعط لهم فرصة لالتقاط الآنفاس، وجهت حديثي مباشرة للابن.

*تتكلم أنت أم أتكلم أنا؟.

لهجتي بالحديث جعلت (نعمان) ينتفض واقفاً رافعاً صوته لحد ما.

*ماذا هناك؟ جئت بنا بهذا الوقت دون أن نعرف السبب، لم ترحب بنا كما يجب، حتى أننا ما كدنا نجلس، حتى وجهت كلامك لابني بلهجة أقرب للاتهام، تكلم ووضح لي الأمر.

..تفرست بوجهه، أمسكت بساعده بعنف، أجلسته صارخاً به.

* ما بيننا من عشرة وعيش وملح كان يفرض عليك أن تصارحني بعلة ابنك، كنت أنا أول من يعاونك بالبحث عن علاج وعن حل، ولكن أن تختار ابنتي أنا التي هي مثل ابنتك، لتضعها بهذه النار، لماذا؟ لماذا؟ قبل أن تنفعل وتحتد سل ابنك يجبك، ولماذا ؟ أنت مؤكد تعلم علته، فلماذا خدعتني واخترتني أنا دون كل الناس؟، لتبتليني بهذه المصيبة، فهمني لماذا أنا ؟

استدار إليّ ولده مصوبا عينيه نحوه بحدة.

* انطلق، رد على كلام عمك، وضح لي، أخبرني عن الأمر الذي لا أفهمه للآن، أنا تائه لا أستوعب أي شيء، عمك يقول كلام يحتاج تفسيرا، تكلم.

وضع الأبن رأسه إلى الأرض، وضع رأسه بين كفيه، وأخذ بالبكاء العالي، مطاطئ الرأس حتى كادت تكون بين قدميه، أمسك الأب بكتفه وأخذ يهزه هزات عنيفة، طالبا منه الحديث، ولما لم يجد منه ردا، استدار إليّ طالبا مني أن أشرح له ماهية الأمر، اضطررت للقول، حكيت له ما كان، الرجل تصبب عرقا، أظنه باردا حتى أنه بلل قميصه بأكمله وكأن أحدا قذفه بشلال مياه، ما إن سمع حتى تهاوى أرضاً، أصبح هو ومكان جلوسه قطعة واحدة، فجأة نهض منتفضا، أمسك بكتفيه أخذ يهزهما يمينا ويساراً، صارخاً به.

* لماذا لم تخبرنا بعلتك؟، كنا حاولنا علاجها، لماذا وضعتنا بهذا الموقف السيئ مع رفيق العمر؟ ربنا يسامحك ويسامحنا، وضعتنا في مأزق حاد، وجه نظره إليّ مخاطبا.

* هل تسمح أن تمنحنا فرصة للعلاج، هو ولدك أيضا، أعطنا فرصة، نحاول الإصلاح، أرجوك يا حاج.

ما إن انتهى من حديثه, حتى رددت عليه بحده لم أعهدها بي على الإطلاق.

* أي فرصة، خرج الأمر من يدينا، ما حدث يندرج تحت بند الخداع، سواء كنت تعرف أو لا تعرف، أرجوك مثلما دخلنا إخوة بالود، نخرج كما دخلنا، بلا أي داعٍ للمشاكل، (خلينا) لا نخسر الكثير مما كان بيننا أعواما طويلة، يكفي ما كان، ربنا يستر على البنت، الموضوع ليس سهلا، لتقول لي: فرصة، انتهى تماما، غدا تأتي بالمأذون وننهي الأمر برمته، أظن كلامي واضحا.

ما كان عليه هو وولده إلا تنكيس الرؤوس، والسير بأقدام متثاقلة كأنها محملة بأطنان من الرمال، ظل يرن على عشرات المرات ولا أجيب، القرار لديّ لا رجعة فيه، الذي كُسر لا يعود كما كان، خاصة بأمر مثل هذا، في عصر اليوم التالي هاتفته، طلبت منه الحضور هو وابنه وبصحبتهم مأذون من قريتهم، بهدف عدم وصول هذا إلى أهل قريتنا، أنت تعرف أن الريف يجيد الحكايا وإضافات كثيرة لها، الكثير منها غير واقعي، ولكنه يقال من زاوية التشويق، ولفت الآنتباه، جاء بعد العشاء، حاول الشيخ المصاحب له الحديث للإصلاح، لم أستجب، حدث خلاف حاد بيننا، أنا كنت أصر على النص بمستند الطلاق على أن من كان زوجا لها لم يستطع الدخول بها، رفض وخرّ راكعا يقبل يديّ وكاد يقبل قدميّ وهو شديد البكاء، تشبثت جدا جدا، ولما طال الجدال، وافقت على مطلبه وبداخلي يقين أن هناك ما يفيد عذريتها، حتى لا تلوك الألسنة سيرة ابنتي بغير الحقيقة، انتهى الأمر، وباليوم التالي أتيت بسيارات من أجل أثاثها وحاجياتها، لم آت بها إلى منزلي، لي شقة بالمنصورة كنت أقيم بها من سنوات حين يحتم على العمل أن أظل أوقات متأخرة، وكنا أحيانا نقضي بها أياما أنا والأسرة من باب تغيير الأجواء، هذا منذ قرابة الشهرين، انشغلنا بتعب (ثريا) وحالتها النفسية المتردية، أصبحت تأبي الأكل والشرب، تغلق باب الحجرة عليها، لا تخرج إلا للضرورة، أسلمت نفسها للكآبة، كل هذا وأنا أفكر بحل لإثبات عدم الدخول بها، الكلام كان بدأ يثار، عن سبب وجودها عندنا، قلنا: إنها مريضة, جاء السؤال لماذا لا نرى أحداً من أهل زوجها، هنا كان لابد من سرعة البحث عن حل، لم يخطر ببالي إلا أنت، كل شيء تغير من حولنا، لم تعد قريتنا وأجزم أن كل القرى تتشابه في هذا، لم يعد هناك

من أزمان الأجداد والآباء إلا النذر اليسير، كنا دوما أسرة واحدة، الألم والوجع يجمعنا مثلما يجمعنا ألفرح، كنا جميعا سياجات تصد أي محاولات للتعدي على خصوصيات أي منا، كنا نتسابق لنستر عيوبا، كانت هناك شراكة دائمة تجمع الكل، دون توجيه وكأننا نولد ونحمل هذه الجينات، اليوم مع الأسف تغيرت الأمور بزوايا منفرجة بأقصى أنواع ما يسمى بالزوايا المنفرجة، كل يفعل ما يشاء، لا مبالاة بمن يعيشون حوله ومعه، مع الأسف أصبح الهرم الاجتماعي مقلوبا بل ومهترئا لحد كبير من جراء رياح الغرب المسمومة التي أبهرت أبصارنا وحركت غرائزنا، وعليه قد انزلقنا إلى هوة التقليد الأعمي بلا وعي متناسين كل موروثنا من تاريخ وقيم ومبادي، فتهنا عن جادة الطريق، بل قل لم نعد نبصر الطريق ولا نعرف أين نضع خطواتنا، على الرغم من كل هذا لا ننكر أن هناك أسرا مازالت متماسكة بما تربّت عليه وعاشت به، وهو ما يجعل لنا أملا في أن نعود لسابق أزماننا، آسف صدعتك، لم يكن أمامي إلا أنت ابن عم شقيق ولسابق زمالتنا التي جمعتنا سنوات طويلة، الحياة أخذت كلا منا باتجاه، ولكن يظل ما يربطنا الكثير والكثير.

* حقا ما قلت، مزروع داخلنا أو قل الجيل الذي نحن منه، الكثير من القيم والتقاليد وثوابت الأمور التي توارثناها من الأجداد، أما عن موضوع ابنتنا لا تقلق، مؤكد هناك حل، لحظة سأتصل بصديق محام كبير، أحمل له ثقة كبيرة.

أخرج هاتفه وداعب أزراره، الرنين مسموع، جاءه الصوت مرحبا.

* أهلا أستاذ (رضوان) لنا مدة لم نسمع صوتك، لعل غيابك للخير، تحت أمرك.

شرح له كل شيء، طمأنه قائلا:-

* الأمر بسيط لا داعي للقلق، نلتقي غدا، نحرر توكيلا ونتقدم للطب الشرعي بطلب لمناظرة البنت لإثبات عذريتها، عندها يصدر تقرير من الطب الشرعي بهذا، وبهذا يقطع أي كلام يقال بشأن سبب انفصالها.

شكره واتفقا على اللقاء صباح الغد أمام أحد مكاتب الشهر العقاري.

طمأن ابن عمه، بأن الأستاذ (فكري الخياط) من أكبر محامي مصر أخبره أن كل شيء ميسر بأمر الله ولا داعى للقلق، أتاه تليفون من الزوجة يخبره أن الغداء ينتظرهم، حاول ابن العم الاعتذار ولكنه رفض هذا بكل إصرار، بل أخبره بضرورة مبيته للذهاب للشهر العقاري لعمل التوكيل، جعله يتصل بأسرته لإخبارهم بهذا، أخذا طريقهما إلي المنزل، رحبت به (ناهد) كل الترحيب، تناولا طعام الغداء مع حكايات ذات أحداث مضحكة محاولة لنفض الألم والوجع المسيطرين على كأهله، بعدها أدخله لحجرة الضيوف وجاء له بعباءة منزلية، داعيا له ضاحكا.

* حتى تعرف أنني لم أنس ريفتي ، وما زلت أعيش بكل جلالبيب الأجداد الأقدمين، أتركك للنوم قليلا, ولنا أحاديث تروي عطش العمر للذكريات.

أخذهم النوم إلي ما بعد المغرب، نهض (حسين) أولا، طرق باب الحجرة من الداخل للتنبيه على يقظته، جاءه الرد.

* تفضل

خرج ملقيا التحية، سأل عن الحمام، أشار إلي مكانه، اغتسل وخرج، طالبا أن يصلي، طلب منه الانتظار ليصليا سويا، انتهيا من الصلاة، تناول يده وسار به إلى الشرفة، أتت إليهم بألفاكهة متعددة الأصناف، وبعض من المشروبات، جلسا يتبادلان الحديث، لم يقترب مطلقا من الحديث حول موضع الابنة حتى لا يثير مزيدا من الأحزان الساكنة داخله والبادية على قسماته، على الرغم من محاولات (حسين) أنه غير منشغل بهذا حتى لو بعض الوقت، جلست الزوجة معهم، تكرر الترحاب، قالت:

* لم أرك من أيام زواجي الأولى، ربما من لحظة أن جئت للتهنئة، عرفنا بعدها بسفرك للسعودية بإحدى الشركات الكبرى، وعرفنا أنك تزوجت وأن العروس ذهبت إليك حيث عملك، بعدها انقطعت أخبارك لحد كبير، بعض الأخبار كانت تأتينا من خلال زياراتنا المتباعدة للقرية، على الرغم من علمي أنكما أنت و (رضوان) كنتما ملتصقين ببعض، على الرغم من فارق السن بينكما، فهو يكبرك بثلاث سنوات على ما أتذكر.

رفع كفه طالبا الكلام.

* بداية أنا و (رضوان) مخطئان، لتباعدنا مهما كانت الظروف والمبررات، صحيح الدنيا أخذتنا رياحها شرقا وغربا وكل الاتجاهات، ولكن مؤكد أنا وهو وكل أبناء العائلة لا يمكن لنا أن ننسى أو نتناسى أنفسنا، كل منا هو الآخر، أنا أيضا كنت متابعا لكل أموركم، مراحل حياتكم، علمت بمولد الأبناء على ما أتذكر (إسلام، طارق)، وتابعت مراحل عمرهم وتعلمهم من خلال أبناء العم العديدين، علمت مؤخرا أنهما يعيشان بفرنسا على ما أظن، أحدهما مهندس، والآخر طبيب، وكلاهما ناجح نجاحا مبهرا، تفتخر به العائلة، أما أنا فتزوجت من قرية تبعد عنا أكثر من مئة كيلو، اسمها (أورين) تابعة لمركز (شبراخيت بالبحيرة), ولكنه النصيب، يأتي بغتة كما يقولون، كنت مكلفا بمرافقة وفد من الوزارة وبعض خبراء أجانب, ولم أعرف إلى الآن لمَ اختاروني، ولكنه القدر، انتهت مهمتنا أصر أحد كبراء القرية على دعوتنا للمبيت؛ لأن الوقت تأخر وأقسم بالله ألا نغادر ليلا، أكرم ضيافتنا بشكل غير متصور، أثار فينا جميعا الدهشة وألفضول والتساؤل، ولكن أنا كنت غير داهش بنفس أحوال مرافقي، لأنني تربيت بالريف وأعرف عنهم هذه الطبيعة الحاتمية، فالقرويون يرون أن الثراء الحقيقي هو الناس، معرفة الناس كنوز، أثناء تبادلنا الحديث، أشار إلى الحاج (مخلص الأمام), وهو اسم والد زوجتي، بالجلوس بالقرب منه، أخذ بالحديث معي منفردا, سألني عن من أنا؟ ما كدت أتفوّه بأنني من (ميت عنتر) ومن عائلة (أبو الحمد) واسمي (حسين أبو الوفا أبو الحمد) إلا وجدته ينهض قافزا قفزة شاب بالعشرين, أخذني بصدره يقبلني مرات عديدة، عاودنا الجلوس، أمسك بيدي ضاغطا عليها، سألني.

* هل تعرف الحاج (الحسيني فرحات أبو الحمد).

أجبته بأنه عمي، صاح.

* سبحان الله العظيم، الدنيا صغيرة، كان عمك رفيقنا هو والحاجة زوجته برحلة الحج، أجمل أيام أمضيناها بالأراضي المقدسة، طمئني عليه، وأخذ يحكي ويسترسل حوله بحكايات متعددة، فأجاني حين قال.

* منذ رأيتك وأنا أسأل نفسي، أين رأيت هذه الملامح؟ والحمد لله أني عثرت على رائحة أحبها.

نهض فجأة وأنهضني معه، استأذن من الحضور، خرج بي، إلى حيث يوجد بهو كبير معد للجلسات بشكل به ذوق عال، جلسنا، طلب مني أن أحكي عني كل شيء، حكيت له عني وعن العائلة، لم نشعر إلا بزقزقات العصافير تبشر بيوم جديد، نسينا من معنا، فاجأني بأمر لم أتوقعه، قال: إنه سيذهب معي إلى قريتي ليلتقي بعمي والأسرة، بالطبع لم يكن أمامي إلا الترحيب، ذهبت للنوم، لم أصحُ إلا قبيل الظهيرة، أخذنا الإذن بالمغادرة بعد تناول الإفطار، كان هو مستعدا لمصاحبتنا، الدهشة للحقيقة أكلت دواخلي، ولكن للحقيقة كان بي ارتياح شديد له، فقط كان إشفاقي عليه من السفر الطويل، طوال الطريق نتبادل الحديث الطويل، حكى لي عنه، أنه يمتلك زراعات شاسعة يتكسب من ورائها الكثير، حتى إنه كل عام يضيف بعض الأراضي إلى أراضيه، وأنه أنجب ولدانا، علمهم أفضل تعلم، أحدهم طبيب للجهاز الهضمي، له عيادة بدمنهور، وبالقرية حسب رغبة الأب، يخصص أيامها لأهل القرية ومحيطها من قرى بالمجان، بل يتكفل ببعض الأدوية لغير القادرين على نفقته أو نفقة الحاج (مخلص), والابن الثاني ضابط بالجيش إسوة بمنهج العائلة بضرورة الآنخراط بسلك الجيش والشرطة، وله أيضاً ثلاث بنات، ثنتان تزوجتا، وسكنتا المدينة، وبقيت ابنة نالت شهادة ليسانس الآداب، لغة إنجليزية، العام الماضي، أحسست خلال ساعات السفر أن الرجل قريب من روحي، وكأنني أعرفه سابقا، وصلنا بعد سفر طويل شاق تخلله وقفات للتحرر من جلسة على حال واحدة، وتناول بعض الأطعمة والمشروبات، عند وصولنا توقفنا أمام عتبات منزل عمي، طرقت الباب، فتح أحد إخوتك لا أتذكر من كان، لم يعطني الرجل فرصة، بادر أخوك.

* أخبر الوالد أن الحاج (مخلص الإمام), يقف بالباب.

ما كاد ينتهي من نطق اسمه، حتى شاهدت عمي يأتي حافي القدمين مهرولا منحّيا أخاك عن طريقه بشكل أقرب للعنف، فاتحا ذراعيه على سعتهما مهللا بصوت جهوري لم أعهده به على الإطلاق.

* أهلا أهلا، والله والله لا أصدق عينيّ وأذنيّ، أجمل لحظة أن أجدك هنا، ولكن

قبل أن يكمل لمحني فلم يزد، فقد فهم كيف وصل (الحاج مخلص) إليه، وضع اليد باليد، أدخله البيت مرحبا بكل ألوان الترحيب، أشعرني هذا اللقاء والترحاب كأنهما عاشا معا سنوات طويلة، التفت إلى العم قائلا قبل أن يدخل.

* ولد يا (حسين) هو كان معتادا على نداء كل أبنائه وأبناء إخوته هكذا ، لك عندي مكافأة كبيرة، فأنت أتيت لي بروائح ذكية عشناها أياماً لا تنسى بالأراضي المقدسة.

على مدار ثلاثة أيام قضاها بالقرية، لم يفارقه لحظاتها عمي، طاف به على كل العائلة، وكل وجهاء القرية، أقيمت الموائد ونحرت الذبائح، وفي اليوم الثالث طلبني العم، أجلسني بينه وبين

(الحاج مخلص الإمام)، وأبي يجلس قريباً منهم بعيونه فرحة لا أعرف لها سبباً ،أخذوا يتبادلون النظرات بعض الوقت، ثم وجدت العم يمسك يدي، وبين الحين والآخر يربت على ساقي، مما زاد من دهشتي وتساؤلي الداخلي، ماذا هناك؟ أخيراً انسابت الكلمات من بين شفتيه.

* اسمع يا (حسين) يا ابني، أنت تعرف أن كل شباب العائلة أبنائي، ولعلها المرة الأولى الذي نغير به طقوس الحياة، وحتى لا أزيدك قلقا، (الحاج مخلص الإمام) منذ أن شرفنا وهو لا يفتر من الحديث عنك، وعن إحساسه بك من اللحظة الأولى، لذا قررنا سويا أن نزوجك ابنته (نجوى) وهذا والله نسب يتوج رؤوسنا جميعا، وأتيت بأبيك وأخبرته وتوافق مع رغبتنا، ما رأيك يا عريسنا؟.

اعتراني صمت مطبق، تصبب العرق شلالا من كل جسدي، على الرغم من اعترافي أني تمنيت أن نرتبط بعلاقة مع هذا الرجل لما وجدته من ترحاب العم، زغدني برفق مهنئا.

* انطلق يا ولد ، أنت رجل والرجال لا تخجل، هيا

حتى نرسل لباقي العائلة لنتمم الأمر، ويشاركونا فرحتنا.

خرج الكلام مني أظنه كان يرتدي كل ثياب الارتباك.

* وهل بعد قولك قول، أنت كبيرنا وكلمتك تنفذ؛ لأنها تهدف لسعادتنا، ثم يا والدي أخبرت أبي فماذا أقول بعد قولكم.

عانقني وأرسل بطلب العائلة من الرجال الذين جاءوا مهرولين، الكبير لا يحب إرجاء مطالبه، أعلمهم بما تم، أتت الموافقة بكل ترحاب، تعانق الجميع وباركوا هذه المصاهرة، بعد العناق والقبلات، قال العم:

* بعد أسبوع من الآن سنذهب إلى بلدتهم لطلب يد ابنتهم حسب التقاليد، ما تم هنا يخصنا، ثم نظرا لبعد المسافة على الرغم من أن المسافات لا تفرق بين الأحبة، ليكن الزفاف بأقرب وقت، وهذا ما كان، بعد حوالي الستة أشهر كان الزفاف، وصارت حياة تجاوزت السبعة والعشرين عاما، لم أشعر حينها إلا بكل سعادة، (نجوى) امرأة تجيد فن التعامل مع كل شيء بهدوء وعقلانية، أمر آخر لابد من ذكره على الرغم من ثقتي أنه راسخ داخل كل من ينتمي لعائلة (أبو الحمد), أن الأجداد وضعوا أمام أعيننا أموراً تعدّ قانوناً نسير عليه إلى يومنا هذا، الصدق التام مع كل شيء، الصدق يقرب المسافات، ويكون ثراءً لمن يتعامل معه، والآخر عدم الخوف، الخوف أصفاد تمنع الآنسان من ممارسة حريته، من أن يعيش بضمير، وأظن جازما أنها جينات توارثناها.

ضحك بصوت عال وأردف قائلا.

* صدعتكم كثيرا، ولكن بصدق كنت محتاجا لأن أحكي، اللحظات الحلوة لا يجب أن تظل حبيسة الصدور، دعونا نذهب للنوم، حقيقة أنا بحاجة له لأعاود تذكر تفصيلات كثيرة ، أشكركم على أنكم فتحتم مضخات الأحاسيس بداخلي، تصبحون على خير.

..بصباح اليوم التالي، خرجا لمقابلة المحامي الذي حدد مكان اللقاء أمام أحد مقرات الشهر العقاري، تمت الأمور بيسر لسابق علاقات المحامي المتوطدة مع العاملين بالمكتب، وبعدها ذهبوا إلى الطب الشرعي، تقدم المحامي بطلب لمناظرة الابنة من المختصين لإثبات عذريتها بشكل رسمي، تحدد موعد المناظرة بعد أسبوع، كأنا اتفقا قبل مقابلة المحامي على أن يكون الطب الشرعي بالقاهرة بعيدا عن القيل والقال، وكان هذا باتفاق الجميع رأياه صائبا، صحب ابن العم حتى محطة القطار، مع التأكيد بحضوره في الموعد المحدد هو ابنته، لم يتركه حتى تحرك القطار، طوال طريق العودة، لم تبارحه الأفكار، تساءل: هل الزمن يدور ويلف دوراته المتعددة، ومهما طال الزمن، وتباعدت المسافات لابد لأي إنسان للعودة إلى بداياته، أجاب على نفسه، أمر حتمي، مهما قذفت بك قواديس الزمن شرقا وغربا وبكل أرجاء المعمورة، مهما تغيرت ملامحك وتحولت سحنتك إلى غير شبيهة بهم، مهما تغيرت طباعك وركبت موجات التغيير السريع والمتسارع، مهما ضاعت أحرف لغتك وتغيرت لهجتك ولكنتك، مهما علوت درجات الثروة والسلطة وتمرغت بمتع الدنيا، ونسيت حبوك حافيا على تراب بلدك، مهما غيرت من ثيابك، مهما عشت بين الحفلات والسهرات، مهما ومهما ستعود يوما، الغالب الأعم يعود، وبعضهم يخلع وينسلخ تماما عن أمسه، فيموت وحيدا كما عاش وحيدا، معظم من يهرب فارا من عالمه بحثا عن حياة مغايرة لحياته، يعود مهما طال الأمد وطالت غربته، عندما يضع قدمه على تراب وطنه، تجده دون أي توجهات أو إملاءات، يخر ساجدا مقبلا تراب الوطن، نازعا عن كأهله كل أردية ارتداها أثناء غربته، يمسح عن ملامحه كل ما تراكم عليها من غبرة وطقوس احتلته فترات، يعود مولودا جديدا، الكثيرون يعودون أحياء وقلة تعود ملتفة الساق على الساق، ولكن كلهم يعود، نحن أبناء الشرق جبلنا على ضرورة أن نولد وأن نموت بأوطاننا، أما الغرب فلا يهتم ولا يعنيه أو يهتم بأي مكان يعيش وبأي مكان يدفن، اعتادوا متى صار قادرا على أن يسير بمضمار الحياة وحيدا يغادر كل ما يربطه بأسرة أنجبته، ويولي الأدبار هاربا من القيود الأسرية، وجد نفسه يبتسم ويهمس.

* أحمد الله أني ولدت شرقيا، لي جذور لا أستطيع مهما بعدت إلا أن أعود إليها طالبا دفأها.

قبل أن يتوقف أمام رصيف البناية التي يقطن بها، رن هاتفه، توقف بمحاذاة الرصيف، نظر إلى شاشة الهاتف، الرقم غير مسجل عنده، ورقم دولي لدولة لا يعرفها، تساءل من يكون، ليس له أية علاقات بأصدقاء يقيمون بالخارج إلا عدداً قليلا يعرف أماكن إقامتهم وأرقامهم مسجلة لديه، وهو أيضاً لم يغادر مصر مطلقاً إلا عند أداء فريضة الحج، أو مؤتمرات تخص عمله، فتح الخط جاءه صوت ذكوري، يتكلم العربية بشكل متقطع وبين الكلمة والكلمة كلمات إنجليزية، الصوت يأتيه.

* (رضوان) الا تعرفني؟ أنا (لوكا ديموس أنطونياس)، هل نسيتني؟.

رن الاسم في أذنه، وجد نفسه يصيح غير آبه بالشارع ومحتواه.

* يالله يالله، أين أنت طوال هذا الزمن، وكيف توصلت لرقمي؟، هل جلست إلى البلورة السحرية الخاصة بوالدك؟

* كما أنت لم تتغير، تريد معرفة كل شيء على ألفور، وحتى تهدأ أخذت رقمك من (عبد الله التحيوي) وأعرف أنه يهاتفك كثيراً ويلتقي بك بزيارته, ثم أنا أتصل بك لأقول لك خلال أسبوعين سنأتي لمصر وقررنا هذه المرة أن نقضيهما بفيلا (عبد الله التحيوي) بالغردقة، بصحبة الزوجات على الأقل نعطيهن فرصة للتنفيس عن دواخلهن، نجعلهم يأخذون راحتهم تماماً في تقطيع فرواتنا كما تقولون، فقط جهز نفسك لإجازة بهذه ألفترة، (عبد الله) سوف يتصل بك ويعلمك بالتاريخ تحديدا، سلام أنت تعرف أني شديد البخل، وهذه المكالمة تكلفتها عالية، على فكرة سوف أحملك أنت و (عبد الله) قيمتها، الحق حق.

وأطلق ضحكات طويلة مجلجلة، قاذفا السلام مرات، وأسرع بإغلاق الخط تاركا له الدهشة والمفاجأة.

صعد بدهشته إلى شقته، وهو يضرب كفا بكف، ويتمتم بكلمات مبهمة، مما أثار دهشة زوجته، وعندما أخبرها فحوى المكالمة، أصابتها نوبة من الضحك المتواصل، وقالت:

* حكيت لي عنه بعض الشيء، فقط طريقته التي حكيت عنها تشي بأنه كما هو يعيش الحياة كأنه مازال طفلا.

* لك حق، هو فعلا طفل لا يكبر، ما يدهشني هو تذكره لي، بالحقيقة نسيت عنه الكثير، بل ظننت أنه غادر الحياة، (عبد الله التحيوي) ولا مرة حدثني عنه، من الواضح أنهم متواصلان دائما، عامة أثار داخلي معرفة تفاصيله، سأخلد للنوم قليلا لأني لم أعرف النوم جيدا ليلة البارحة.

6

..بقرية (ميت عنتر) وتحت ظلال بعض الأشجار التي تقع على حافة الترعة الرئيسية والتي تظلل إحدى المصليات الكبيرة للصلاة في أوقاتها من المزارعين المتواجدين بحقولهم، تجد أمام كل حوض أرضا لها مسماها الخاص، عدد من المصليات لأداء فروض الله بأوقاتها، تجمع ما يقرب من العشرين شابا، متقاربي العمر الذي لا يتجاوز الخمسة والعشرين عاماً أو أكبر قليلا، اجتمعوا لأمر تم الإعداد له على مدار ما يقارب الشهر، أخذوا على عاتقهم محاولة العودة بالأمور الحياتية بالقرية والمصاحب لها من قيم وعادات وأعراف وسلوكيات، تصب في سبيل عودة الود والتراحم للقرية، هم يرون رياح التغيير تهب بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وتقذف بكل شيء إلى كل الزوايا بل حولت كل شيء شظايا، بدأت ألفكرة من خلال الشاب (محمود أبو الهوى) خريج طب الأزهر، وزميله (خالد محجوب) خريج كلية العلوم، كانا يجلسان ذات ليلة يتحدثان بموضوعات شتى، تطرق بهم الحديث، عن المتغيرات السريعة والمتغيرة التي تشهدها البلاد عامة، وقريتهم خاصة، هذا المتغيرات التي لا يمكن ملاحقتها، كل يوم وكل ساعة متغير جديد، تحدثا على أن هذه المتغيرات قد أصبحت مثل النار في الهشيم، ولابد من إيجاد محاولات وحلول جادة للتصدي لها، هم يرون أنها هدم متعمد وموجه بهدف جعل كل بلد وكل مكان داخل

الدول يتحول إلى جزر منعزلة، يجعل لكل واحد من أهلها فكرا خاصا به يعتقنه ويؤمن به دون فهم سلبياته وإيجابياته، بل إلى حد تصادم الآراء والمعتقدات، زمن يتداعى وينهار به كل ما تم ميراثه عبر القرون من تاريخ وقيم وطقوس حياتية، كانت هي السياج الأمن للبلدان، عقدوا مقارنة بين الماضي والحاضر، طال بهم الحديث وقتا طويلا، بالنهاية اتفقا على مخاطبة الشباب المقاربين لهم عمرا ويعرفون عنهم الاستنارة وتغليب الصالح العام، حددوا أن يكون لكل عائلة ممثل لها، وهاهم اليوم جاءوا للنقاش وليطرح كل منهم أفكاره على طاولة النقاش، بدأ الحديث (محمود أبو الهوى).

* بداية نحن لسنا ضد مسايرة ومواكبة التغيير، نرحب بأي تغيير يضيف ويبني ولا يهدم ما تربينا وعشنا عليه، أعرف أننا جميعا جئنا لهدف واحد، أراه مهما للغاية، وأننا جميعا متجردون من أي غايات شخصية، طبعا جميعنا شاهد عيان على المتغيرات الخطيرة التي تمر بها قريتنا مثلها مثل كل الوطن، متغيرات خطط لها من سنوات وربما من عقود، أصحاب هذه الهجمات البربرية، التي أدرجها أنا من وجهه نظري، تحت مسمى الحروب الضروس، التي غايتها تفتيت كل شيء، إلى اختراق تاريخنا ، ثقافتنا، معتقداتنا، ليتمكنوا من جعلنا ندور بفلكهم، أطلقوا علينا ما يحولنا من شعوب منتجة تكتفي بما هو متاح من الآنتاج لتعيش، وكنا شعوبا قانعة راضية، حامدين شاكرين على هذه النعمة، جعلونا شعوبا مستهلكة وشعوبا كسالى نتباعد عن العمل، صدروا لنا عديدا من المنتجات الكثيرة بصنوفها وأشكالها، مما جعل الكل يسيل لعابه ويهرول إليها، اعتمدوا في هذا المسلك عنصر الإبهار البصري والحسي، أظنكم ترون أن المزارعين الذين كان يضرب بهم المثل بالنشاط والعمل الدؤوب الذي يثمر نتاجا يشيد به الجميع، نزعوا منهم الحمية والحماس، أصبحوا كسالى ساهرين على المقاهي التي احتلت غالبية شوارع القرية، يشاهدون أفلاماً تبث لإثارة الشهوات والغرائز، حتى نساء القرية أصابتهن العدوى، يهرولن إلى الأفران بالمدينة لشراء الخبز وكافة الشيء من المركز، أصبحن أسيرات التقليد الأعمى، صرن يتشبهن بما يشاهدن، ضاع أهم ما كان يميز حياتنا، الخجل والحياء، وإن تقاعسنا سوف تأكل هذه المتغيرات الأخضر واليابس؛ لذا جئنا لمحاولة إيجاد حلول تحد من هذا، ، ولكي نكون موضوعيين على كل منا أن يبدأ بنفسه وأسرته وجيرانه، وبأمر الله نستطيع، فماذا ترون بصدق

تبارى الجميع كل يدلي بدلوه، هناك من طالب بأن يقوم أئمة المساجد بدروسهم وخطبهم، للدعوة إلى جادة الصواب، وبعضهم طالب أيضاً بأن تتم لقاءات دائمة لبعض رجالات القرية من رجالات مشهود لهم بألفكر والرؤية الثاقبة مع الأهالي، وبعضهم نادى بعقد لقاء موسع للجميع لتبصريهم بخطورة الآنزلاق إلى هوية هذه المتغيرات، وهناك من اقترح ضرورة وجود عدد من ألفتيات للمشاركة في توعية نساء القرية، بالنهاية اتفقوا على التواصل أولا مع كبار القرية المقيمين بها، ومن يقيم خارجها، وجلسوا يتذكرون أسماء هؤلاء، توافقوا على وفد منهم يمر على المشايخ والأئمة، وآخر للمرور على المدارس والمعاهد الدينية، وثالث لطرق الأبواب، لابد من إعادة دور الأسرة والمسجد والمدرسة، بأسلوب هادئ ولا يجنح للتطرف، بخلال يومين أعدوا قائمة بأسماء أبناء القرية المقيمين خارجها ومناصبهم، بدأوا بمخاطبتهم هاتفيا وشرح أهداف دعوتهم لعودة القرية إلى ما كانت عليه، وإلى ضرورة استعادة القناعة والرضا وعدم التشبه بالآخرين، الغالبية رحبت، وعليه تم الاتفاق على التجمع بإحدى ساحات القرية أحد أيام

الجمعة بعد صلاة العصر، تم إخطار من يقيمون خارج القرية، باليوم المحدد وكان من بينهم (رضوان أبو الحمد), صباحا استقل سيارته ومعه زوجته، أصر على السفر بالصباح الباكر قبل الزحام والحر، كان يسير الهوينا يفكر بهذا الطرح الذي فكر به الشباب، التغير أصاب كل شيء، ولكن المدن تختلف عن القرى، المدن تذوب بها الأشياء، ولا أحد ينتبه للتغير، أو لنكن منصفين لا يعيره أي اهتمام، لتسير الحياة كما تريد ونحن نسير بركابها، مردفا كلماته بجملة دائمة الترديد (كله مقدر ومكتوب), هذه حقيقة ولكن ليست مبررا للخنوع والخضوع بلا أدنى تفكير، أما القرية فصغيرة المساحات، قليلة السكان فأي متغير أو حدث جديد لابد من حدوث ضجيج وجلبة، وانتباه وتفكير ومحاولات للتفسير، بطبيعة الحال ليس من الجميع، آخر زيارة له للقرية من قرابة الستة أشهر، يا الله ما هذا التغير السريع! كل المساحات الزراعية التي شاهدها برحلته الماضية، لا يوجد لها أثر، الأبراج السكنية الاسمنتية صارت هي صاحبة الغلبة، حتى الخضرة استسلمت للكتل الاسمنتية والخرسانات والتغييرات، حتى الهواء لم يعد كما كان سابقا، ضاعت سبغته المنعشة التي تمر على الوجوه تداعبها، وكيف لها أن تكون وقد صارت حبيسة محاطة بالكتل الاسمنتية، كانت تمسح العرق ووعثاء الطريق، أصبحنا نستنشق الغبار وثاني أوكسيد الكربون، المتغيرات ألبست كل شيء أرديتها؛ لأن هناك قوى تعمل علانية وخفية لتمزيق وتعرية الدول والشعوب من تاريخها الذي هو سترها وكرامتها، تنهد تنهيدة صدر عنها صوت كبير، أزعج الزوجة التي التفت إليه مصوبة نظرة تساؤل، وضع كفه على كفها رابتا عليها قائلا..

* اطمئني لا شيء، مجرد هاجس وإشفاق على شباب بهم حماس لمواجهة المتغيرات الهدامة، ولهم حق هي هدامة وإن لم نحاول التصدي، سوف يستفحل الأمر وتتحول الدول في وقت طويل إلى دويلات صغيرة جدا، وكل دويلة جزيرة منعزلة، هم يحاولون تجريد الشعوب من تاريخها، التاريخ هو الشرف، هو ستر العورات، فعلا أنا أشفق عليهم وبذات الوقت ممتن لحماسهم، يكفيهم شرف المحاولة، وما يدريك ربما يستطيعون.

ضغطت بكفها عليه دعما وتأييدا. ترك نفسه للتأمل، واضح أن وجوده بالمدينة لا يعطيه فرصة كبيرة لمشاهدة التغير بشكل جلي، كل شيء يتوه بالمدن، المدن تظهر بها المتغيرات في شكل تقليد بالملابس، بتسريحات الشعر، من تقاليد متعددة الأشكال، من سلوكيات لا تناسب ملامحنا ولا بيئتنا، حتى الحديث أخذ منحي اللكنات الغربية والكلام الذي تتخلله كلمات أجنبية، يبدو أن الكل ينساق للتقليد دون إعمال العقل والتمييز بين ما يناسبنا أو لا يناسبنا، التقليد للحاق فقط بركب من يقلدون، وكأن الأمر صار مباراة يتسارع الكل للفوز بها، حقا تغيرت الحياة بجوانبها، ولكن مع الأسف ليس للأمام، بل كلما مر وقت نعود للوراء دُر !, وصل إلى قريته تعمد أن يمر بغالبية شوارعها، الوقت باكرا، شباب متجمع حلقات صغيرة على نواصي الشوارع والحارات، يدخن السجائر بشكل استعراضي، يرفعون عقيرتهم بالنكات ألفاحشة، يتبادلون التشابك بشكل غلافه الخارجي لعب ومداعبة، ولكنه ينم على عنف وسيكولوجيات ليست سوية، يمارسون الرقص بشكل ابتذالي وترديد أغان لا معنى لها، ضجيج بلا عائد، ينفثون دخان سجائرهم دون مبالاة لأي شيء، آه يا زمن، كنا لا نجرؤ على رفع أبصارنا حتى لأخواتنا الكبار، كان من يمر على رجل كبير وهو يعتلي مطيته ، لابد أن يترجل عنها، بل قد يصل الأمر أن يعرج إلى طريق آخر، تسريحات شعر غريبة، وشعور مظفرة تشبُّها بالنساء، وسراويل بها العديد من

التمزقات، توجد مسابقة دائمة بأشكال التمزقات وفنياتها، يا الله ما الذي يحدث؟ أين القرآن الكريم الذي كان غلافا دائما للقرية خاصة ببواكير الصباح؟ ما من بيت كان لا يصدر عنه القرآن الكريم، الآن ومع الأسف أغاني الضجيج والخبط والرزع سائدة اليوم والوقت، ما أسرع نار التغيير في تفجير الماضي بكل مكوناته، كان دائم التعود حين زياراته للقرية، أن يمر على أخواته من النساء، عملا بوصية الأب رحمه الله، البنات مسؤوليتكم للأبد، هن الأولى بالسؤال والاطمئنان، كونوا دوما السند، يمر على أختيه، يجالس كلا منهما بعض الوقت، يسمع لهما عن كل تفصيلاتهما خلال فترات الغياب، يطمئن على أمور أولادهن، يتدخل لحل مشكلات قليلة طرأت، يتناول مشروبا أو طعاما على حسب توقيت وجوده، فعل هذا، وبعدها أخذ الطريق إلى منزل العائلة حيث إخوته، شقته الخاصة لا يدخل إليها إلا بعد جلساته المستفيضة مع إخوته، بعد ساعات من حضوره أخيرا دخل شقته، أسرع بارتداء جلبابه الريفي، يشعر بكل الراحة حين يفعل هذا، يشعره بأنه يرتدي ذاته الحقيقية وأنه لم ولن ينسلخ عن جذوره، الزوجة تذهب لمجالسة زوجات إخوة زوجها، تجمعها بهن علاقات جميلة، على تواصل دائم هاتفيا، تعرف ويعرفن كافة التفاصيل كعادة نسوة مصر أو بالحقيقة هذه صفة الشعوب العربية كلها، لا يملون من الحكي وإعادته مرارا وتكرارا، حان وقت الصلاة، صعد ونزل يطرق أبواب إخوته للذهاب سويا لصلاة الجماعة أيضاً بالذهاب جماعة للصلاة، وجوههم تنطق بالبشر، أثناء السير وبين الحين والآخر يربت أحدهم على بقية الأخوة، من أجمل الأشياء التي كان الأب والجد حريصين عليها، هو دوام الحب بينهم وبين أبنائهم وأحفادهم، هذا الأمر الذي يجعل العائلة بحال من الاستقرار، التحايا تلقى عليهم من كل المارين بهم أو يمرون عليهم، برفع الأيدي أو بالإيماءات بالرؤوس أو بالأسراع بالمصافحة وتبادل القبلات، كل هذا يحدث بكل العفوية والصدق، الساعات التي يقضيها ببلدته يعود منها وكأنه مولود جديد، لبلدته سحر عجيب، تعيد إليه ذكرياته، كل ركن منها له معه أحداث وأحداث، للأماكن ذاكرة لا تعرف الصدأ مطلقاً ، مسقط الرؤوس أشبه بمغناطيس شديد الجاذبية، حتى لو كنا على مسافات طويلة أو غادرنا لبلدان أخرى لابد من العودة والتمرغ بها وتقبيل ثراها، البلدات اللحظة بها تعادل أعمارا كثيرة، دخلوا إلى المسجد الكبير الذي يتوسط القرية، أخذوا أماكنهم بالصفوف، أدوا صلوات تحية المسجد والسنة، الخطيب كان شاباً لا يتجاوز الثلاثين من العمر، كان مفوها يملك رصانة الكلمة، يدلل على أقواله بالعديد من الأسانيد والأدلة، تناول بخطبته ضرورة التمسك بمسيرة الآباء والأجداد والاقتداء بمنهجهم الأخلاقي وكيفية تعاملهم مع مفردات الحياة، ضرورة التحلي بأهم صفه تكون لدى الآنسان، الرضا والقناعة مما آتاه من رب العالمين، فلكل إنسان رزقه، ولكل حظوظ متساوية من الرزق، فبعضهم رزقه مالا، وآخر رزقه صحة، وآخر فلاح أولاده، الحظوظ متساوية فرب العباد عادل، ختمت الصلاة، الكل يصافح الكل، تتكون بعض الجماعات من الشباب والرجال، يجمع بينهم الحب، الصلاة تغسل الآنسان من داخله، يخرج كأنه مولود جديد، عاد هو وإخوته، جلسوا ببهو البيت المعد خصيصا لهذا الغرض، دارت أحاديثهم عن الكثير من شؤونهم وشؤون العائلة والقرية، والحكي عن أحداث جرت بالأيام الماضية، عن أعراس ، عن وفيات ، عن مشاحنات، عن ذكريات الأمس، طال نقاشهم حتى نودي عليهم لتناول الطعام، جلسوا جميعا رجالا ونساء وبعض الأبناء المتواجدين، بين اللقيمات تعلو الضحكات الصافية، الآنسان يولد من جديد عندما يكون غطاؤه أهله وناسه.

..بعد الغذاء وما يتبعه من فاكهة ومشروبات، كان يود الاسترخاء قليلا، ولكن لا وقت، اجتماع القرية بعد ساعات قليلة، فضل أن يقضيها مع إخوته ينبش معهم بالذكريات، يتذكرون مواقف شديدة البهجة، وأخرى كانت شديدة الألم، يتبادلون الضحكات حينا، والدموع حينا آخر، قاموا لصلاة العصر بالبهو، آمهم هو، قبيل الموعد المحدد، نهضوا معا شاهدوا الكثيرين بطريقهم للذهاب، يحثون الخطى، المكان المعد مكتظ عن آخره، من كل الشرائح العمرية والاجتماعية، حتى النساء وألفتيات خصص لهن مكانا مستقلا، أفسح لهم بعضهم مكانا بالصف الأول، الكل يعلم مكانتهم بالقرية، بعد الاطمئنان على اكتمال كل شيء، بدأ أحد مشايخ القرية تلاوة بعض آيات القرآن الكريم، بعدها أعطيت الكلمة للعمدة.

* بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، اليوم جئنا جميعاً ملبين النداء للعودة إلى أصولنا وجذورنا، إلى ميراث سار بنا وسرنا به قرونا طويلة، منا مسؤول وشريك، لذلك لابد لنا من التوحد والالتفاف حول هذا الشأن حرصا على كياننا وعلى قوة البناء، واسمحوا لي أن أدعو أخي الأستاذ (رضوان الحسيني فرحات أبو الحمد) ليتحدث إلينا برؤيته بهذا الشأن، فوجئ بهذا المطلب، ولم يكن أمامه بُدٌّ من النهوض، سلم على جلوس المنصة، العمدة وبعض رجالات ومشايخ القرية، تلعثمت الكلمات وتوقفت على شفتيه، هو لم يعتد أن يتحدث إلى جمع، بعد فترة ربما يراها بعضهم طويلة، تكلم.

* السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، بداية لابد لي من تحية كل الحضور، كبيرا وصغيرا، رجلا أو امرأة، لأن معنى وجودكم يعطي رسالة كبيرة ومهمة أننا جميعا ننتمى لبلدتنا، ولأنفسنا ولكل مجتمعنا من كل زواياه، وأننا مهمومون بذات الهم وبذات القضية، قبل أن ندخل إلى الموضوع الأساسي؛ لهذا أود القول هو أيضا لا يخرج عن صلب الموضوع، إن الدول الكبرى تريد دوما أن تعلن للجميع أنها الأقوى وأنها الأعظم، لتملي سياساتها ورؤيتها وما تريد على شعوب الأرض، ولكن بحق وصدق نحن أكيد شركاء بهذا الأمر ، لأننا استقبلنا ما يرد إلينا وهرولنا لتقليده دون أن نتدارس ونفكر في مدى إيجابياته ومدى توافقه مع أسلوب معيشتنا وحياتنا، إذاً فلا نلقي بكل اللائمة عليهم بل نحن نتحمل اللوم الأكبر، سوف أحليكم إلى كتاب للدكتور (مصطفي محمود) مؤكد كلكم تعرفونه، كتابه المعنون (قراءة المستقبل)، كأنه يقرأ المشهد الحالي باستشراف كبير، يقول: إذا أردت هدم حضارة أمة فهناك ثلاث وسائل لتحقيق هذا، اهدم الأسرة واهدم التعلم واهدم وأسقط القدوات والمرجعيات، اهدم الأسرة بتغيب دور الأم بجعلها تخجل من وصفها (ربة بيت), واهدم المعلم بألا تجعل له أهمية في المجتمع، وقلل من مكانته حتى يحتقره تلاميذه وطلابه، واهدم وأسقط القدوات والمثل والرموز والمرجعيات، عليك بأن تطعم أفواههم على الدوام، وتقلل من شأنهم، شكك فيهم حتى لا يسمع لهم أحد ولا يقتدي بهم أحد، فإذا اختفت الأم الواعية، واختفى المعلم المخلص، وسقطت القدوات والمرجعيات، فمن يستطع أن يربي على صحيح القيم؟!, ما يعيبنا هنا هو إلى متى نظل في نظرهم ضعفاء؟ وهذه هي الطامة الكبرى، لأننا نرى بأم أعيننا ما ذكرت ولا رد فعل يجابه هذا، باختصار شديد يجب علينا أن ننزع عنا هذه الوصمة التي وصمونا بها، نحن لسنا ضعفاء بل نحن أقوى منهم، نحن تاريخ ضارب في أعمال التاريخ، يعني أننا لنا هوية، وأين هم من هذا، هم دول مستحدثة، لا يجمع بينهم أي مشترك، غالبيتهم ينتمون لمجتمعات أخرى، شراذم تجمعت وصنعت دولا، أوهمت الكل أنهم هم الأقوى، وعلى الجميع من الدول الأخرى أن يرفع

يديه محييا ومرحباً بإملاءاتهم دون أدنى تفكير أو وعي مما تحمله من كم كبير من الآثام والشرور، مع الأسف نحن من أغلقنا هذه الدائرة علينا، وخنعنا لصفة الضعف، وهذا ليس بمعزل عن شأننا اليوم، جئنا اليوم لمخاطبة العقول قبل القلوب للحرص على ما جبلنا وتربينا عليه من موروث تاريخي وديني وعقائدي، مؤكد بداخل بعضهم تساؤل ولهم حق به، هل نظل جامدين ولا نقبل التغير والتطور الذي يعيشه العالم؟ مؤكد لا وألف لا، التغيير في الحياة ضرورة حتمية، لكل حقبة زمنية تغيراتها، لا يهم متى يحدث التغيير، المهم بل الأهم أن نستعد له، أن ندرسه جيدا، نعرف جوهره وأهدافه قبل أن ننبهر بغلافه الخارجي، وقبل أن يسيل لعابنا، لابد من إعمال العقل، حتى نتبصر جيدا ونتيقن من الجوانب التي ممكن أن تضيف إلينا فكرا وثقافة وتعامل مع الحياة بشكل نرتضيه لأنه يناسبنا من غالبية الزوايا، مؤكد هناك أمران، بعضنا يغير الظروف ويتحكم في مسارها، وبعضنا الآخر تغيره الظروف فيتوه ولا يبصر موضع قدمه، من هنا لا أطالب الا بالإصرار على التبصر والتمعن في كل ما يرد إلينا من متغيرات، غالبيتها من وجهه نظري، لها أهداف غير معلنة، أن تشق صف الأسرة، وبالتالي تشق صف المجتمع والدول والشعوب، ليسهل الهيمنة والسيطرة عليها وتسير على حسب ما تخطط له، لابد لنا من توحد بالآراء، ودعوني أعرج بكم على قضية مهمة أراها من صميم موضوعنا، وآسف مقدما إن كنت سأطيل عليكم، نحن نفتقد في مشهدنا ألفكري والاجتماعي لثلاثة أنواع من الأدب، أدب الخلاف، أدب النصيحة، أدب الحوار، الخلاف بالرأي ضرورة طبيعية تبعا لاختلاف الأفهام في الرأي، وتباين العقول وتمايز المستويات في التفكير وتحليل الأمور والمشاهد، الأمر غير الطبيعي أن يكون خلافنا في الرأي بوابات للخصومات والعداوات وإذكاء لنوازع غير سوية أو منطقية وعقلانية، وشرارات توقد نيران القطيعة والتباعد والتفسخ، العقلاء مازالوا يختلفون ويتحاورون في حدود العقل دون أن تصل آثار خلافهم إلى القلب، فهم يدركون من أن الناس لابد من أن تختلف، ويؤمنون بكل يقين بقول رب العالمين: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) صدق الله العظيم, ألا نحسن أن نكون إخوانا حتى لو لم نتفق، أحبك أخي حتى لو بقينا طول الدهر مختلفين، واختلاف معك لا يبيح انتهاك عرضي، أو يحل غيبتي، الناس عند الأختلاف ثلاث، إن لم تكن معي فلا يعني هذا أنك ضدي وهذا منطق العقلاء، إن لم تكن معي فأنا ضدك ، وهذا منطق الحمقى، وإن لم تكن معي فأنت ضد الله، وهذا منطق المتطرفين، عندما نحسن كيف نختلف، نحسن كيف نتطور، بعضنا يتقن أدب الخلاف، والآخر بهوى في مأزق خلاف الأدب، وأيضاً أدب النصيحة، النصح يكون باللين وبالحجة الواضحة والمنطقية، الشدة بالنصح سبيل لأخذ الجانب الأبعد والأسوأ من أي نصيحة، وأدب الحوار، الحوار الهادئ الذي يتيح ألفرصة للتقارب لا للتنابذ، الحوار الذي به طريق واحد هو طريق الود والصالح العام، أنهي حديثي بدعوة مهمة، أن تعود الأسرة إلى مسؤولياتها نحو الأبناء، لا داعي لمبرر الهرولة وراء متطلبات العيش، آباؤنا وأجدادنا لم ينصاعوا لأي مبررات، أدعو المعلم والمعلمة إلى الحرص على رسالتهم الأساسية، غرس القيم والسلوكيات والتاريخ داخل عقول وأفئدة أولادنا، أدعو الأئمة والشيوخ للقيام بالدعوة الدائمة للسير بطريق اعتدنا عليه ولم نحد عنه، جاء الوقت لنخرج من ثياب الغربة التي نعيشها، لنعترف بالواقع فكل منا غريب بين أهله، يعيش وقته بين آليات التكنولوجيا، حاضر جسدا غائب روحا وعقلا ومشاركة حياتية، استيقظوا من سباتكم حتى تتبينوا موضع أقدامك، الأرض تكون غاية بالصلابة عندما تتمسكون بأمسكم هو مفتاح استشراف الغد، غاب الحوار فغابت عنا أخلاقيتنا،

لنبدأ بأنفسنا، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، صدق رب العرش العظيم، قبل أن أغادر المنصة أدعو العمدة ورجالات القرية لتشكيل لجنة حكماء لمتابعة أمور القرية بشكل مستمر للتصدي للسلبيات وترسيخ الإيجابيات، كلنا مسؤول ويجب أن يكون قادراً على مسؤولياته، إن عرف كل منا مسؤوليته تتذلل كل الصعاب مهما كانت صعوبتها، عودوا للحوار الأسري، أشركوا أولادكم بكل شيء ليتبصروا الأمور ويعرفوا كيفية التعامل معها، وجهوا النصح بشكل لين به مودة واحترام ، فيعود الكل إلى المضمار الحقيقي للحياة ويتحمل مسؤولياته ، أرجو أن أكون قد أوصلت رسائلي، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

ضج المكان بالتصفيق المتصاعد، صاح أحد الشباب.

* نشكرك أستاذنا على كلمتك التي أصابت كبد الحقيقة، ووضعت الأيدي على ما يعترينا من هواجس وتساؤلات، ونعدك بالعودة إلى نهج أسلافنا وتاريخنا، أيده الكثيرون بالهتاف المؤيد، أخذ العمدة الكلمة.

* أظن بعد هذه الكلمة المستفيضة والشارحة لكل شيء، أن الكرة قد ألقيت بملعب الجميع، فعلينا أن نتكاتف من أجل أن نعيد أفكارنا وحياتنا إلى طريقها المستقيم، قبل أن نغادر نتعاهد على تحمل كل منا مسؤوليته ودوره.

أمّن الكل على قوله، ولكن طالب بعضهم بعرض وجهات نظر أخرى ، تطابق أغلبها مع ما قيل ، طالت النقاشات التي نالت الموافقة والمعارضة أحيانا، بالنهاية اتفق الجميع على البدء من جديد، ولتكن بأنفسهم ، خرج الجميع يحمل بداخله رداءً جديدا من الحماسة، وكأن العصابة التي كانت تحجب البصر قد تمزقت بشكل تام، تعانق مع إخوته وأهله، أشار إلى (حسين) ابن العم أن يقترب منه، خاطبه.

* لدي علم أن لك مهمة غدا بالقاهرة، جهز أمورك لتأتي معي بعد ساعتين، صعب أن تسافر من هنا لتنهي مهمتك بموعدها.

شكره، وأخذ الطريق ليستعد هو وابنته للسفر، عيون إخوته بها تساؤلات، كيف عرف أن ابن العم لديه مهمة؟ وما هذه المهمة؟، لمح تساؤلاتهم، فوضع حدا لها.

* (حسين) كان قد كلمني (تليفونيا)، ومن بين الحديث علمت أن له مهمة هو وابنته (ثريا) بالقاهرة، ولكن لا علم لي بماهي؟ ولا يصح أن أسأل.

طوال الطريق إلى البيت كانت الحكايات عن كل ما يمرون به، من أصحاب الدور المؤسسين لها، وبعض الحكايات عن مواقف تخصهم، عند الوصول إلى البيت، طلب منهم أن يسترخي قليلا، بعدها يتأهب للمغادرة، الزوجة وجدت نفسها وسط زوجات الأخوة وبناتهن، سمعت منهم حكايات بعضها يدفع بهن للقهقهات، وبعضها يدفع بالدموع إلى المآقي، نام بكامل الاستغراق، فلقد نال نصيبا وافيا من الدفء الصادق، طال نومه أكثر من ساعة، استيقظ على همس زوجته تطلب منه الاستيقاظ استعدادا للسفر، ذهب للاغتسال ، اطمئن على حاجياته، ارتدى ملابسه، خرج ليجد الزوجة على أهبة الاستعداد، الأخوة جميعهم منتظرون بالبهو ، صافحهم وعانقهم، وجد (حسين) قادما بصحبة ابنته، أسرع الجميع بركوب السيارة، أشاروا بأيديهم مودعين

الجميع، طوال الطريق لا حديث إلا عن القرية وتغيراتها وتحولاتها، والحكي عن بعض شخوص العائلة والعائلات الأخرى، مع بعض القفشات والنكات والمواقف التي تدفع بهم إلى الضحك بصفاء تام، عند الوصول كان الإرهاق باديا على الكل، فآثروا الخلود للنوم.

.. قبيل ألفجر صحا (حسين)، جلس القرفصاء على السرير، أخذ يتلو آيات القرآن الكريم بذات طريقته التي تربي ونشأ عليها، الصوت الخافت الهادئ الذي يترافق مع التمايل يمنة ويسرة، مع إغماض العينين إلى حد ما، وترك نفسه للسباحة في ملكوت الله، طقس اعتاده على مدار عمره منذ أن أدركه الوعى والتمييز بين الأشياء، يستغرق منه هذا ما يقارب الربع ساعة أو أكثر قليلاً، بعدها يتلو أذكار الصباح، ويختمها بالدعوات لأبيه وأمه والأهل والأقارب ممن ناداهم رب العالمين، ثم يدعو لأسرته ولنفسه ولكل الأحبة، شعر بحركة خارج الحجرة التي ينام بها مما ينبئ عن يقظة أهل البيت، أصدر صوتا عاليا لحد ما بما يشبه السعال ليخبرهم بيقظته، ابنته تنام مع زوجة العم، أتاه وطرق باب الحجرة، أذن للطارق بالدخول، تبادلا تحية الصباح، نهض مصاحبا له حتى يقوما بالوضوء، طلب من ابن العم أن يصليا بالمسجد الزينبي، من سنوات طوال لم يصلِّ به، وأيضا لتناول الإفطار بأحد المطاعم المنتشرة بالميدان، هو يريد تذكر أيام دراسته الجامعية، كان يهوى الذهاب للمناطق الشعبية، ذات الطبيعة العفوية غير المغلفة بأمور مصطنعة وبمكياجات تنفي صفة الطبيعة التي خلقها الله، ما أجمل أن تسير وسط بشر يشبهونك، بسطاء على سجيتهم، كان دوما يذهب إلى الحسين، عابدين، باب اللوق، باب الشعرية، شبرا، كل شبر يعرف أنه مازال يحمل بطياته الطيبة والنقاء، كان يحشر نفسه بين متناولي الإفطار على عربات ألفول والطعمية و(تحبيشاتها)، وكثيرا ما ذهب لتناول أطباق (الكشري أبو دقة حراقة)، يا الله مر الزمان وهو بذات العشق، وافقه (رضوان) مخبرا له أنه أيضاً يريد هذا كسرا لأمور صارت ناموسا حياتيا له، خرجا ليلحقا بالصلاة جماعة، المنظر رائع، نسيم الصباح الذي لم تلوثه مضخات ثاني أوكسيد الكربون الدائمة التصاعد من الكم الهائل من السيارات على تعدد نوعياتها، وكأن المهمة الأساسية لهذه السيارات إثبات تواجدها بهذه الملوثات، نسيم يداعب الوجوه، يذهب عنها وسن الليل، يعيد فتح المسام وإنعاش الأرواح والأفئدة، ما أجمل رؤية هذه الهرولات الصباحية من الجميع رجالا ونساء وشبابا وأطفالا يمسكون بأيدي الآباء يشاركونهم الهرولة، الكل يتسابق استجابة لنداء الله، الصدق الإيماني يشد صاحبه للسير بطريق الله، هرولا مثل الآخرين، تسابقا مع المتسابقين، السباق بحب الله غذاء للروح وإيقاظ للنفس، الوقوف كتفا بكتف، القدم تلامس القدم، رسائل أن هناك وحدة الإيمان، وحدة العقيدة، يتساوى الجميع بين يدي المولى، تختلف الأردية وتختلف الملامح وتختلف الشريحة المجتمعية ولكن تتوحد القلوب والعقول، أديا الصلاة، أخذ (حسين) يمعن النظر بصحن المسجد، هلل بصوت عال عندما لمح مجموعة تصنع دائرة، تتمايل وتهتز، والابتهالات والتهدجات تتصاعد، هرول بلا أي إرادة، جلس بينهم، اندمج معهم كأنه يعرفهم من سنوات، نسي كل شيء، (رضوان) وقف دهشة لما يرى، الذكر وتمايل الأجساد يزداد، وبعض النهنهات وأصوات بكاء، وتساقط دموع يبلل الصدور، طال انتظاره، لم يكن هناك بد من الذهاب إليه لإخراجه من حالة الوجد الروحاني المهيمنة على الجميع، هم بمعزل تماماً عن كل شيء، لكزه على كتفه بهدوء مرات حتى انتبه، آفاق من جو الروحانيات، ألقى السلام على الحضور، تباطأ ذراع ابن العم، سارا جنبا إلى جنب بلا أي حديث، مازال يعيش بذات الحالة، سارا إلى أحد المطاعم التي تقدم الوجبة الشعبية الأولى لجموع الشعب، ألفول وألفلافل والحمص، جلسا يتناولان بهدوء، نظرات متبادلة تنبئ

عن أن المذاق راق لهم، انتبهوا، ذهبا لمقهى مجاور، الصمت يسود وكأن (حسين) مازال جالسا وسط المنشدين والذاكرين، بعد شرود طال به ألقى بسؤال مباغت.

* لماذا بغالبية المساجد، بالمدن أو القرى، تلمح أن الغالبية من روداها ينتمون إلى طبقة الكادحين، (الصنايعية) والحرفيين، وكل من يجري بالمشوار على أكل عيشه اليومي، أغلبهم من أصحاب العروق النافرة والأيدي المعروقة، أصحاب العرق الغزير، هل صار العرق دليلا أكيدا ومقياسا معترفا به على الشقاء؟، لا تجد إلا نسبة لا تذكر لأصحاب الثراء والواجهة الاجتماعية، هذا السؤال لا يغادرني على الإطلاق، هل الدين لفئة دون أخرى؟، هل صحيحة العبارة التي تتردد دائما أن ربك رب (الغلابة)؟، أنا من ناحيتي لا أحبذ هذه المقولة، الله رب للجميع ولكنه يصطفي من عباده المؤمنين وهذه تعني المؤمن الحق الصادق مع ذاته ومع الله، الدين رسوخ ويقين وليس ثيابا أو مسوحا نرتديها على حسب حاجتنا إليها، نحن نقصر الدين على أمور محددة، مؤكد هذا تفسير خاطئ، لأن الدين للجميع ولكل الأوقات وكل المواقف والله رب الكل دون استثناء أو تفضيل لأحد على آخر، حقيقةٌ هذا أمر يثير الدهشة، ألفقراء والكادحون يلوذون بالله دوما، على الرغم من شظف عيشهم إلا أنهم يتمتعون بفضيلة لا توجد بالكثير من الطبقات المخملية، الحمد والشكر والرضا بما هو مقسوم لهم، هناك أمور تظل بلا تفسيرات، آسف أخذتك إلى متاهة تساؤلاتي التي أصنفها أنا على أنها لا يجب أن تثار، لأنها تذهب بنا إلى الجدلية المتزايدة، فمن الأفضل أن تظل حبيسة الصدور، هيا بنا إلى البيت، لنستعد للذهاب إلى الطب الشرعي، بالمناسبة هل أكدت على المحامي ليكون بصحبتنا؟

* لا تقلق كلمته أمس قبل حضوري للبلد وأكدت عليه، الأستاذ (فكري الخياط) رجل دقيق بمواعيده، ومنظم جدا، هيا بنا.

وجدا الزوجة والابنة جالستين تتناولان أطراف الحديث الضاحك، ألقيا التحية عليهما، جلسوا جميعا يتحدثون بأمور شتى، عندما اقتربت الساعة من التاسعة، نهضوا لتبديل ثيابهم استعدادا لمهمتهم، عند باب الطب الشرعي، وجدوا المحامي بانتظارهم، أخذوا الصعود إلى السلم، ما إن وصلوا إلى مدخل الطب الشرعي حتى فوجئوا بانهيار الابنة بالبكاء الحار المصحوب بنشيج، أسرعوا إليها أحاطوها تماما، أخذها الأب بصدره يربت عليها، يقبل رأسها، أسرعت إليها إحدى الطبيبات، أمسكت بيدها وسارت بها إلى إحدى الحجرات، وقفت حائلا بين دخولهم.

* دعونا وحدنا قليلا، لا قلق كل شيء سيكون على ما يرام.

أجلستها وذهبت سريعا باتجاه ثلاجة صغيرة بأحد الأركان، أتت لها بمشروب يهدئ من روعها، أخذت تتحدث إليها حديث الأم لابنتها.

* لماذا هذا؟ لا داعي لكل هذا، الأمر بسيط، نحمد الله أن لم يتطور للأسوأ، هناك من يتعرضن للأبشع، نحمد الله أنه غفل عن فض عذريتك بالطرق البدائية المعتادة ببلادنا وبأساليب غير أخلاقية، يكفيك أنك مازلت كما أنت كما سنرى ونثبت بأمر الله، اهدئي تماما، ليس هناك ما يخيفك، واثقة أنا من أنك بخير، الأمر لن يستغرق وقتا، أنا من سيناظرك، فلا خجل، نحن نساء مثل بعضنا.

أخذت تحدثها بشؤون متعددة، حتى أنهت جزعها، خرجت الطبيبة إليهم لطمأنتهم على أنها أصبحت بخير، حمدوا الله، عاودت للدخول، أخذت تحدثها وتسألها بأمور شتى حتى تعيد تهيئتها نفسيا، نصف ساعة وأقل كانت قد قامت بتوقيع الكشف الطبي عليها، انتهت عانقتها طمأنتها تماما.

* أنت فعلا لم يقربك أحدٌ لا من قريب ولا من بعيد، لا تهتمي بأي كلام، عيشي حياتك كأنك تبدئين من جديد، أياما ويكون التقرير جاهزا ومعتمدا.

خرجت إليهم إنسانة تختلف تماما عما كانت عليه من ساعة، وجهها عادت له نضارته، البسمة مرسومة بكل التناسق على الشفاة، أبلغتهم بما قالته الدكتورة، تبادلوا التصافح الحار والشد على الأيدي، أبلغهم المحامي أنه سيتابع الأمر، ويحضر التقرير ويقدمه للأستاذ (رضوان) إلا إذا أرادوا الحضور للحصول على التقرير، تقدموا بالشكر له، وغادروا إلى السيارة، بطريق العودة، خاطبها (رضوان).

* اليوم اعتبريه ميلادا جديدا لك، انسي ما كان، كأنه لم يكن، على ما سمعت من أبيك أنك تحبين العلم، فلماذا لا تواصلي المسار العلمي، تقدمي للدراسات العليا، وثقي من أن الله سيعوضك بالأفضل، العلم هو العلاج لك، انغمسي فيه وأعلني عن ذاتك، ونحن من خلفك ندعمك، أود أن اسمع عنك ما يسرنا دوما.

صعدوا الشقة، استقبلتهم (ناهد) بكل البشاشة، احتضنتها وأخذت تنهال عليها تقبيلا.

* والله والله أعدت لي أجمل إحساس، إحساس الأم، صحيح أني أم ولكن أنت أيقظتي هذا الإحساس، لابد أن أجد منك اتصالات دائمة، وأيضا زيارات كلما سنحت ألفرصة، يا حاج (حسين) لا تحرمنا من هذه الياسمينة أرجوك.

تبسم الجميع، لحظات وكانوا قد أعدوا حاجياتهم، وغادر الجميع إلى حيث محطة القطار.

..7..

..سارت الأيام كسيرها المعتاد، الخريطة اليومية المرسومة بعناية فائقة الجودة ودقة متناهية من رب العباد، هو عدو للنظام الممل الروتيني، كان طريقه الأوحد للخروج من هذا الشعور، هو أن ينصهر بالعمل وأن يتفانى به، أن يستغرق دوما بالقراءة في المستحدث بعلم المحاسبة والماليات والاقتصاديات، خاصة علم الاقتصاد الذي يتغير بين اللحظة والأخرى، مؤشراته أكثر المؤشرات بالعالم صعودا وهبوطا، لا يمكن بحال التنبؤ باللحظة القادمة، علم شديد المراوغة، هو مولع به، على الرغم من تعقيداته، كثيراً ما يخط تصورات جديدة من الممكن أن تضيف للعمل وتغير من آلياته، لا يقدم على عرضها على المستويات الأعلى دون دراساتها عشرات المرات، رؤساؤه كانت أبوابهم مفتوحة له، يعرفون مدى تفانيه، ومدى قدرته على تقديم مقترحات جديدة تقفز بالعمل إلى محطات أكثر نحو التميز، صحيح برنامجه اليومي يكاد يكون شبه الخط الواحد، وللأمانة كان قنوعا بهذا وإن كان لابد له من الولوج إلى طرق تشعره بالتجدد، اللحظات التي يشرد إليها بعيدا عن العمل، كان مولعا بالقراءة لكتاب متعددي الجنسيات، لكي تعرف شعبا عليك بقراءة أفكاره، هو دوما حريص على الوقوف على مسافة

ليست بعيدة عن مستحدثات الحياة الثقافية، الثقافة الباب الواسع لمعرفة كيف تدار الأمور، ثقافته وقراءته المتنوعة جعلت منه قاسما مشتركا بكل مؤتمرات وفاعليات الوزارة، عرف عنه طلاقة لسانه ورصانة عباراته، وترتيب أفكاره، كانت الوظائف العليا تسعى إليه، لم يسع يوما إليها، عرضوا عليه مرات عديدة مناصب قيادية تقربه من أصحاب القرار الأول بالشأن الاقتصادي بالوطن، ولكنه رفض، على الرغم من تمكنه من أدواته وقدرته إلا أنه لا يحب أن يرتدي ثياب الرجل الأول، من داخله يبتسم كثيراً ما يكون الظل صاحب تأثير أقوى من الأصل، الظل هو الصورة الحقيقية والسيكولوجية للأصل، وسبحان الخالق كل ظل يعرف أصله، إلا من اتبع سبيل الشيطان، وتمرد على مشيئة الرب، وأخذ طريقاً مغايرا لما يريده الله، الظل الطيب للرجل الطيب، والشرير لمن يشبهه، وهو يرتضي بهذا، مهما كان موقعه له الوجود القوي، كثيرا ما كان يكتب القرارات ذات الصدى التي يعلنها المسؤول، والتي يعلو التصفيق والهتاف لها، ليس معنى هذا أنه يتنصل من المسؤولية، لا هو يواجه بشجاعة، لا يتورع عن مواجهة أصحاب الأخطاء وجها لوجه، ربما يصل الأمر به إلى تصعيد الأمور دون مبالاة لأحد، لديه طقوس لم تتغير بمرور الزمن، الذهاب للمسرح كل شهر، حضر مسرحيات العمالقة، (سناء جميل، سميحة أيوب، الأخوان حمدي وعبد الله غيث، سعد أردش، كرم مطاوع)، والكثيرون من أساطين هذا ألفن الراقي، المسرح مرآة الشعوب، يجسد حياتها وإشكالياتها من كل الزوايا، كثيراً ما كان يذهب لبعض معارض ألفن التشكيلي، هو يرى اللوحات تجسيد لأحاسيس وتفاعلات صاحبها مع واقعه ومع نظرته للحياة، وشرح واضح لسيكولوجيته الآنسانية والإبداعية ، والحفلات الأوبرالية التي تضخ الكثير والكثير من التجدد الروحي والمشاعري داخله، كان حريصا أثناء حياة (ثومة), على الجلوس هو والزوجة وأولاده حينما كانوا أطفال بالشرفة، لسماع حفلاتها الشهرية، كان من البداية يرغب بتربية الأولاد على رقي الذوق، وآداب السلوك بوجه عام، ونجح حمدا لله في هذا، يعود من عمله بتوقيت شبه محدد، اللهم بالحالات الطارئة بالعمل، يلقي بحكاياته بحجرها، يشركها بتفاصيله اليومية، إن حدث يوماً أن أصابه نوعا من ضيق الصدر، يسرع إلى قريته، يتبع بهذا إسوة بالأستاذ الإمام (محمد عبده) عندما يولي وجهه تجاه مسقط رأسه ليتوه بوجعه وضيقه بين صدور أهله وأقاربه، هكذا كانت بوصلته الحياتية، منذ أن تطأ قدماه تراب قريته، لا يأخذ وقتا للراحة، يضع حقيبته ويسرع إلى الشوارع والحواري، يحب أن يتلمس من سيره رائحة قريته والمتغير بها، يطرق أبواب أهله وأقاربه وأصدقائه، يصافحهم بحرارة، يستقبل رسائل الأيدي، اللمسات رسائل ود ومحبة وشوق ودعوات بالخير متبادلة بين الطرفين، بعد العشاء يذهب من فوره مسرعا بل مهرولا إلى حيث بيت (مغاوري الحافي)، أهل القرية أطلقوا هذه الكناية عليه لأنه لم يرتدِ حذاءا بعمره، عندما يسأل عن السبب يقول ضاحكا: لا أريد أن يكون بيني وبين تراب بلدي حاجز! ملمس التراب يحدثني حديث الشوق والحنين، دوما له تعبيرات لا تأتي بخاطر أحد أوباله ، حتى من حملة الشهادات وأهل العلم، البيت المجاور لمقابر القرية الرئيسية، القرية كلما اتسعت، كلما أقام أهلها مقابر جديدة بأحد أركانها، كان بيته بالبداية لا يجاوره سوى أربع أو خمس مقابر، هذا من أكثر من خمسة عقود زمنية أو أكثر، أما اليوم فقد أحاطت البيوت والمقابر بأشكال متباينة به، كل منهم ارتمى بأحضان الآخر، الموتى ونس الأحياء، والأحياء يلبون نداء الموتى بأن عليهم رعايتهم أمواتا مثلما كانوا وهم أحياء، (مغاوري) لم يتغير، نفس الهيئة نفس الملامح، نفس طريقة الكلام وحركات اليدين، وكأن الزمن لم يستدل على عنوانه مطلقا، يخرج من بيته قبيل

ألفجر، يهرول إلى حيث تقوده قدماه إلى مسجد من مساجد القرية، ينظف المسجد ودورات مياهه، كثيرا ما يأتي معه بأعواد البخور يشعلها، ويوزعها على أرجاء المسجد، يصلي كثيرا من الركعات قبل الصلاة، يصلي بخشوع تام، يقول عن هذا، لابد من التفرغ التام للصلاة، لا يأخذك ألفكر نحو أي شيء، الشرود بالصلاة يجعلها بلا اكتمال، على الرغم من أميته إلا أنه يشعرك بأنه فيلسوف عفوي أنجبته الحياة وصقلته، كان صاحب بصيرة تدهش الجميع، يشخص أمراض النبات، الحيوان، يستدعونه كثيرا لرسم الحدود بالأراضي الزراعية، على الرغم من وجود دلال مساحة هذه من ضمن مهامه، ولكنه يُستدعى لأنه لا يحيد عن الشرع التام، لا يجامل ولا يحابي، بعضهم يطلق عليه (مغاوري الحقاني)، تجده في كل ربوع القرية، وكأن له عددا من النسخ موزع بعدالة على القرية، كان دوما بمقدمة أي حدث، بسرادقات الأفراح والمأتم تجده أول من يمهد المكان ويرشه بالماء، تجده قبيل المغيب، قبل وصول الكهرباء للقرية، يسير خلف المشعلاتي الذي ينظف ويشعل ألفوانيس المتواجدة بالقرية، يحمل السلم يضعه بحرفية تامه أسفل كل فانوس، لم يطلب أجراً مطلقا، الأجر يصله إلى البيت، ما إن يدلف إلى بيته، حتى يجد خيرات الله، موزعة جيدا، كل صنف على حدة، كان دوما عفيّا، لم يره مرة أو يسمع أنه توعك يوماً أو أصيب بإعياء، سأله يوماً عن السر، ضحك وهو يجيب، الطبيعة يا ابني، الطبيعة هي العلاج الناجع، دعك من العقاقير التي لا نعرف مكوناتها الحقيقية، إن عالجت ألما معيناً فإنها تفسد أموراً اخرى، أنا صباحي كوب كبير من الماء المغلي أو اللبن الدافئ مضافاً إليه مقدار محسوب على قدر الكوب من العسل والليمون، أتجرعه يشعرني كأنني أكلت ديكا روميا كبيرا، ويعقب هذا بضحكات يرتج له كامل الجسد، الممتلئ المتناسق دون انبعاجات، متناسب مع طوله الذي ينتمي إلى فصيلة العماليق، كان يحب الجلوس إليه ليسمع ويرى تصويره للأحداث بالقرية، كلماته متناسقة مع حركات يديه وجسده، حين الحكي، كان يحكى تفاصيل التفاصيل لا تفوته شاردة أو واردة، يتحدث بكل شيء ولكنه ابدأ لا يخوض بالأعراض أو النميمة، يقول بهذا الشأن: كن سترا لأخيك يكن الله سترك الدائم، له أسرة صغيرة، زوجة ضريرة يقال: إنه تزوجها رحمة بها، أنجب ولدين وابنة، الولدان أخذتهم أقدامهما لغربة دائمة، أحدهما بالعراق والآخر بالأردن، يعملان بكار المعمار، يأتيان على فترات متباعدة، كثيراً وحدهم، قليلاً مع الأحفاد، يأتيان ببعض الملابس والأغطية الخاصة بالنوم، يقضيان أياماً ويعودان للغياب، الابنة تزوجت بالقرية، هي من تقوم برعايتهم وبأعمال المنزل، دوما يردد في كل مجلس، من لم ينجب بنات كأنه لم ينجب، هن حاملات الحنان الدائم المتزايد مع الأيام، البنات ملك لأسرهن العائلية الأساسية، أما الشباب فملك لزوجاتهم، يردف هذا بقهقهات عالية، يجلس إليه لا يدري بالزمن، لا يريد تركه ولكنه بالنهاية يغادر أرديته ممتلئة بألوان متعددة من السعادة والحكمة الحياتية الخالية من أي مقعرات أو مضاف إليها بهارات غير مناسبة لها، عفوية مطلقة، دوما نحن بحاجة للبساطة، البساطة نسائم تجدد خلايا الروح.

..كان منهمكا بين كم كبير من الأوراق، ما بين دراسات لخطط الوزارة بالمرحلة القادمة، وتقارير عن ما تم بفترات سابقة، يمسك بأقلامه الملونة، يكتب تأشيراته وتوجهاته، يقطع عليه عمله عشرات التليفونات، منها من يسترشد به بشأن ما، ومنهم من يخبره أن هناك اجتماعا خلال ساعات، وعليه أن يعد تقارير معينة، وبعضهم يطلب اللقاء معه، دوما إجاباته مقتضبة، لا يعطي مساحات لحديث مطول خارج إطار العمل، مؤمن تماماً أن لكل أمر وقته، اليوم جدول الأعمال مليء بالكثير، لا يعرف متى سينتهي كل هذا الكم من الأعمال، الله المعين، كل حين يدخل عليه (مرتضى) حاملا مشروبا، وسط كل هذه الآنشغالات جاءه رنين الهاتف، نظر للرقم، ذات الرقم الدولي الخاص ب(لوكا), فتح الخط، آتاه الصوت صاخبا طريقته التي يبدو أنها لم تتغير.

* (رضوان) أخبارك ؟ لعلك بخير، هل رتبت أمورك على الإجازة، أنا قادم نهاية الأسبوع القادم، وسيلحق بي (عبد الله التحيوي) بعد يومين، سأرسل لك موعد وصول الطائرة إلى مطار القاهرة، ورقم الرحلة، أرجو أن تكون أول من يستقبلني بعد الغياب الطويل، كم أنا شغوف لهذا اللقاء!

* مؤكد سوف أكون بالانتظار وأنا مثلك مشتاق لكم، زمن طويل باعد بيننا، نحمد الله على تجمعه لنا، لنستعيد ما تسرب من بين أيدينا ومن أعمارنا، تحياتي، سلام.

انتهى اليوم بشكل هادئ على الرغم من كم العمل الكبير الذي كان ملقى على كاهله، عند الساعة الخامسة انصرف، ألفكر أخذه لترتيبات استقبال (لوكا)، لابد من استضافته أول الأيام على الأقل بشقته، لابد من إعداد بروجرام يناسب زيارته بعد غياب عقود، كل شيء تغير، لابد من الاحتفاء به وبزوجته، حسبما فهم أنها الزيارة الأولى لها لمصر، ولكنه بالنهاية أرجأ هذا لحين معرفة توقيت وصوله، وبعد النقاش مع زوجته، للنساء رؤية مميزة بهذا الأمر، لهم لمساتهم التي تعطى الحدث رونقا مميزا، دخل إلى شقته مرهقا تماما من جراء هذا اليوم الشاق من العمل، طلب من زوجته إرجاء تناول الطعام لحين أخذ حماما دافئا يزيل به آثار هذا اليوم، ثم الاسترخاء قليلا لتهدئة جسده بعض الوقت، وافقته بلا جدال، أقبلت عليه ربتت عليه مرات، متمنية له الصحة والعافية، ترك حقيبته التي تحمل بطياتها بعض الملفات التي تحتاج لدراسة متأنية، عادته أن الملفات الشائكة التي تحتاج قرارات حاسمة ومؤثرة إيجابيا يأتي بها إلى المنزل، يدرسها بهدوء وبعيداً عن أي شيء يقطع حبال أفكاره أو يشتتها، أسرع بالدخول إلى الحمام، يعشق الاستحمام بالماء الساخن لحد ما، يعشق أن يغلف جسده بالبخار، يطيل بحمامه، أحيانا يداعب المياه، يمد كفيه يملئهما ماءً ويقذف وجهه به، ربما يرفع عقيرته بالغناء، وربما يضحك بصوت عال، الضحكة تصل إلى مسامع الزوجة، التي تبتسم وتضرب كفا بكف، متمتمة، ستظل دوما طفلا كبيرا ! هو بالبيت يخلع كل ثياب الجدية المتناهية التي يرتديها خارج جدران البيت، للبيت طقوسه الخاصة، خرج منتشيا مرتديا البرنس، أسرع بالدخول إلى حجرته، هو يخشى جدا الإصابة بنوبة برد، ألقى بنفسه على ألفراش، تدثر بغطاء خفيف، لحظات وذهب بسبات عميق، تقف على باب الحجرة تبتسم، كم أنت رقيق أيها الزوج الرائع!

بعد ما يقرب من ساعتين استيقظ، أخذ ينشط جسده ببعض الحركات الرياضية، قفز بنفسه وأسرع للاغتسال وصلاة ما فاته من صلوات أثناء نومه، أقبل على زوجته التي تجلس بالشرفة،

تمسك بكتاب، هي عاشقة للقراءة تبحث دائما عن الرواية، تعشق كتابات جيل الستينيات، هذا الجيل الذي كان له دور بارز في الثقافة المصرية والعربية، تهوى قراءة كل كتابات (إحسان عبد القدوس) هذا الكاتب الذي كتب عن المرأة واستطاع كشف أغوارها بشكل كبير، (ويوسف السباعي ، وإدريس ومحفوظ) وغيرهم ممن ينتمون إلى هذا الجيل، الجيل الذي مازال حيا في عقول وضمائر الأجيال التي عاصرتهم وما بعدها بعدة أجيال، كانوا يكتبون الصدق ويكتبون الواقع لأنفسهم وللقراء ما يخاطب عقولهم وأحاسيسهم، لم تنتبه لدخوله، مرر يده على شعرها، مال عليها وقبل الرأس، ابتسمت له ونهضت قائلة:

* أعد لك العشاء نتناوله سويا، أنا أنتظرك دوما، أقل من عشر دقائق يكون العشاء جاهزا.

الدقائق مرت وهو شارد في أحداث اليوم، هو يحب مراجعة أيامه، يحب أن يعرف كيف كانت خطواته، يصحح بعضا من أمور يرى أنه عالجها بشيء من العجلة، مراجعة النفس ضرورة حتى لا يتمادى في السير بطريق كله متعرجات، أفاق من شروده على الصوت يناديه للحضور، دخل إلى حيث مائدة الطعام، أصابه الذهول، الطعام يحيط به أضواء شموع متناثرة، إضاءات خافته، موسيقا أغنية،(ألف ليلة وليلة) تصدح من الكاسيت، علت البسمات قسماته، أمسك بيدها أجلسها، نظر إليها، حدثها بصوت هادئ.

* كل يوم يمر يؤكد لي أن الله كافأني بك، ما من يوم يمر إلا وتشعرينني بأن كل شيء متجدد، ربت على يدها وبدأ بتناول الطعام وهما يتبادلان النظرات والبسمات ذات الرسائل، انتهيا سبقها إلى الشرفة، لحظات وأقبلت عليه تحمل مشروبات، جلست مواجهة له، سألها.

* هل تحدث إليك الأولاد والأحفاد اليوم؟

أجابته بالنفي، طالبها أن تأتي بجهاز (اللابتوب) ليتصلا بهما واحدا بعد الآخر صوتا وصورة، الاثنان بباريس ، توأم الفارق بينهما دقائق، على الرغم من أنهما توأم وكما يقولون: إن التوائم يتشابه بالكثير من الصفات المشتركة، إلا (إسلام وطارق) البون شاسع بينهم، قد يتشابهان في الكثير من الملامح، إلا أن الطباع مختلفة تماما، (إسلام) عملي جدا منغمس بأبحاثه ودراساته التي لا تنتهي، يكاد طول الوقت يتحدث لغة واحدة، لغة العلم حتى أن زوجته شكت يوما لأمه أنه ممكن أن يقطع حميمته حين يتذكر أو يطرأ بخاطره فكرة علمية جديدة!، حتى مشاعره مغلفة أو لنقل مغموسة بلغة العلم الجامدة كثيرا.

لا يفكر إلا بخطوات علمه, وبعدها تتساوى عنده كل الأمور, والآخر منفتح على الحياة، ولكن بشكل متوازن، مرتب لكل أمر حقه من الاهتمام، لا يطغى أمرا على آخر، هما مثال حي لتغيير مفهوم أن التوائم تتشابه بكل شيء، أتت باللابتوب قائلة:

* لنبدأ بالأكبر.

داعبت أصابعها الجهاز، لحظات وقامت بفتح اتصال صوتي ومرئي مع الأبن، جملتها الأولى المعتادة.

* قبل أي شيء أتكلم مع حبيبتي (هنا، جنا، والعكروت الصغير (مهند) هم لهم الأولوية، أنتم أخذتم حقكم، وهم لهم حقهم.

وتعلو ضحكاتها وهي تتحدث مع الصغار، تداعبهم بالإشارات وترسل القبلات، الصغار يبادلنها نفس الحال، له حظ قليل من الحديث معهم، هي تستولي على كل الوقت، ومثلما فعلت مع الابن الأول والأكبر تنتقل إلى الآخر، وأولاده (مازن، زياد, ناهد الصغيرة), تحكي لهم كل تفصيلات الأيام الماضية، لا تنسى شاردة ولا واردة، تطمئن عليهم وتدعو لهم، تودعهم ملوّحة بيديها، دامعة العينين، بل ربما تجهش بالبكاء، لا يجد بُدا من إبداء الدهشة والربت عليها، أخذ وقتا لتهدئتها بعد التواصل مع الأبناء والأحفاد، تظل لدقائق متأثرة بهذا، أخرجها مما هي عليه بتذكيرها بموقف صادفه ببداية حياتهم الزوجية، عندما أتت (منال) ابنة أحد أخوالها ثالث يوم الزفاف، كانت بعمر العاشرة، رفضت كل محاولات أبيها وأمها وإخوتها بالمغادرة، أخذت تبكي وترفس الأرض بقدميها، وفشلت كل المحاولات معها، حاولت الأم ضربها، وقفت هي حائلا بين هذا، وأصرت على تركها لديهم هذه الليلة، ونامت بأحضانها ونام هو بالصالة، ضحكا كثيرا وهما يتذكران هذا، داعبها باليوم التالي هامسا لها:

* من أولها هروب، الحساب يجمع.

ظلت دوما تداعبه بهذا حتى أن (منال) للآن تخجل حين زياراتهم على الرغم من اقترابها من الأربعين من العمر، وعلى الرغم من أن أولادها صاروا أطول قامة منها، كلما رأي أنها مقبلة على فقرة شجن وبكاء وتقلب قسمات الوجه يذكرها به فيعود صفاء ملامحها وتعود إشراقة وجهها، جلس يحكي لها عن (لوكا) و (عبد الله التحيوي), كانا قُرناء بداياته الحياتية، أطلق عليهم أهل القرية مسمى (ثلاثي أضواء القرية) إسوة بفرقة (ثلاثي أضواء المسرح)، كانوا لا يفترقون إلا عند النوم وأحيانا كانوا ينامون عند أحدهم، حتى أنهم اتفقوا على توحيد ملابسهم وأحذيتهم، كانت مشاغباتهم لطيفة، كانوا يفعلون بعض الأشياء الصغيرة نوعا من المشاكسات، ولكن بأسلوب لا يجعلهم يتعرضون للعقاب أو التوبيخ، فأهاليهم أناس لهم قيمة ولا يقبلون التعرض لأي إهانات لفظية أو جسدية لأي من أولادهم، كانت مشاغباتهم تثير الضحكات والمرح، مثل طرق بعض الأبواب والنوافذ طرقا شديداً والهرولة عدوا بعيدا، مثل خطف طواقي من على رؤوس بعض الشباب، مثل القفز ببعض الحدائق وتناول ثمارها بكل نهم ثم القيام بكتابة اسم صاحب الحديقة بقشور ما تناولونه، أشياء كثيرة من هذا القبيل، حتى باللعب يكونون ضمن فريق واحد، سمعت عن (عبد الله التحيوي) من خلال مكالماته الهاتفية التي كان لها موعد محدد، الخميس الأخير من كل شهر عند العاشرة مساء، يتحدث ما لا يقل عن عشر دقائق، خلالها تعلو الضحكات، يتلون وجه زوجها بكل ألوان السعادة، تتورد وجنتاه وتتلون باللون القرمزي، أما (لوكا) سمعت عنه مرات لا تعد على أصابع اليد الواحدة، بهذه الليلة جلس يحكي لها بعض الملامح عنه، كان ابنا وحيدا (لديموس إنطونياس)، رجل يوناني حسبما سمع من الحكي عنه، أنه أتى القرية بصحبه أحد أبنائها كان يعمل معه بالإسكندرية اسمه (محمود القفاص)، كان حينها شابا يافعا تجاوز الثلاثين بسنوات قليلة، كان وحيدا أكثرى شقة صغيرة بها حجرة لها باب على الشارع بأحد بيوتات القرية، جعل منه محلا للبقالة التي تناسب مجتمع القرية، الشاي والسكر والصابون والكيروسين وبعض صنوف البقوليات، والسجائر و(المعسل) وبعض أصناف حلوى الأطفال، لم يعرف أحدا السبب لمجيئه، ولماذا اختار هذه القرية، إلا بعد

سنوات طوال من تواجده بها، عندما كان جالسا بين مجموعة من القرية، صارت بهم ألفة وصداقة يُشهد لها، حكى أنه كان زوجا لامرأة يونانية أيضاً، تزوجها عن حب، عاشا سويا ست سنوات كلها فوق مستوى السعادة، لم ينجب منها ولم ينغص هذا عليه حياته، كان لا يتصور أبدا أن يأتي يوم ويجد نفسه دونها، على الرغم من كل السعادة التي عاشها، إلا أنه على فترات كان صدره ينقبض، يشعر بغصة بحلقه، فسرها ربما خشية أن يفقد هذه السعادة، الآنسان بطبعه حتى بلحظات سعادته لابد وأن يقرنها بخوف، ولكن ما كان يشعره حدث، ذات صباح صحا مندهشا فهو اعتاد على أنها من توقظه بمداعبة رقيقة من يديها, وجدها نائمة بجواره أو هكذا خيل إليه، وجهها غايه بالبهاء، ترتسم عليها إشراقة شمس، أخذ يربت عليها بحنو ويناديها بصوت خافت، الملائكة لا تصحو بضجيج، مرات ومرات يناديها لا حراك, يهزها هزات لا جدوى، أيقن أنها ودعت الحياة، أخذ يصرخ بهستريا ويلطم وجهه، فتح الباب وأخذ يبكي ويصرخ، خرج الجيران من شققهم، لم يجب على تساؤلاتهم، اكتفى بالإشارة إلى الداخل، أسرعت النساء إليها تيقن من وفاتها، الرجال ساعدوه بمراسم الدفن من إجراءات ومستندات، بعدها رفض دخول شقته مرددا:

* كيف أعيش بها بعد الآن؟، لا أستطيع، أكثر من ليلة وهو جالس أمام بابها، ينام على هذه الحال، (محمود القفاص) صديقه المقرب افتقده وطال غيابه أسبوعا بلا معرفة سبب، في النهاية قرر الذهاب إليه، وجده على حال يرثى لها، وجه شديد الشحوب، الوجه غارت وجنتاه وبرزت عظامه، سمع القصة من بعض الجيران، فهو يرفض الكلام، مكتفياً بالبكاء والصراخ، ضمه بصدره أخذ بالربت عليه، وترديد بعض آيات القرآن الكريم, ليس مهما أنها لا تخص دينه، القرآن الكريم طبيب كل الأديان، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وكذلك بالأديان، استطاع بعد وقت تهدئته، جره مع أحد الجيران إلى الشقة، ذهبوا به إلى الحمام ، وهو بحالة شجن شديد، طلب (محمود) من الجيران أن يتركوه له وشكرهم، أدخله الحمام، قام بنزع ثيابه، فتح المياه على أقصى سعتها عليه باردة، كان يجهش بالبكاء تحت الماء ويرتجف، أخرجه وأتى بما استطاع أن يحضره من ملابس من دولابه، ألبسه كان يفعل وكأن (ديموس)ابن له، أدخله الفراش وألقى عليه بأغطية صوفية، الجو كان ببدايات الشتاء، عاود قراءة القرآن، يمرر يده على جبينه، حتى راح بسبات عميق، ذهب من فوره إلى الخروج لإحضار طعام ومشروبات لهما، من الواضح أنه لم يأكل منذ أيام، جلس بجواره حزين ملامح الأسى المرتسمة خطوطاً غائرة بملامح صديقه، لم يرد أن يوقظه، النوم رحلة لتذكر أشياء والهروب من أشياء أخرى، طال نومه لساعات، استيقظ يتجول بعينيه بأرجاء الغرفة، حاول النهوض والبكاء، أخذه بصدره يدعوه للهدوء، بعد جهد أوقفه وأخذ بيده ليغسل النعاس عن وجهه، أجلسه على مائدة الطعام الصغيرة، فتح لفافات الطعام، أبي كثيرا، أخذ يطعمه بيده، تناولا أكواب الشاي، أخذ يحدثه أن ما حدث أمر حتمي، لكل إنسان ساعته، وأن عليه أن يتقبل قدر الله، فلا نملك من أنفسنا شيئا، كان يستمع إليه والدموع تغسل وجهه، بعد جهد قال (ديموس):

* لا اعترض ولا أنكر قدريات الله، ولكنه الفراق المباغت بلا مقدمات، لا مرض ولا توجعات، الفجائيات مؤلمة للغاية بل قاتلة، أنا لا أصدق ما حدث، كيف أعيش من غيرها، كل شيء هنا وبكل الشوارع سوف يذكرني بها، لا تستغرب إن كنت أفكر بالمغادرة، لا أعرف إلى أين؟ ربما أفكر بالعودة إلى اليونان، بلدي التي لم أعرفها مطلقا، هنا ولدت وتربيت وعشت، وربما أغادر لمكان آخر بعيد، لا أعرف أين يكون؟، وعاود الشرود، هو حي وليس حي، طرأت الفكرة فجأة

برأس (محمود) ليسافرا معا إلى قريته لبضعة أيام، يخرجه من هذا الجو المأساوي، وبعدها لتكن مشيئة الله، أخذ وقتا لإقناعه ولكنه بالنهاية وافقه، اتفقا على الذهاب باليوم التالي بعد أخذ إجازة من عملهم بشركة الشحن والتفريغ التي يعملان بها داخل الميناء، صاحب العمل كان إنسانا يقدر العاملين لديه، وافق ومنحه مبلغا ماليا يساعدهم في أيامهم القادمة، ذهبا إلى القرية، أقام معه أياما، كان يتجول معه بالقرية، بحقولها، بشوارعها، يذهب به إلى مجالس السمر مع الأصدقاء، لا يتكلم مجرد مستمع، عادت له بعض الحيوية، وعاد جسده إلى شكله الطبيعي، كان متوسط القامة، متناسقا, وصاحب بشرة شديدة البياض الممتلئة دموية أو كما يقولون بالأرياف (وجهه يبك دما) كناية عن شدة دموية الوجه، انتهت أيام الإجازة، فوجئ (محمود) به يطلب منه أن يدبر له إقامة دائمة، هو ارتاح للقرية وأهلها، لا يريد العودة للعمل وللعيش بالإسكندرية، أخبره أن لديه بعض المال ويود أن يقيم عملا تجاريا هنا، تناقشا حول النشاط، توافقا على بقالة تناسب احتياجات القرية، على الفور أسرع باستئجار منزل صغير به حجرتان إحداهما تطل على الشارع الرئيسي تصلح لمشروعه، وحجرة داخلية لنومه وما يلزم من أمور المعيشة، دبرا كل ما يلزم من صنوف البقالة، وأرجأ بعضها لحين عودته من إسكندرية لتسوية بعض المتعلقات، عادا إلى الإسكندرية، ذهب إلى صاحب العقار الذي يقطن إحدى شققه، أعطاه إيجار شهرين واعدا إياه أن يرسل الإيجار قبل موعده، أصر على عدم تركها، فهي مرتع حياته على مدار عقود، ولد بها وعاش مع أبيه وأمه وأخته (ماريكا) التي ما إن بلغت العشرين حتى أخذت قرارا بالعودة إلى اليونان حيث أعمامها وأخوالها، وبعد عودتها بأقل من عام، جاءت رسالة تخبرهم أنها تزوجت من صديق لها عرفته، ومن لحظتها كانت تكتفي بالرسائل وبعض الصور لها ولزوجها وأولادها، وبعد سنوات انقطعت أخبارها تماما، حاول الأب معرفة ماذا حدث لها من خلال أقاربه ولكن جاءت الإجابة موحدة من الجميع، لقد غادرت اليونان دون أن تخبر أحدا ولم يعرفوا إلى أين ذهبت، وطال غيابها حتى مات الأب وتلته الأم دون معرفة أين مستقر ابنتهم، حتى أنها لم تحضر جنازتي الأب والأم، وربما لا تعرف أنهم ماتوا، عاش كل عمره هنا، وتزوج بها، الشقة بالنسبة له ليست سكنا يأوي إليه ويعيش فيها، هي مخزون ذكريات، والآنسان بلا ذكريات هو بلا هوية ولا انتماء ولا وطن، يكون عاريا تماما كمن ولدته أمه، الذكريات رداء لابد للإنسان أن يكون شديد الحرص على دوام وجوده فوق كاهلة طوال العمر، فتح خزائن الذكريات بشقيها السعيد والمؤلم لابد من حين لآخر أن نزيل المزاج عنها لإعادة فلترة دواخلنا، عاد مهرولا إلى القرية، زاول عمله، بأيام قليلة كان قد نال محبة الجميع بوده وببشاشته ووجهه الباسم دوما، ولكنته الجميلة التي كان يمزج العربية باليونانية، تخرج جمله تحمل مرحا يزيد من مساحات الوصل بينه وبين أهل القرية، نظر إلى ساعته وجد أن الوقت قد ذهب بهما بعيداً دون أن يشعرا، نهض مادا يديه ينهضه معه، هانيا.

* لو أخذنا بالحديث عن الأمس والذكريات والشخوص لن ننتهي أبدا، دعي بعضه لقادم الأيام.

حاولت كثيراً أن تجعله يكمل ما كانوا بل حكيه، لكنه أصر على أن النوم يطبق على جفونه، ولا أحد يستطيع التصديي لنداءاته.

..جاء (حسين) ومعه ابنته باليوم المحدد لاستلام تقرير الطب الشرعي، سبق حضوره المهاتفة ليكون هو بالانتظار هو والمحامي، بالساعة المحددة التقيا، أخذا مكانيهما انتظارا لحلول موعد حصولهم على التقرير، الخوف مرتسم على قسمات (ثريا), الكثير من أمورها الحياتية متوقف على هذا التقرير، قدماها تطرق الأرض دقات متتالية وبإيقاع واحد, الأب يجلس متململا واضعا رأسه بين كفيه، صدره يعلو ويهبط بصوت يكاد يسمع، هو والمحامي أخذا جانبا يتحدثان همسا بأمور خارج سياق الأمر المنتظر، هربا من التوتر المحيط والمخيم على كل الأجواء، كل الحاضرين بذات ملامح القلق والتوتر، نودي على اسمها، تم السماح لها بالدخول وحدها، زادت مساحات التوتر على محياها، نظرت للجميع نظرة تحمل معاني كثيرة أبرزها الخوف من المجهول، الخطوات متثاقلة، تكاد تتهاوى إعياءً، أسرعت الطبيبة مساعدتها إلى معاونتها وإجلاسها على أحد المقاعد، أتوا إليها بكوب من الليمون للتهدئة، هم اعتادوا هذا، تمر عليهم حالات كثيرة على هذه الشاكلة وغيرها، أتوا إليها بالتقرير، قرأته الطبيبة عليها، أتى بالتقرير أن لا أحد اقترب منها مطلقا وأنها كاملة العذرية وأن غشاء البكارة لم يتعرض لأي من محاولات للإيلاج، تغير حالها من اليسار إلى اليمين، نهدت عنها تنهيدة عميقة مع شهقة، عادت الدماء الساخنة إلى وجنتيها، ألقت بنفسها بين أحضان الطبيبة، أخذت تتنقل بين أحضان الطاقم الطبي بلا تمييز بين رجل أو سيدة، ثم خرت ساجدة إلى الأرض تقبلها، رفعت يدها إلى أعلى، صرخت بفرح عارم.

* أشكرك يا رب أحمدك يا رب دوما أنت أعلم بعبادك.

أخذت تبتهل ويعلو صوتها بالدعاء لفترة،

ثم تعالت ضحكاتها الهستيرية، وصلت إلى مسامع المتواجدين بالخارج، أخذوا يتعانقون يتبادلون القبلات، خرجت من الغرفة أخرى ليست هي التي دخلت، أخذها الأب بين أحضانه ، أخذ يقبلها بحنو، تبادلا دموع الفرحة، أحاطا الأب والعم بها من الجانبين، أخذا الطريق نحو المغادرة، عند مدخل البناية التي يوجد بها المقر تصافحا مع المحامي، أسرع (حسين) منتحيا بالمحامي جانبا، أخرج مظروفا من جيبه، مد يده به إليه، رفض المحامي قائلا.

* حسابي وصلني وبزيادة من الأستاذ (رضوان) وأدار ظهره ملوحا لهم بالوداع، حاول المغادرة هو وابنته للعودة إلى بلدتهم، رفض تماما السماع لهذا الأمر قائلا:

* لابد لنا من الاحتفال بابنتنا، الحمد الله أظهر حقها لتظل مرفوعة الرأس، نذهب للبيت نستريح قليلا ونخرج قبيل المغرب لرحلة نيلية جميلة نخرج بها من الآلام التي عشناها بالأيام الماضية

انصاعا له بعد إصراره، هي تسير بينهم بخطوات وثابة تكاد ترقص بخطواتها، تشعر أن الحياة عادت إليها مرة أخرى وأنها ولدت من جديد ، استقبلتهم أفضل استقبال، جلسا بالشرفة المتسعة المليئة زهورا وأقفاصا لطيور الزينة، أخذت (ثريا) معها إلى المطبخ لإعداد الطعام، حاورتها حول هواياتها، حول طقوس يومها، الحوار التفاف للخروج من ألمها والحوار يمتد بين كل الأطراف عن البلدة وما طرأ عليها من تغيرات، وعن ناسها وحكايات من هنا وهناك، هي أيضا كان هدفها إبعادها عن التفكير بالأحداث الماضية، دعتهم للطعام، تناوله بين تذكر مواقف من زمن مر، وبين نقاشات حول أمور حياتية، انتبهوا وأخذوا أماكنهم بالشرفة البانورامية التي تطل

على أكثر من شارع، الزوجة لها شغف ينهشها لسماع باقي حكاية (لوكا), نبشت الأمر بسؤال مفاجئ وجه إلى (حسين).

* هل كنت صديقا لمجموعة (رضوان) مثل (لوكا وعبد الله التحيوي)؟.

انتابت (رضوان) حالة من الضحك الصاخب والمتواصل، التقط أنفاسه، حدثنا.

* يعجبني ذكاؤك المتقد، تعرفين بطرق مختلفة الوصول لما ترغبين، أجيبك أنا حتى يهدأ داخلك القلق.

* بداية (حسين) كان رفيقا لنا ولكن وليس بشكل دائم، يرافقنا حال الموقف يكون مناسبا له، كنا نطلق عليه ثلاثتنا (الحكيم) فهو للأمانة لم يكن صاحب طيش أو نزوات أو أي شطط من أي نوع، وعندما كان يجد أننا بصدد فعل خارج نطاق المألوف يولي الأدبار والفرار، وقد يستمر فراره أياماً، وربما إن لمحنا على البعد، يختار طريقا آخر لا يصادفنا به, من يومه وهو هكذا.

تعالت ضحكاتهم، نظر إلى (ثريا) سائلا:

* هل تغير أبوك عما قلت؟. لا أظن.

* فعلا يا عمي كما قلت: أبي دوما شديد الهدوء، حتى لو صادفه أمر شديد الصعوبة، هادئ، يعتزل كل شيء لوقت ويعود إلينا بحل يحل الأمر بمنتهى السهولة.

* أنت لخصت شخصية أبيك تماماً.

والتفت إلى زوجته.

* حتى أزيدك شغفا لن أتكلم إلا بعد قيامك بإحضار صينية البسبوسة التي أعرف قيامك بصنعها فور علمك بحضورهم، بعدها أروى ظمئك.

وأردف حديثه بضحكة مجلجلة شقت سكون القول، نهضت ضاحكة.

* رشوة يعني، حاضر من عيوني.

جلسوا يتناولون أطراف الحديث المتشعب حول أمور عديدة خاصة وعامة، هي تجلس متململة تنتظر أن يبدأ بالحكي، هو يتعمد زيادة شغفها, وعندما وجد أن مساحات التململ قد زادت على كاملها تكلم.

* على مدار الأيام كان (ديموس) يزداد قربا من الجميع, ينتهي من عمله، يغلق محله نصف إغلاق ربنا يأتي بمن يحتاج شيء، يجلس على مصطبة اسمنتية قام ببنائها ليجلس هو ومن أصبح صديقا مقربا، كان الأصدقاء بحالة ازدياد كبيرة، يجلس بينهم يحكى عن حياته وذكرياته, بلغته التي تحمل اللغتين معا، الجميع يجلس بحالة إنصات تام، العيون مفتوحة على كامل سعتها وأيضا الأفواه، صار يحكي لهم عن أعياد واحتفالات اليونان، على الرغم من أنه لم يعش بها، كان يحكى عن ما سمع من أسرته, يحكي عن المأكولات والمخبوزات اليونانية, مما دعا بعضهم إلى أن يطلبوا منه أن يقوم بتعليم بعض نسائهم صنوفا من الطعام، فهناك ملل من

نوعيات ظلوا طول العمر يتناولونها، قام بهذا تحت أنظار الأزواج، راجت تجارته حتى تحول إلى مركز توزيع, اتفق مع بعض الرجال من عدد من القرى المجاورة عرف عنهم أنهم يجوبون البلاد لبيع بضاعة مختلفة, بعد صلاة الفجر تجد ركائب كل منها تحمل صندوقين من الخشب على جانبي الحمار أو البغل أو المهر الصغير، يقفون طأبور، يمد كل منهم بالبضاعة، من سكر وزيت ودقيق وبقوليات وسجائر و(معسل) وبعض صنوف الأدخنة والمشروبات والحلوى، وصنوف بقالية أخرى، فيما بعد أتى بالأقمشة ولعب الأطفال، كل يوم يمر يزداد عدد موزعيه، يعودون آخر اليوم كل منهم يعطيه قيمة ما تم بيعه، يراجع معهم كل شيء، كان بارعا باللغة الحسابية, يعطي كلا منهم نصيبة من العمولة ويزيد قليلا للتحفيز، صار حديث الجميع، يتساءلون متى يجد وقتا للنوم، ولا يجدون إجابة، بنهايات كل شهر، كان يسافر ليوم أو يومين الإسكندرية، أول ما تطأ قدماه الإسكندرية يذهب على الفور إلى حيث مقبرة زوجته، يضع باقات الورد المتنوع الألوان على قبرها، كانت تعشق الورود، كانت تزين كل الشقة بها، تقول دوما: الزهور رؤيتها تزيح الكثير من أي هم بالصدور تجعلك مقبلا على الحياة، يبكي بكاء حارا كأنها ماتت من لحظات، يظل على هذا الحال لوقت طويل, يغادر متثاقل القدمين، يسير بكل الشوارع التي تجولا بها سويا، يتخيل كل لحظة، كل كلمة, كل لفتة، كل بسمه أو ضحكة، الدموع ترافق مخيلته، يتوقف قليلا أمام مدخل البيت، يتأمله من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، يصعد الدرج بهدوء تام، متخيلا أنها تصعد معه، كان يهدأ من خطوته لأجلها، لولا خجله حينها لكان صعد بها محمولة على ذراعيه، يفتح الشقة، يتوقف قليلا يستقبل رائحتها بصدره، يتجول بالشقة زاوية زاوية، يعود إلى الصالة التي تزين جدرانها العديد من الصور، كل صورة تحمل ذكرى وموقفا، يحضر الشموع من أحد أدراج المطبخ، يحتفظ بعدد كبير منها، كانت تعشق الشموع الملونة, يضيء بعضها على شكل دائرة، يطفئ كل الآنوار، يجثو على ركبتيه، يركز عينيه على صورتهما يوم زفافهما، يأخذ بمناجاتها.

* لماذا غادرتني دون سابق إعلان؟ ذهبتي وتركت لي آلاما لا تبارحني، وغربة باردة تغلفني.

يجهش بالبكاء الشديد وبصوت مسموع، الدموع تغسل محيط وجهه وتتساقط على صدره، فجأة يجد نفسه أسيراً للنوم، ينام حيث يجلس، يمر الوقت يطول أو يقصر، يستيقظ مندهشا لنومه على هذا الوضع، يغتسل يعدل من ملابسه، يعيد المرور على الصور، يمرر يده على كل صورة، يصله الإحساس أنه يلمس الشخوص بشحمهم ولحمهم، يشعر كأنهم يتحدثون معه، يبادلونه الشوق، يغادر مرتديا حللا جديدة متناقضة بين الحزن والفرح، يمر على صاحب البيت يمنحه الإيجار لشهر أو شهور، يمر على بعض أصدقائه وما تبقى من عائلته، يجلس معهم يجترّ معهم ذكريات ومواقف تجمع بين كل مواقف الحياة، قد يبيت ليوم إن وجد أن هناك أمورا لم ينتهي منها، يعود تحكى قسماته كل ما مر به أثناء غيابه، توسعت تجارته وأتى بصنوف عديدة من البضائع، وجد أن المكان لم يعد يليق بتوسعاته، اشترى قطعة أرض كبيرة تطل على أكثر من اتجاه، شرع ببناء منزل كبير على شكل سرايا كبيرة تحيط بها الأشجار من كل جانب وبشكل مغاير للنظام السائد بهذه الزمن لسرايات مشابهة لكبار رجالات القرية، ومخازن تتسع لتجارته، استأثر بتجارة القطن، أنشأ مثل بورصة صغيرة، يجمع القطن من القرية وأجوارها، ثم تأتي سيارات الشركات الكبرى تحمل ما لديه وبالسعر الذي يحدده، لا يسمح بالجدال مطلقا حول أسعاره باعها قبل أن يرحل عن القرية للباشا الكبير، صاحب الأراضي المترامية الأطراف ولا

يعرف مداها أحد (حسن باشا الفراهيدي)أستاذ الجامعة صاحب الاسم الطنان بمجال تخصصه (الاقتصاد السياسي), وهذا له أيضاً حكاية، الريف دوما أرضه خصبة حبلى دوما بالحكايات، عنقود حكايات القرى ليس له نهاية، الحكايات تتولد كل لحظة وأخرى، مثلما جاء فجأة عاد فجأة بعد سنوات إلى الإسكندرية، باع كل ما يملك، كان يعيش وحيدا، يخدمه رجل اسمه (رشوان) أتى به من إحدى زياراته للإسكندرية، كان من أبناء الصعيد، قالوا حينها: إنه هارب من ثأر ينتظره، وكأن ما من أحد يترك بلده إلى بلد آخر هارب من أمر ما ، وتأتي سيدة من أبناء القرية تقوم بشؤون المنزل من تنظيف وطعام وغيرها من أمور، قبل كل هذا كانت هناك فترة غاب لأسبوع كامل، وعاد بصحبة سيدة غاية بالجمال، أعلن أنها زوجته، وهي التي منحته ابنه الوحيد (لوكا), الذي كان رفيقا لي حتى عمر حوالي الخامسة عشرة، بعدها سافر مع أبيه اسمع عنهما بعض الأخبار الصغيرة، فيما بعد التقينا صدفة بالكلية التي ضمتنا، عادت بينا أواصر الصلة، كان يأتي إليّ بالقرية، واذهب أنا إلى (فيلتهم) الكبيرة، كان أبوه قد نالت منه الشيخوخة، وترك أعماله تدار من رجل يمت إليه بقرابة ويثق به ويتابع بين الحين والآخر أعماله ، مع تحفيز (لوكا) بالمتابعة والتعلم، انتهت سنوات دراستنا، وعاد الفراق بيننا للمهاتفات القليلة ومراسلات أقل، حتى فوجئت بأن أباه أمره بتصفية كل شيء والعودة سريعاً إلى اليونان، طالبا أن يدفن هناك، لا أتذكر أنه راسلني إلا مرة أو مرتين بالبدايات وبعدها ضاع تماما عني حتى جاءني الاتصال الأول منه يخبرني بحضوره، هذا ما سمعته من أبي الذي أعجب بالرجل وكان رفيقا دائما له، هذه حكاية عائلة (لوكا), هل أشبعت فضولك؟ عندما يأتي نسمع منه البقية،الجميع أعلن أنه فعلا علم أشياء لم يعرف بها من قبل حتى (حسين) ابن القرية.

* على فكرة يا (حسين) هما سوف يتواجدان خلال الأسبوع القادم، ما رأيك أن تكون معنا؟ هو مصر على تواجدنا بفيلا (عبد الله التحيوي) بأحد شواطئ الغردقة، كلٌّ مع زوجته، فكر.

* بالتأكيد موافق، ما أحلى أن نتذكر أيامنا الماضية.

طلب السماح لهم بالمغادرة بداعي أن لديه عملا بالغد كان بحالة نسيان له، معتذرا عن مصاحبتهم بالرحلة النيلية كما اتفقا حاول كثيرا هو والزوجة إثناءه ولكنه أصر، تم إيصالهم إلى موقف سيارات الأقاليم، تم وداعهم, أوقف السيارة قريبا من النيل، ترجلا أخذا بالنظر إلى المياه السارية، المياه مثل الحياة تظل سائرة بلا نهاية, مد يده واحتوى راحة يدها ضاغطا عليها تحمل الكثير من الرسائل.

..10

.. الأيام المتبقية على حضور (لوكا)، قليلة تحتاج منه إلى التفكير بجدية ببروجرام الأيام التي تسبق ذهابهم إلى حيث فيلا (عبد الله التحيوي), هو لا يعرف متى يصل ولا ما برأسه من ترتيبات، زفر مهمسا لذاته, لنترك الأمر لحين حضوره، أخبر رؤساءه أنه سوف يحصل على إجازة تقارب العشرين يوما, بالتأكيد دهشوا غاية الدهشة، هو على مدار سنوات عمره لم يطلب إجازة إلا بأحايين قليلة، بالملمات غالبا، حالات العزاء على وجه التحديد، حاولوا الفهم ربما كان

يعاني من مشكلة طارئة يعاونونه في الوصول لحلول لهم، طمأنهم بأن الأمر لا أكثر من حاجته لبعض الاستجمام مع زوجته، حاولوا تقليل الفترة بداعي العمل لا يسير إلا بوجوده, أقنعهم بأن الأيام ما أسرع مرورها! وهناك الكثيرون من الأكفاء يستطيعون القيام بهذا وأكثر، سارت الأيام التالية على ذات الوتيرة المعتادة، حتى أتاه رنين الهاتف بذات الرقم الدولي، استقبل المكالمة بالتحايا والسؤال المعتاد بين كل البشر بالسؤال عن الأحوال والصحة، أخبره أنه سيستقل الطائرة من مطار أثينا غدا بالحادية عشرة عند الظهيرة، تصل بمشيئة الله بحدود ما بين الرابعة عصرا أو بعدها بقليل على حسب ظروف الطيران، كان قد توصل لشيء مبدئي أن الأيام الأولى يقضيها معه بشقته، وبعد ذلك يكون النقاش حول كيف يكون البروجرام؟ بالتوقيت المحدد كان متواجداً بصحبة زوجته، لوجود زوجة (لوكا) معه، وقفا بصالة الانتظار بعد إعلان الإذاعة الداخلية عن وصول الطائرة القادمة من أثينا، حائرا هل يعرفه من أول وهله، لابد أن تغيرات كثيرة قد طرأت عليه، أكثر من خمسة وثلاثين عاما لم يره، لابد أن الزمن قد بدل به مثلما يبدل بكل البشر، يشرأب ناظرا موجها بصره ناحية بوابة الخروج، يتأمل سحنات كل الخارجين باحثا عنه، فجأة ندت عنه: أهه، لقد لمحه، يا الله يكاد يكون كما تركه آخر لقاء معه، مازال فارع الطول ، ممشوقا دون انحناء، منتصب القامة لا وجود لشبهه انحناءً بقامته، مازالت طريقته بالسير كما هي، يمشي واثق الخطوة ملكا، تسمع خطواته لها رنين معين، كلما اقترب كلما زادت دهشته، الوجه المستدير المتورد دائما، الشعر الأسود الفاحم، منسدل على جبينه، لم تعرف الشعيرات البيضاء سبيلا إليه، أصبح على مقربة منه، صرخ باللغة التي تجمع بين العربية المتكسرة أحرفها وبين اللغة اليونانية المطعمة ببعض الكلمات الآنجليزية، إنه أشبه بدولة كمبوزولتيه، فاتحا ذراعيه على سعتهما.

يا الله يا حبيبي، كم أشتاق لك! صدقني حبيبي لم أنسك لحظة، طمئنيني عليك.

أخذ (رضوان) يفرك عينيه دهشه، ما يراه هو (لوكا) الذي غادر من عقود، مازال بريق عينيه حادا، مازالت رنة المرح بصوته، هل الزمن ضل الطريق إليه؟ فلماذا يا زمن الفرقة تصر على مرافقتنا, حتى الزمن يفرق بين الشرق والغرب، أفاق على تلويح يده أمام عينيه يصيح به.

* مازلت كما تركتك كلما أصبت بالدهشة يصيبك الشرود التام، والله والله أنا (لوكا) بشحمه ودمه، ويؤكد لك هذا الزوجة الجميلة التي جعلتني أنسى وجودها(كريستينا), سألها ألست أنا (لوكا)؟ أخبريهم، وأطلق ذات الضحكة الطويلة المموطة التي كانت تسمع على مسافة كيلو متر كما كانوا يقولون.

ألقى كل منهما بأحضان الآخر، غاصا داخل بعضهم، تشبث كل منهما بالآخر, تبادلا الكثير من القبلات التي وزعت بعدالة على الوجنتين والرأس، انتبها أن هناك سيدتين مرافقتين لهما، استدار وبحركة تمثيلية أحنى الرأس.

* آسف لكما، لي العذر فهذا الرجل أعانني زمنا عاش بداخلي ولم يغادرني، هذه بلد شهدت ميلادي، وأظنها أيضاً مستقري الأخير.

عرفه على زوجته (ناهد) مثلما تم تعريفه إلى (كريستينا), أخذا الطريق نحو السيارة وبأعقابهم عامل يدفع عربة حمل الشنط والمتعلقات الأخرى، سارا كل منهما واضعا يده على كتف الآخر،

ركبا السيارة طلب منه السير على مهل يريد أن يرى الطرق والبنايات والشوارع والناس على مهل، كل هذه تمنحك عنوانا بارزا عن التحولات التي نالت من الكل بفعل الزمن، وسرعة هبات الريح التي تنادي بالتغيير, هذه الرياح هي نداهة متطورة مجالها المغناطيسي شديد الفاعلية, كان يسير الهوينا لم يغادر السير بالحارة اليمنى من الطريق، كان مثل صغير يضع عينيه على الزجاج، يتأمل بعمق، تندو عنه بين الحين والآخر اهه أو تمتمة، كان يسأل باستمرار.

* كيف حدث هذا، ما هذا التغير والعمران الكبير؟ أتذكر يوم سفري، كانت كل الطريق صحراء، صخورا ورمالا، لا ترى أي معالم العمران إلا على بعد مسافات طويلة، الزمن أشبه بفتيل ديناميت سريع الاشتعال يبدل الحال إلى حال آخر، طال بهم الوقت والحديث المقتضب، الزوجتان انهمكتا بالحديث باللغة الآنجليزية التي تجيدها (ناهد), هي خريجة تربية قسم اللغة الآنجليزية، وصلا إلى البيت بعد أكثر من ساعتين ونصف بدلا من الساعة، صعد كل منهما يحمل بعضا من الحقائب، بل إن حارس البناية أسرع أيضاً لحمل بعضها، فور الدخول جلسا لالتقاط الآنفاس، أسرعت لإحضار مشروب المانجو المثلج، لمح بوجه (لوكا) بعضا من الحاجة للإغفاءة، أخذه للاغتسال وسار به إلى حجرة أعدت له ولزوجته، طلب منه أن يستريح قليلا من الرحلة الطويلة، ولحين حضور الطعام، كان قد طلب وجبة من أحد المطاعم الشهيرة، أخذ يتذكر قبل طلبها ما كان يحبه، يعرف أنه مغرم بالحمام المحشو بالأرز والمكسرات، كم من مرة تناوله بسرايا الأب، يعشق اللحم المشوي على الفحم، كم من مرة كانا يسهران بالحديقة، ويقوم بشي اللحم على الفحم، كل هذا تذكره وطلبه، خلد هو أيضا للنوم، أما الزوجة فلم يواتيها النوم، اكتفت بالجلوس ممددة جسدها على كنبة (الآنتريه)، إمارات السعادة تكسو وجهها زادته بهاء، هي تكون قمة السعادة عندما تجد زوجها كل ما به يشى بالسعادة، وأن حالته المزاجية حائط صد قوي بين أي شيء يعكر صفوهما، وما شاهدته اليوم يعلن أنه قد حصل على ما قد يسعده بلا حدود، هي رأت على وجهه ما ينبئ أنه ربما عاد إلى الوراء سنوات كثيرة، قبلت يدها باطنا وظاهرا، وحمدت الله، وغفت قليلا، لم تنتبه إلا على خطوات زوجها التي تحفظها تماما، لوقع أقدامه حفيفا معينا، نهضت جالسة باسمة بوجهه، جلس بقربها ربت على يدها, طلب منها إعادة الاتصال بالمطعم لسرعة إحضار الطعام، مؤكد هم على يقظة قريبة، نهضت من فورها، غسلت وجهها من الغفوة التي أخذتها قليلا، أجرت الاتصال طلبت أن تأتي الوجبة بخلال النصف ساعة على الأكثر، أخذت توقد شموعا ملونة، توزعها بشكل هندسي على كل الأرجاء، وبعض الزهور على الأركان، أضاءت أنوارا خافتة, نثرت عطر الياسمين الذي يعشقه زوجها وهي أيضا، جاء الطعام، وضعته برؤيتها الخاصة، أشارت إلى زوجها أن يدعوهم إلى الطعام مع طرق الباب طرقات خفيفة، أتاه الرد أنهم قادمين، خرج من الحجرة وبأعقابه زوجته، فاجأ الجميع بوقوفه وسط الصالة، يجري بعض التمرينات الرياضية المنشطة للجسد، ما إن شاهده يفعل هذا حتى انتابته حالة من الضحك الهستيري، تخرج الجمل الكلامية من فمه متقطعة تحتاج لمن يجمع شتاتها ويعيد نظمها لتفهم.

* أنت كما أنت لم تتغير طقوسك، ذكرتني بها، كنت تفعلها حتى خارج نطاق بيتكم، وها أنت تفعلها ببيت تدخله للمرة الأولى.

لم يعره اهتماما حتى إنه لم يلتفت إليه وكأنه لم يسمعه، ظل على هذا الحال قرابة العشرة دقائق، انتهى سار إلى الحمام، اغتسل وعاد كأنه شاب بالعشرين، جلس مجاورا له، والزوجتان

تجاورتا يدور بينهم حديث بالآنجليزية، تتخلله بعض البسمات والضحكات، ضحك (لوكا) وهو يمد يده إلى الطعام قائلا:

* هيا إلى الطعام، لا خجل فأنتم ببيتكم, ألا يقولون هذا في مصر بكاملها؟

تشاركت ضحكاتهم، بدأوا بالتناول مع بعض الكلمات التي تثير الضحكات، عندما انتبهوا، قاموا للجلوس بالشرفة، أتت لهم بالمشروبات الساخنة، جلسوا يتبادلون الحديث عن أمس مضى ويوم يعاش, فاجأهم بسؤال:

* (رضوان) يا حبيبي، هل مازالت السرايا موجودة؟

* السرايا، هل تتخيل بعد أكثر من ثلاثين عاماً أن تظل كل الأمورعلى حالها؟ السرايا الآن مجرد سور يلتف حول أنقاضها، وأشجارها العجوز، مات الباشا الذي مازال يحكى عنه للآن حكاية زواجه، فهو على الرغم من مكانته العلمية، كان أستاذا جامعيا مرموقا، سليل أرستقراطية مخملية جدا، ظل بلا زواج حتى تجاوز الأربعين, كان يحب قضاء حوائجه بنفسه، اعتاد شراء اللحم من أشهر جزار بالناحية (فارس الطوبجي), الذائع الصيت الذي ورثه عن أبيه (سالم الطوبجى) الذي اعتزل المهنة يكتفي بالجلوس عن قرب من الأبن على أريكة هرمة تشبه شيخوخته، يتناول عشرات الأكواب من الشاي الأسود شديد القتامة قليل السكر، بين الحين والآخر يلقي بتعلماته نوعاً من الإيحاء أنه مازال يملك القرار، تجلس بجواره الأم والأخت تبيعان الكرشة و(الكوارع والممبار) وبقايا أحشاء الذبائح، الأخت (وصيفة) خلبت لبه، للحق كانت شديدة الجمال والجسد الفائر، حتى أن أهل القرية كان يتساءلون كيف جاء هذا الجمال الصارخ، صحيح الأب والأم بشبابهم كانوا يتمتعون بجمال غير مألوف بالقرى ولكنها فاقت كل جمال، الباشا بأناقته وعطره الذي يسبقه ليعلن عن قدومه يذهب كل يوم أو يومين للشراء بكميات يوزعها فيما بعد على عمال السرايا والأجراء الذين يزرعون أراضيه، طلبها للزواج غير عابئ بالفارق الاجتماعي ولا بحديث الناس، تزوجها وحجبها عن الناس تماما، حتى أهلها لم يسمح لهم بالحضور، حدد لها يوماً أسبوعياً للذهاب إليهم، يرافقها عن بعد (عباس العبد) الرجل المقرب جدا للباشا وكاتم أسراره، مجرد ساعة تعطيهم بعض ما يجود به الزوج من هبات عينية ومادية, بسبب هذه المرافقة الدائمة وكعادة أهل القرى يفسرون الأمور على حسب تفكيرهم، ودائمو البحث عن حكايات حتى لو كانت لا تحمل أي ملمح من ملامح الصدق، اتهموها أنها عشيقة (لعباس) وأن أولادها منه هو على الرغم من أن كل الملامح التي يحملونها ملامح الأب تماماً، الرجل كان مما يطلق عليهم العماليق، فارع الطول بشكل غير معتاد، البشرة الخمرية، الجسد الممتلئ بلا ترهل أو زوائد، لم يتزوج، ولكن للأمانة كان الرجل من الصنف الوفي جدا، ولم يهتم بما يقال، كان رده على من يسأله لماذا لا يرد على هذه الاقوال؟

* الرد في مثل الأمور يؤكد ما يقال، دعهم يقولون حتى يملوا من القول.

وبالفعل كانت فلسفته هذه خير رادع لهذه الادعاءات, ماتت الشائعات قبل أن تسرى بشكل يوجع، أنجبت من الباشا ولدين، كانا أطفالا عاديين يعشقون التقارب من هم بذات العمر أو أكبر أو أصغر قليلا، كبرا والتحقا بالجامعة، (صلاح) الأكبر بكلية الزراعية تنفيذا لرغبته ليلم

بشؤون أراضيهم وزراعاتهم، (كارم) بكلية الفنون الجميلة لعشقه للرسم والتصوير من صغره، سارت الأعوام هادئة إلى أن مات الباشا بلا مقدمات مرضية، بعدها من كان يريد الإشراف على أراضيهم خالف الطريق وكذلك أخوه الذي أساساً لا يهتم بأي شيء سوى حصوله على الأموال وإنفاقها على الملاهي ولعب القمار الذي أدمنه، وبدأوا ببيع الأراضي جزءًا جزءًا، أما السرايا فقد أصرت (وصيفة) على عدم التفريط بها، ولكن لم تجد الاهتمام الذي يحافظ عليها خاصة بعد وفاة (عباس العبد), زيارات الأبناء تقلصت لا يأتون إلا للحصول على الإيجارات أو بيع جزء آخر، ماتت (وصيفة) وقبل موتها أوصتهم بأن لا يفرطوا بالسرايا, حتى لو تحولت إلى مجرد أحجار متناثرة, وهذا هو حالها، هم يتمنون بيعها حتى يجتثوا جذورهم من القرية، لأن حياتهم لا ترتبط مطلقا بها, أولادهم لا يعرفون طريقا لها، هذا هو حالها الآن صور وأحجار أو قل: أطلال.

* أنا سوف أشتريها بأي ثمن، أصارحك بأمر لم نعلنه من قبل, وظل حبيسا كل هذه السنوات، أن أبي كان ألمه الكبير الذي صاحبه منذ رحل من القرية هو بيعة السرايا، قال لي أكثر من مرة، إن استطعت يوماً أن تعيدها لا تتقاعس، ندم عمري الذي أنزفه للآن هو لحظة غياب عقلي وفعلي هذا, يوم أن وقعت عقد السرايا أحسست أني بلا ستر وبكيت يومها بكاء حار، أخبرني أيضا محاولة التراجع ودفع تعويض للباشا لكنه رفض، ويبدو أنه كان يضع بين يدي أمانة ووصية حان وقت تنفيذها؛ لذا حاول الوصول إلى أرقام (صلاح وكارم) وأنا لي طريقتي في إقناعهم، سكت قليلا ثم عاود الحديث.

* رجاء لا تندهش أو تتساءل الآن، سوف أخبرك بكل شيء، ولكن الآن إن لم يكن عندك مانع أود أن نخرج ونذهب للجلوس أمام النيل، كم أفتقده، كلما كنت أتذكره كنت أرتعش كأنني محموم، وتزداد مساحات الغربة داخلي، هناك أماكن وأزمان لا نستطيع نسيانها أو التباعد عنها مهما كانت المسافات وسنوات التباعد.

لم يكن هناك بد من إجابة رغبته على الرغم من أن الوقت تجاوز العاشرة مساء.

أسرعوا بالنزول والحقيقة أنه كان يتوق لهذا أيضا، انطلقت بهم السيارة دون تحديد لمكان محدد، طرأت برأسه فكرة أن تكون سهرتهم بباخرة نيلية، وعندما عرض عليه الفكرة رفض تماما قائلا:

* أريد أن أمشى لأراه على الطبيعة، وليس من داخل ما يشبه العلبة والخندق، أريد نسيمه يدخلني مباشرة، لا تحرمني من شوقي.

وافقة، أخذوا بالسير على مهل، كل فترة يتوقف، يفتح ذراعيه على سعتهما ، يصرخ.

* للهواء هنا رونق آخر، تشعر به يضخ روحا جديدة داخلك، طفت عشرات الشواطئ بكل القارات، ولكنى ابدا لم أشعر بالدفء، كنت أشعر كأنه ضمن منظومة الأشياء المعلبة، التي بلا روح ولا طعم ولا تعطيك أي إحساس، النيل يظل حيا داخل من شاهده، وأنا كنت هذا الإنسان، الحنين يتملكني، ولكن مع الأسف أخذتني الحياة العملية, ونسيت احتياجاتي الروحية، ولكن ها أنا عدت من جديد، وأظنني لن أغادر، وطفرت دمعتان من عينيه دفعت (رضوان) إلى احتضانه بقوة والربت على ظهره مرات بشكل به بعض القوة، ليخرجه من حالة الشجن، أخذ

يده وذهب به إلى أحد باعة الترمس وأحضروا بعضا منه، عادت البسمات إلى شفاههما، طال بهما السهر حتى داعبت وجيهما قطرات ندى الفجر، السعادة الغالبة كانت من نصيب (كريستينا، فهي لم تشهد طوال عمرها مثل هذا، عادوا إلى الشقة يرتدون حلالا أخرى غير التي ذهبوا بها، ذهبوا بالنوم بشكل لم يعهدوه من قبل.

اليقظة كانت قرابة العصر، تناولوا الإفطار أو نستطيع القول: إنها وجبة ازدواجية تجمع الإفطار بالغذاء، بعد جلسة قصيرة لم تخرج عن إطار الحديث عن بعض المتغيرات، أصر على السفر على الفور إلى الإسكندرية، أخبره أنه اتفق مع شركة لإيجارات السيارات لترسل لهم سيارة من أحدث الطرازات؛ لتكون تحت إمرتهم ليومين أو ثلاثة حسب الظروف، حاول إبداء الرأي وطلب الإرجاء لوقت آخر، رفض بشدة قائلا.

* أرجوكم أنا متعطش لكل شيء، عمر طويل تسرب من يدي، أحاول الإمساك به، العمر لم يتبق به الكثير، فدعوني أتشبع بكل شيء، سئمت من العمل الذي كبلني عشرات السنين، أرجوك اشعر بي، وأقسم بالله بك ذات الحنين، لا تكابر، المكابرة تضيع منا جماليات نحتاجها، أرجوكم أنا بحاجة لهذا ، قولوا: مجنون، عندي لوثة، قولوا أي شيء، بيتنا هناك اشتقت له، لا تندهشوا، نعم مازال البيت قائما الشيء الوحيد الذي رفضت بيعه، ليربطني بإسكندرية، تركته تحت رعاية أحد أبناء جنسيتي اليونانية عجوز أصر على أن يظل بلا مغادرة، كنت أرسل له أجر رعايته وصيانته، وبعد أن مات تولى أبناؤه وأحفاده نفس الحال، وكنت أطلب منهم بين الحين والآخر إرسال صور للبيت من الداخل، أنا محتاج أمشي بكل مكان، بكل حارة وزقاق وشارع، مشتاق للأنفوشي، للسيالة، لكوم الدكة، للأزرايطة، لكوم الشقافة، لمطعم (محمد أحمد)، لأيس كريم محطة الرمل، أشتاق للجلوس على محل ديليس، أشتاق لحديقة الخالدين، أشتاق لجلسة ليلية على اللسان، أشتاق لأزقتها وحواريها وناسها البسطاء، ما كان يصبرني قليلا على غربتي هو ألبوم الصور الذي يحوي الكثير من لقطات الحياة ومراحلها، لولا خشيتي من نعتني بالجنون لقبلت كل ما بها، جدران وناس، اشتقت لكل شيء، هل أنتم متخيلون أني نسيت كل هذا، لا والله تذكري لهذه الأماكن كانت سبب تحملي، لأني كنت واثقا أني عائد، تعرف أني فكرت تأجيل حضوري للشتاء، محتاج أجري تحت المطر، إسكندرية رائعة بالشتاء، لا بكل الأوقات، كفاية كلام وهيا استعدوا، لا وقت السيارة على وصول، لم يكن أمامهم إلا الإذعان لرغبته، استقلا السيارة، سأل السائق عن أي اسطوانة بها أغنية (فيروز) شط إسكندرية، نفى، رد عليه.

* كنت أعرف الإجابة، استدار نحوهم مخبرا لهم أنها الأغنية الوحيدة كانت تتردد بمكتبه ومنزله منذ أن سمعها للمرة الأولى.

أخرج من (شنطته) الصغيرة التي يحملها بين يديه, أخرج (فلاشة)، طلب منه أن يشغلها بصفة دائمة حتى يصلوا، لا أي شيء آخر، كان يدندن مع الأغنية الفيروزية، كان بحالة نسيان لكل ما يحيط به، كل ما كان يصدر عنه كل لحظة، يا الله ما هذا الكم من التغير، ما كنت أتخيل هذا مطلقا، وصلت السيارة إلى منطقة كامب شيزار، توقفت تماماً حسبما أشار للسائق, بيت من الطراز القديم، المساحة الكبيرة، الأشجار العملاقة النادرة تلتف حول كل شيء، لا يبدو المبنى كاملا، مجرد الدور الأعلى الذي يأخذ سقفه الشكل الهرمي المزين بالقرميد الأحمر، على الرغم من كل هذه السنوات والأجواء العديدة التي مرت به صيفا وشتاء وربيعا وخريفا, مازال لونه

زاهيا كأنه تم تركيبه بالأمس لا بل من ساعات، نقر بيده نقرات تجمع بين الهدوء والصخب، لم ينتظر كثيراً، فتح الباب الكبير الذي يسمح بدخول سيارة ضخمة، فتح الباب وظهر كهل عجوز ربما تجاوز السبعين، يتكئ على عصا غليظة، يجاوره يميناً ويساراً شبان تجاوزا العشرين بسنوات قليلة، كان يلهج بكلمات متقطعة، مرحبا.

* أهلا بالغالي ابن الغالي، أحمد الرب أن رأيتك وأنا مازلت حيا، اشتقنا لك كثيرا، تفضلوا كل شيء جاهز.

أشار إلى الشابين معرفا بهما (بيدرو ، ماركو) أحفادي من (جوزيف) ابني الوحيد، سارع الشابان بإخراج الحقائب من السيارة وأخذها إلى البيت.

ساروا متجاورين، كل زوجة تتعلق بذراع زوجها، من خلفهم يسير (فابيو) الكهل الذي ظل يتابعهم بالحديث.

* كل شيء معد كما أمرت، الحمامات جاهزة، والطعام جاهز بعد وقت قليل كما أمرت، أتمني أن لا تفارقني ثانية، فأنت تذكرني بالأحبة، الله يعطيك العمر، وقفز ممسكاً بعنقه يقبله وعيون تذرف الدموع.

سارع بتعريف كل أسرة بغرفتها الخاصة، الغرف متسعة للغاية، لها أكثر من صالون, ملحق بها حمامان ، تمني لهم الوقت الطيب مثلما قال، جلس (رضوان) على حافة الفراش تجاوره زوجته, كلاهما ينظر إلى الآخر وكل علامات الدهشة وصنوفها ترتسم على قسمات وجهيهما, الأحداث تهرول وأنفاسهم تتهدج تحاول الملاحقة، (لوكا) جاء يستدعي الزمن البعيد الذي مر، ولكن لم يضع بمخيلته أن زمن الهرولات قد مضى وولى من عقود، كانت إجابة دهشتهم تبدو من عيونهم وضرب الكف بالكف بخفة، ما علينا إلا أن نحاول العدو لنرى إلى أي نهاية نصل, نهضا سويا، كل منهما أخذ ركنا بعيدا عن الآخر، لتبديل ثيابهم والذهاب إلى الحمام إزالة آثار الرحلة الطويلة من السفر عن كواهلهم، والاسترخاء قليلا, ثم انتظار القادم، بعد الحمام استلقيا على الفراش وذهبا بسبات عميق، على الطرف الآخر، لم تكن لدى (لوكا) أي رغبة بالنوم، أخذ حمامه الدافئ، وارتدى بيجامته الحريرية، يعشق هو منذ صغره الأردية الحريرية، علمته أمه هذا، جلس بالشرفة التي تلتف حول كامل البيت، وضع أمامه كوبا كبيراً من القهوة المحوجة التي لا تفارق صنوفها المتعددة ونكهتاها المختلفة رحلاته، القهوة تزيده تركيزا وحيوية، جلس على الكرسي الهزاز، كرسي أبيه الذي حرص حتى بغيابه أن يوصي به، التاريخ يجب رعايته ولا يهمل ابدا، أشعل سيجارة الكوبي، أيضا السيجار هذا لازمه منذ أن عرف تدخين السيجار، يرتشف رشفة، ينفث بعض من دخان السيجار, يغمض عينيه قليلا، يشرد ويعود إلى زمن سحيق، تذكر وجوده ابنا وحيداً لأب تجاوز الخمسين بسنوات ليست قليلة، وأم تصغره على الأقل بما يقارب العقدين وربما الأكثر، الأب (ديموس) الذي لا يراه إلا بعد غروب الشمس بساعات، يصحو يجده خرج إلى عمله, يعود منهكا من العمل، يغتسل سريعا، يتناول طعامه على عجالة، أبوه كان عجولا على الدوام، عرف هذا عندما بدأ يفهم, كان الأهالي يطلقون عليه (أبو قلب حامي) ينادونه أحيانا (بالحامي), ينهض بعدها متثاقلا إلى الجلوس على الكنبة متربعا، لحين أن تأتي له بكوب من النعناع الأخضر الساخن, تعلم هذه الجلسة من جلساته اليومية على المصطبة الاسمنتية التي أوجدها بجوار محلة ومخازنه، النعناع كما أخبرني لاحقاً

وعلمني أيضاً شربه يهدئ المعدة ويبعد عنها الانتفاخات التي تقض المضاجع، يأخذ طريقة إلى حجرة النوم، وهذا يعني أن على أيضاً أن أنام، تذهب بي إلى فراشي، تربت على طويلا حتى يأخذني النعاس بين أحضانه، كانت حريصة عليّ أرتدي دوماً أردية نظيفة على مدار اليوم، حتى حين ذهابي للعب ومعرفتها أني سأعود متسخ الثياب، إلا أن هذا لا يعنيها المهم لديها أن أكون مختلفا، تجلس معي لعمل الواجبات المدرسية، كانت متعلمة وتجيد الإنجليزية والفرنسية بطلاقة بالإضافة إلى اللغة اليونانية بالتأكيد، كانت هي من تتابع دروسي، حتى الدروس التي يأتي مدرسوها للبيت من أجلها، تجلس على مقربة تنصت جيداً، بعدها تسألني بموضوعات الدروس بشكل يفيد أن الدرس كان موجها لها أيضا، كانت دائما متجددة، ما من لحظة إلا وأن تكون كاملة الأناقة، خفيضة الصوت لا يتذكر أن صوتها كان عاليا إلى أي حد يوما ما، كانت الرفاهية التي تميزه عن الآخرين سببا كبيراً في أن صداقاته كانت محدودة ومع أبناء رجالات البلدة الكبار، وإن تقارب مع بعضهم من الآخرين إلى حد ليس بكبير، كل شيء كان يسير بهدوء ، إلى أن فوجئ وهو بحدود العاشرة بأبيه يحدث أمه ذات ليلة ويخبرها أنه اشترى بيتا بالإسكندرية وبعض المحلات والمخازن، تجارته اتسعت وما عادت القرية تناسبهما، وأنه بدأ بعرض ممتلكاته للبيع، في غضون شهور قليلة كان قد تخلص من كل ما يملك، بالطبع لم يفرط بها إلا بالسعر الذي يرضيه، كان يوماً صعباً جداً عليه, أن يغادر بلدة عاش بها وله أصدقاء، ودعهم بكل ألوان البكاء والنشيج، وبالطبع أصر على مصاحبة صديقه الأثير (محمود القفاص) رفيق رحلة عمله ومن أتى به للقرية، ظل أياماً حبيس حجرته الجديدة، رافضاً الخروج، رفض حديث الأب والأم، وأن الحياة رحلة بها طرق متعددة وأنها ليست أحادية المنهج، ظل لأكثر من أسبوع مصرا على عزلته، حتى أنه رفض الذهاب إلى مدرسته الجديدة، المدرسة الأجنبية التي اختارتها الأم من خلال مقترحات صديقاتها التي تثق بهم ثقة عمياء وتعرف أنهن من الطبقة المخملية الحريصة على وجود أبنائهن بمدارس ذائعة الصيت من أجل تعليم جيد مع هدف آخر غير معلن، وهو نوع من التباهي الاجتماعي، تصاعدت تجارة الأب بشكل غير متوقع، مارس كل صنوف التجارة، الأخشاب ، السلع الغذائية، بل زاد أنه قام بعمل ما يشبه بورصة القطن، كل يوم كان بل يمر كان يغترف ثراء، ولكن لأن الأمور لا تكتمل، وكما يقول أصدقاؤنا المصريون: لكل إنسان أنصبته المحددة من عند الرب، تجد النصيب الأكبر قد يكون ثراء وقد يكون صحة وقد يكون أولادا ناجحين وبارين، الأب نال حظه ثروة وصيتا ذائعا، حتى صار محل حسد من الكثيرين, كانت الأقاويل المتداولة بين صغار التجار دوما جملة معتادة.

* جاور أو تعامل مع (ديموس) تأتيك رياح الربح بلا توقف.

كان كل شيء يسير بلا منغصات، ويبدو أن الأب مكتوب عليه أن يفقد الزوجة، وقد ورث منه هذه الصفة، عرفت أنه كان متزوجا غير أمي، وماتت بعد فترة قصيرة من الزواج، وكان يرفض الزواج بعدها، ولكن بضغوط من الطائفة اليونانية تزوج الأم، الأم أصيبت بلا مقدمات بمرض احتار به الأطباء، كثرت تشخيصاتهم, ما بين أن هناك تلفا ببعض شرايين القلب، وبين أن هناك عطبا بالكلي، وما أشبه من تشخيصات، أبي لم يترك طبيبا شهيرا إلا وذهب بها إليه, تضارب التفسيرات لحالتها أحدث بلبلة للأب، ترك عمله وتفرغ لها ولتمريضها، ممرضات لا يغادرن البيت الأربع والعشرين ساعة، كل يوم يمر تزداد حالتها سوءا، لم يجد بدا من السفر بها إلى لندن من خلال صديق له مقيم هناك أرسل له كل التقارير، ذهب بها، وكانت الصدمة أن

الحالة متأخرة للغاية, وما تشكو منه كان ورما بالمخ, لم تمكث سوى أياما وذهبت روحها إلى عنان السماء، عاد الأب مرافقا جثمانها، أقام لها عزاء كنيسيا يليق بها، جاء للتعزية الجميع من كل الأديان, مسلمين ومسيحيين على كافة انتماءاتهم الكنيسية , وربما وجدت بعض الملل الدينية الأخرى، فكان الكل بينهم ألفة، الدين لله والوطن للجميع ، الكل ينتمي لوطن واحد يعيشون به، عندما وصل إلى هذا الحد من الذكريات طفرت دموعة، ونهنه بصوت مسموع، لم ينتبه إلى وجود الجميع يحيط به، أخذه (رضوان) بصدره يحتضنه بقوة، ولكنه لم يسأله عن أسباب بكائه، البكاء نحن كثيرا ما نكون بحاجة إليه لغسل رواسب هموم وأحزان تسكن الحشايا، أخذ يروي له بعض المواقف المضحكة حدثت لهم أثناء الطفولة حتى استطاع أن يجعله يضحك حتى كاد يستلقي على قفاه، أتاهم صوت (فابيو) يدعوهم للطعام، نهضوا متشابكي الأيدي، المائدة مليئة بعديد من أصناف الأسماك، كلها أسماك وبعض من الأرز بالسمك أيضاً، عندما لمح دهشتهم تحدث.

* فكرت أن وجبتنا الأولى أسماك نظرا لأني أعرف أن أسماك الإسكندرية لا يعلى عليها، أيضا معرفتي أن (جوزيف) ابن (فابيو) ووالد الشابين عمل سنوات بمطعم شيراتون بقبرص اليونانية وكان متميزا بوجبات الأسماك، مؤكد ورث بعض خبرته بالطعام لوالديه اللذين رفضا الإقامة مع الأب وصمما على وجودهما مع الجد، الذي يمنحهما حنانا وحوارا واهتماما يفوق عطاءات الأب بكثير، فقلت لحالي: نمنح أنفسنا فرصة لمعرفة خبرتهم، يا إما تمنحهم ثقتنا بقادم الأيام وإما ننزع عنهم رداءً لا يناسبهم، وتعالت ضحكاتهم جميعا.

بعد الانتهاء من الطعام وتناول الفاكهة والمشروبات، طلب منهم الاستعداد للخروج لجولة سيرا على الأقدام ببعض شوارع المدينة الساحرة، رفضت الزوجتان مشاركتهم هذه الجولة نظرا لعدم قدرتهم على السير لوقت طويل، هذا ما أعلن ولكن الخفي كان رغبتهم بالانفراد بأنفسهم لحديث يجمع بينهن بكل أريحية بغية التعريف بهن.

قبل أن يغادرا مال (لوكا) عليه، مهمسا له.

* لا تحدد خط سير لنا، لتأخذنا أقدامنا وتقودنا إلى حيث تريد، فهي أيضاً أكثر شوقا للكثير، ربت كل منهما على الآخر وأسرعا بالخروج.

ما إن خرجا، حتى نهضت الزوجة وجاءت ببعض أنواع المسليات، طلبت من (كرستينا) أن تستفيض بالحديث عنها وبأي لغة تريدها ما عدا اليونانية التي لا تجيدها، تبسمت كلتاهما، وبعد لحظة شرود بدأت تتكلم.

* أولا أحب أن أعترف أني أشعر بعدم غربة بيننا، من اللحظة الأولى تولد بي هذا الشعور، الله يؤلف الأرواح والقلوب حتى لو لم يلتقيا من قبل، كنت لا أعترف بهذه المقولة، لأنه لابد من معرفة على أرض الواقع ليتم هذا، ولكن من الواضح أني كنت مخطئة، أما عني بلا إطالة، أنا ابنة لرجل تستطيعين أن تطلقي عليه ما يسمى بالرجل العصامي، اسمه(انطوينو بارباس)، ابنة ولي شقيقة كبرى وأخوان أصغر مني, ولدنا جميعا في قبرص بالجزء اليوناني منها، بمدينة ربما سمعتي بها، (ليماسول) مدينة جميلة بطبيعتها وطيبة أهلها, أبي بدأ عاملا بسيطا بأحد مصانع صناعة الأجبان، عمل بها لسنوات طويلة، كان قليل الكلام، شديد التركيز بعمله يريد

معرفة كل التفاصيل لهدف وضعه نصب عينيه، لم يفصح مطلقا لأحد عن هدفه وطموحه حتى لزوجته، ظل هذا حبيسا داخله حتى جاء يوم وأعلن أنه سيترك العمل، يومها خبطت أمي صدرها بشدة، وأظن أن هذا الفعل تتساوى به كل نساء الأرض، وتسمرت بموضع جلوسها، وعلت وجهها كل علامات الوجوم، قابلها ضحكة مجلجلة من أبي زادت من دهشتها ووجومها، ونطق وجهها حينها بسؤال، هل تعرض الزوج للوثة عقلية فجائية؟، لم يطل الأمر طويلا، فقد يحدث لها ما لا تحمد عقباه، قربها منه, ضمها إلى صدره وربت عليها بمنتهى الرقة، أشار إلينا أن نجلس محطين بهما، كنت حينها بقرابة الثامنة عشرة من العمر, توزعنا بشكل عفوي حولهم، ابن وابنة حول الأب والأم, احتوانا بذراعيه, يميل علينا يقبلنا, بعد هذا الطقس الدافئ والحنو تحدث.

* تعرفون أني بعملي هذا قرابة الربع قرن, من أول لحظة وأنا أضع برأسي أمرا هو أن أكون يوما صاحب عمل، وأن أكون حاليا مميزا بما اختاره من عمل, عملت بهذه الشركة ولم أحدث جدلا أو مشكلة يوما، كنت أركز بعملي جدا وتفاصيله أود معرفه كل فنياته, نلت ثقة أصحابه ومن أعمل تحت إمرتهم، وهذا أتاح لي فرصة التنقل بين الحين والآخر بين العديد من الأقسام، كنت حريصاً على أن أفهم كل التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة تحسبا لتحقيق حلمي الرابض داخلي منذ أن وعيت وفهمت، وهناك أمر أخفيته عنكم أنني كنت أدخر جزءا من مقابل عملي بشكل دائم لهذا الأمر، ومن قرابة الشهرين قمت باستئجار مبنى متسع محاط بمساحة فضاء، لن أقيم مصنعاً بالبداية، فهذا يحتاج وجود مال بشكل يفوق ما لدي ، سأبدأ بتجارة الجبن، وخطوة خطوة أؤسس لمصنع، وسوف أسعى لتعدد مصادر الأجبان، وبأمر الرب خطواتنا تسير بالاتجاه الصحيح، وهذا ما تم، أمي خرجت لمعاونته, ونظراً لأمانته وصدقه وحرصه على تقديم الجيد فعليا ذاعت شهرته، وراجت بضاعته، استعان ببعض الشباب لمعاونته، انتقاهم بعناية من الأهل والأصدقاء، استمر هذا لقرابة الثلاث سنوات، بعدها جاء الوقت لوجود الحلم على أرض الواقع، بدأ بتنفيذ إنشاء المصنع على الأرض الفضاء الموجودة خلف المحل، بدأ به صغيرا، هو من النوع الذي يؤمن بتحسس الخطوات لا التعجيل بها، الهدوء بصيرة وحنكة العقل، رويدا رويدا بدأ يتسع أكثر فأكثر، بدأ يزور المصانع الكبرى، يتعرف بملاكها يجري معهم اتفاقات وبروتوكلات وعقود لحق توزيع منتجاتهم وأن يكون وكيلا لهم، وهكذا دارت العجلة، المصنع صار عدة مصانع، بكل ربوع اليونان بشقيها، بل تجاوز حدودها ببلدان أخرى مجاورة، عشنا رفاهية مطلقة، كل احتياجاتنا متوفرة قبل طلبها، بدل القصر أصبح لنا أكثر من قصر, وأماكن إقامة بأكثر من دولة ومدينة، عشنا بكل ما نصبو إليه، تزوجت أختي الكبرى من شاب تعرفت به بإحدى حفلات المراقص, أحبته على الرغم من الفارق الاجتماعي، أبي رجل لا يعرف التزمّت، ويؤمن أن لكل إنسان خطواته المحددة سلفا، هذا راسخ بداخله، على الرغم من أنه لا يرتاد الكنائس ولا يسمع العظات، ودوما يقول ضاحكا، عندما نعود بصحبة والدتنا إلى الكنيسة أيام الأحاد.

* لماذا يوم الأحد تحديدا، هو اليوم الأوحد لنكون بين يدي الله، ثم هل العظات التي تخرج من أفواههم شلالات بلا توقف يعملون بها؟ كان يجب عليهم وعظ أنفسهم قبل أن يقذفوا بعظاتهم خارج أفواههم، والله كثرة الدعاة والوعاظ تثير قلقي، أغلبهم وعاظ ودعاة حسب مناخ البلد الذي يعيشون به، السياسات توجه كل شيء, ومن هنا تأتي المعضلات، الذي أعرفه أن الدين

والعظات لابد وأن تخرج من الصدور بيقين تام من قائلها وليس ترديدها كعمل مقابل أجر. وفر لزوج أختي عملا لدية وأثبت كفاءته، وصارت أُمّا وأنجبت طفلين منتهى الجمال، صارا هم الملاك الحقيقي للأب والأم, أخواي مازال أكبرهما بالخامسة والعشرين ولم يرغب بالزواج بعد، أخذ كل صفات أبي من حب العمل والجدية، الأصغر هو من يعيش حياته طولا وعرضا غير آبه بشيء, ولكن للحقيقة يعود لرشده كلما جالسه الأب ويناقشه حتى يقنعه بصواب كلماته، أياما أو أسابيع ويعود لنزقه، أما أنا فقررت أن أدرس وأن تتصاعد خطواتي بمجال التعليم، من طفولتي وأنا أعشق الفن بكل روافده وجمالياته، أنا ما زلت أدرس للآن، أصريت على مواصلة التعلم، على الرغم من محاولات (لوكا) بالاكتفاء بما درست، قال: إننا لسنا بحاجة لشيء، قلت له: قد لا نحتاج لطعام وشراب وملابس ورفاهية, ولكن أبدا نظل بحاجة إلى التعليم، لأنه من يفتح أبصارنا ويجعلنا نقرأ جيداً مجريات الأمور، هذه حكايتي قبل التعرف بزوجي (لوكا)، تناولت كوبا من عصير المانجو المثلج وتجرعته دفعة واحدة، وكأنها تعيد إحياء وتنشيط أحبالها الصوتية، الصمت ران عليهما، (ناهد) كانت تنصت بشغف، (كريستينا) تحكي بعفوية كأنها تعرفها من سنوات، على الرغم من الفارق العمري الكبير أشعرتها بالتقارب كأنها ابنة أو أخت صغرى، أكملت الحديث.

* أعرف أنكِ متشوقة لمعرفة كيف تزوجت من (لوكا), على الرغم من الفارق العمري الكبير ، تتساءلين كيف يقترن الربيع والخريف؟ لك حق فالفارق بيننا يتجاوز الثلاثة عقود، تعرفت به بحفل كان يقيمه أبي للشخصيات العامة والمؤثرة في كل قرارات الدولة، كان يعلن افتتاح إحدى شركاته الجديدة، التي كانت تتكاثر بل قول: تتوالد بشكل ملفت للنظر، أول مرة أراه بين حضور حفل لأبي، يجلس على مائدة تتوسط قاعة الحفل، أنيقا للغاية، ينفث دخان سيجاره مستمتعا، لحظت أنه كثيراً ما يغمض عينيه, كأنه يهرب من شيء أو يستدعي مشهداً معيناً، يجالسه صفوة رجالات الدولة، ما لفت نظري هذا الوقار الطاغي الذي سحب البساط من هذه الصفوة، شعرت كأنهم رعايا لديه، كلهم بحالة إضفاء تام له، يصمتون حينما يصمت، تتعالى ضحكاتهم لكلماته, عندما يخرج سيجارا جديداً، يتسارع الكل بقدح زناد ولاعاتهم لكي ينالوا شرف هذا، تتمايل عليه الحسناوات وهو لا يعيرهم أي اهتمام، وكأنهم لا يتواجدون، أشبه بالضوء الذي يجذب الفراشات ولكنه يظل ضوءا لا يتبدل ولا يتغير، بالحقيقة أحسست أن هذا الرجل هو ما كنت أبحث عنه وأنتظره، لا تسألني كيف وأنا أراه للمرة الأولى؟, أؤمن بشيء هو أن الأشياء التي تأتي مصادفة ووليدة اللحظة تحمل بطياتها الكثير من السعادة، وخاصة الإحساس بالجاذبية والارتياح إن لم يأت بغته قد لا يكون صادقا بغالب الأحيان، صدقيني لو تعاملنا كبشر مع الأمور بعفوية لجنبنا أنفسنا من العناء الكثير، الانطباع الأول يعطيك إشارات جلية لتسير بطريق يأخذك لما تحلم به، أو يدفع بك إلى ما لا ترغبه وتتمناه، أنت المسؤول عن اختياراتك، وجدتني حينها أذهب إلى أبي الذي لا يجلس مطلقا إلا مجرد هنيهات ومع كل مائدة للترحيب، يظل رحالا هنا وهناك، أقبلت عليه، أمسكت بيده، جذبته خارج إطار الدائرة المتواجد بها, أخذته بعيداً عن الضجيج، وبلا مقدمات أو تلعثم رفعت يدي مشيرة إلى حيث يجلس، لم أكن أعرف اسمه، سالته.

* أبي، من هذا الرجل؟ لم أره من قبل، أرى أن حوله هالة كبيرة من الاهتمام والاحترام.

أجابني بضغطة على كفي، مطلقا ضحكة قصيرة، وضع يده على كتفي، حدثني أثناء السير.

* هذا هو المليونير (لوكا ديموس) إمبراطور السياحة، بل يمكنك القول من أباطرة السياحة بالعالم، كما أن لدية العديد من البازارات التي تبيع التحف والأنتيكات والوثائق التاريخية ببلدان كثيرة، وبعض التجارات الأخرى ، هل تودين التعرف إليه؟

لم أجبه، وجدت قدماي تسير نحو مائدته, وأبي يلاحق خطواتي، كأن هناك قوة مغناطيسية لا أدريها تدفع بي إليه، أصبحنا قبالة مائدته، حياه أبي، أشار إلى.

* هذه (كريستينا) ابنتي تود التعرف عليك.

وجدته ينهض مادا يده، أعطيته كفي، أصدقك القول، شعرت بكهربائية تسري بكاملي, رفع يدي وقبلها مع إيماءة تحية من رأسه، خاطب أبي على الفور.

* كيف يا رجل يا عجوز لديك هذا الكنز من الجمال ولا تعرفنا به من لحظة الوصول، تخشى عليها عيون الحاسدين.

وأطلق بعدها ضحكة شديدة الصفاء اهتز لها جسده، وكأنه يمارس رقصة باليه، عاود الحديث.

* تسمح لي أن أسعد بتواجدها معي والاحتفاء بما يليق بجمالها.

أبي الذي زاد بريق عينيه لم ينطق بلسانه، نطق بإيماءة رأس مع ميل بالعنق، وتركني وانصرف، أشار إليّ بالجلوس، فوجئت بالجميع ينصرف دون مطلب منه، البرودة احتلت جسدي، تناول كفي، أخذ يحدق بي، وأنا تائهة لا أكاد أشعر بأي شيء حولي، أخرجني من صمتي سائلا على حين غره.

* جميلتي، بداية ماذا تأمرين من طعام أو مشروبات أو حلويات؟ حتى إن لم تكن متوافرة نأمر بإحضارها فورا، كل ما هنا وهناك ملكك،

أصابني الذهول من لغته البسيطة المليئة حنوا وعذوبة، تمتمت بلا وعي.

* لا شيء سيدي يكفي شرف الجلوس بحضرتك.

وحتى يذهب عني الخجل والارتعاش سألني.

* تحدثي عنك من كل شيء، عن طفولتك، عن أحلامك وطموحاتك، لا تخفي شيئا، سامح الله (أنطونيو) الذي أخفي عنا هذا الجمال، تكلمي كما تريدين لن أقاطعك، أود أن أسمع عزف كلماتك.

حقيقة شعرت أني بحضرة عازف يجيد انتقاء أحرفه، بالحقيقة حولني إلى شبيهة بمن تدخل الكنيسة بحالة صمت تام، تسمع فقط، أعاد طلبه أن أحكي له كل شيء، وبالفعل على مدار أكثر من ساعة، حكيت كل شيء، حتى الصغائر التي حدثت لي في سنين عمري حكيتها، وللآن لا أعرف تفسيرا لهذا، كنت أتكلم وكأنني بحالة اعتراف لأحد الكهنة، لم أخجل من أي شيء، هو جالس صامت، ينصت مع توجيه نظراته إليّ، هذا الرجل له (كاريزما) قلما توجد بالكثيرين، بعدما انتهيت أنهضني وأخذ يدي, توسطنا قاعة الحفل، أشار بإصبعه للعازفين إشارة غير

مفهومة للجميع، ولكني فوجئت بعزف إحدى معزوفات اليوناني (نيكوس) الهادئة، التي جعلت الجميع بحالة من الصمت، كان يمسك بكلتا يديّ، يتحرك جسده وقدماه مع إيقاع الموسيقا، لحوالي العشر دقائق كان العزف، بعدها وبإشارة أخرى وبحركة مغايرة، كانت موسيقا راقصة عالية الصخب، خاصرني كلاعبي بالية، وأخذ يراقصني، الحضور صنع دائرة حولنا، جثا بعضهم على ركبتيه، كان غاية بالرشاقة حتى أنا لم أستطع مجاراته، كلما انتهت المعزوفة طلب تكرارها، أصدقك القول أنهكت تماما, وهو كأنه عاد ببدايات العمر، بعدها وبإشارة أخرى أنهي الأمر, وكأنه متفق مع الفرقة على مغزى هذه الإشارات, تأبّط ذراعي وسار بي إلى أبي، أخذ يد أبي وجعلها تحيط بخصري، قائلا بضحك صاخب.

* (أنطونيو) أعدت إليك جوهرتك، احذر أن تتعرض لحظة لذرات الغبار, هي من الآن تحت رعايتي، وأولانا ظهره وخرج مغادرا، تاركاً لنا جميعاً الآلاف من علامات الدهشة والتساؤلات، مضت أيام لا أعرف شيئا عنه وإن كنت أفكر به كل اللحظات، ولكني لم أجرؤ لحظة أن أسأل عنه، بيوم فوجئنا برنين جرس القصر، سارع أحد العاملين بفتحه, وجده من يحمل صندوقا من القطيفة الفخمة يطلب تسليمها إلى الآنسة (كريستينا), وسط خطوات متعثرة تكاد قدماي تلتف حول بعضهما ذهبت لأخذ الصندوق، كان ثقيلا لحد ما, وقعت بالاستلام وعدت كل النظرات موجهة لي، الأب والأم والأخوة، اليوم كان إجازة أسبوعية، جلست بينهم، نظراتهم كانت تنادي بسرعة فتح الصندوق، فتحته بهدوء، وكانت المفاجأة، كان هذا العقد الذي يزين صدري من لحظتها ولا يغادرني إلا بساعات نومي، وأول لحظات صحوي أول شيء أنظر إليه هو هذا العقد، وبتلقائية داعبت العقد، أكملت، كان العقد كما ترين تحفة فعلا مكون من حبات متشابهة فيروزية اللون، كل حبة تحمل حرفا من اسمي، بدون إرادة صرخت فرحة، المفاجأة أكبر من خيالي، وجدنا مظروفا بالصندوق مغلفا بأقصى درجات الفخامة، تناوله أبي، فتحه مجرد أسطر.

* (أنطونيو) صديقي العجوز، ما أخبار وصيتي التي حملتك أماناتها، لعلك عملت بالوصية، هل تأذن لي بمصاحبتها بسهرة تكون هي ضيفة شرفها؟ الساعة الثامنة سوف آتي لمصاحبتها إن أتت موافقتكم تحياتي، مذيلة بتوقيعه (لوكا ديموس).

لم نكن نعرف أن حامل الصندوق مازال قابعا أمام الباب إلا بعدما دق الباب، وجدناه قال على الفور.

* سيدي ينتظر الرد.

تنقلت أبصارنا بين وجوهنا دهشة، ما هذا الرجل، وما تفكيره؟ أبي كتب كلمتين على الورق، نرحب دوما برغباتك.

عند الثامنة تماماً أو قبلها بقليل جاء بسيارته المكشوفة والتي علمت فيما بعد أنها من بين ثلاث سيارات فقط بالدولة، قمة بالأناقة، رائحة (بروفانه) ملأت القصر بعبقها, كانت أمي قد نهضت من لحظة قراءة الخطاب، تنتقي لي ثوبا يبرز جمالي ومناسبا للمناسبة، وأشرفت يومها على حمامي وكأنني عدت طفلة صغيرة، أشعرتني كأني مقبلة على ليلة زفاف، على الرغم من الفرحة إلا أن القلق كان يمزقني، لماذا أنا ؟ رجل مثله له وجود قوي بالحياة لماذا اختارني

وباستطاعته الحصول على من هي أكثر جمالا، استقبلني على آخر درجات السلم الهابط من الدور الأعلى من القصر والمخصص لحجرات النوم، تناول يدي وقبلها، أشعلت دمائي ، سار بي والكل يودعه بأطيب الكلمات، اكتفى بإشارة من أصابعه مودعا، سارت بنا السيارة بسرعة رهيبة، لف بي كل شوارع المدينة الرئيسية والفرعية، صارحني فيما بعد أنه أراد أن يشهد المدينة على حبه لي بل قال: إنه فكر أن يصيح ويعلن حبه، ذهب بي إلى حفل ضخم بأرقى فنادق المدينة، سرنا بين صفين من مدعويه الأصدقاء وزوجاتهم، رقصنا وضحكنا بما لم أفعله من قبل، للحقيقة لا أعرف تفسيرا لهذا للآن، هذه الليلة لا تغيب عني، كلما تذكرتها على الرغم من مرور ما يقرب من الخمس سنوات هي عمر زواجنا تعيدني إلى طفلة صغيرة مدلله للغاية، أحسست كأني أحلم, أو أعيش عصر الحكايات التي رويت لي من جداتي وأمي، نصف ساعة لم تزد، جذبني من يدي، هرول بي خارجا، بل فعل شيئا مجنونا, حملني بين ذراعيه، ووضعني على مقعد السيارة، أسرع بنا إلى الشاطئ، اختار مقهى يقع على يابسة داخل البحر، المكان يعج بالعديد من الناس، اختار ركنا قصيا هادئا وبعيداً عن الضوضاء، جلسنا أشار إلى أحد العاملين، مال عليه مهمسا بأُذنه، قليل من الوقت وأتى بطابقين من الشيكولاته، مع عصائر مختلفة، ما لفت نظري يومها أنه لم يطلب مشروبات روحية مطلقا، أمسك يدي بين كفيه، أخذ وقتا طويلا يحملق بي بلا حديث، أشعرني كأني بمشهد من مشاهد السينما الراقية، تعرفي تخيلته لحظتها (كلارك جيبل), ظل ساهما طويلا، اكتفى بالنظر إلى وجهي، تحدث.

* مثلما فتحت كتابك لي، سأفتح كتابي أمامك، قبلها سوف أخبرك أمرا أنا مندهش به، لماذا أفتح كتابي الآن ولك أنت، على الرغم من أني من أنصار أن لكل إنسان صندوقا خاصا يجب ألا يظهر لأحد على الإطلاق مهما كانت الصلة بينه وبين الآخرين، ولكني أجد نفسي مندفعا لأن افتح كل شيء لك، ولا أعرف سببا سوى أني أريد هذا وبشدة.

ليلتها تحدث عن كل شيء، ولا أظنه أخفى شيئا، كانت جملته التي افتتح بها حديثه، مازلت أذكرها للآن، أنا مصري أرتدى زيا يونانيا، المصريون يقولون: إن من يشرب من النيل لابد وأن يعود إليه، وأنا أزيد على هذا، أن مصر روح تسكن من يولد على أرضها ولا تغادره أبدا، وأنا أحيا بهذه الروح، خطواتي تسير وفقها، ثم تكلم عن الأب وزوجته الأولى، وهجرته للمدينة وعيشه بالريف، وتجارته ونموها، والزواج بوالدته، والسنوات التي عاشها بالريف، وأصدقاؤه وزوجك أولهم دوما يكون مذكورا بأي نقاش وآخرون، والانتقال للإسكندرية، عن وفاة أمه، عن هجرته, عن زواجه الأول من (ايلينا) أم ولده التي توفت بعد خمسة عشر عاماً من الزواج ، عن(جون ، مارك) ولديه اللذين ذهب كل منهما إلى طريق بعيد عن الآخر، رفضا تماما أن يظلا تحت رداء الأب وثروته، طلبا أن يشقا طريقهما وحدهما وأظن هذه سمة دائمة الوجود لدي أبناء اليونان، حب المغامرة وإثبات الذات، يتابع أخبارهم عن طريق علاقاته بمقار إقاماتهم، وزيارات لأيام لا تعد ومكالمات هاتفية, وصور لأحفاده، رفض الزواج ثانية خشية أن يكون شبيها بأبيه، بصراحة سكب ذاته أمامي، كنت أفرح حينما تنفرج شفتاه عن ابتسامة، وامتعض عند رؤيتي تغضن قسماته بنوع من الأسى، لم نشعر إلا ببزوغ فجر اليوم التالي دون أن نشعر بالوقت، أعادني للقصر، دخلت إلى حجرتي ارتميت على فراشي بكامل ملابسي، وذهبت بنوم لم أعرفه من قبل، صحوت نشطة جدا جدا, للمرة الأولى في حياتي أجلس وسط الأسرة على مائدة الطعام، أتناوله بشهية وبلا تحفظ، أنا بطبيعتي حريصة على رشاقتي, كل

شيء بحساب تام, طال غيابه ولم أحاول أن أسأل أبي عنه، كنت نهبا للقلق، لما لا يتصل أو يأتي، حاولت تناسيه، رجل مر ورحل، ولكن كل غيابه كان يخفي الأمر الكبير، بلا مقدمات ذات مساء أتتنا دقات الجرس، ما إن فتح إلا وشاهدناه واقفا ومن خلفة ثلاثة شباب، يحمل كل منهم بعض الصناديق، أقسم أني عرفت أنه هو من عطره، ما إن رآه أبي إلا ونهض مهرولا مصاحبا معه كل ألوان الترحيب من كلمات وإشارات، لم ينتظر الدعوة للدخول، دخل والغريب أن أبي كان بأعقابه، أشار للشباب أن يضعوا ما يحملون على أقرب مكان، سار إلى حيث تجلس أمي، تناول يدها طبع قبلة على يدها محنيا رأسه، (برنسيسا) تماما، أشار أبي له بالجلوس، اختار أن يجلس متوسطا الجميع، وبلا مقدمات وبأسلوب منمق هادئ وبصوت غاية بالخفوت قال:

(أنطونيو) العزيز، بلا تمهيدات أرى لا داعي لها أود زواج ابنتك (كريستينا).

الجميع حينها ألجمت المفاجأة لسانه وكامل محيط الوجه، أنا وجدت نفسي أنهض وأهرول إلى حجرتي، تابعني بكلمات.

* أنتظر الرد قلا تغيبي عني به.

أتصور أنه لم ينتظر الرد طويلا، أنا ألقيت نفسي على الفراش، مشتتة الفكر، تتناقض الأمور بداخلي، هل هو مناسب لي؟ وماذا عن رد أبي؟ وكثير من التساؤلات، أفقت على صوت أخٍ لي يدعوني للحضور، وجدت نفسي كمن يسير مثل المنوم مغناطيسيا، أشار لي أبي بالجلوس، ما كدت أجلس حتى بادرني بالسؤال.

* (لوكا) يطلبك للزواج، ومصرّ يسمع الرد منك أنت قبل ردنا نحن، قال: إن هذا ما تعلمه من مصر بغالبية العائلات المصرية، ولكنه يكون على نحو آخر، أن الأب يطلب وقتا للرد، يتناقش مع كامل الأسرة, ويأخذ رأي العروس، هو يريد رد العروس أيا كان، حتى لو كانت خجلى، كانت كل النظرات مصوبة إليّ، والشفاة تنادي ردي، أنا جمعت بين النقضين بحال واحد، بسمة شفاة مع إشراقة وجه، مع تساقط بعض دمعات، فهموا الجواب، تعانق هو وأبي، رجل المفاجآت مازال في جعبته الكثير، كان طول الوقت يضع على ساقه، صندوقا مغلفا بغلاف بنفسجي حريري، بعد المعانقة والتهنيئات، أشار لنا بالهدوء قليلا، بدأ بفك أشرطة رباط الصندوق بهدوء تام، يرفع عينيه ويرسل ابتسامة إليّ، فتح الصندوق وأخرج علبة قطيفية شديدة الفخامة، مرسوم عليها طفلان صغيران متعانقان، فتح العلبة على سعتها، ندت عن الجميع آهات وصيحات فرح، فكانت مجموعة من المجوهرات فوق التخيل، عقود تتناسق مع بعضها، خواتم وأساور، قدمها لي، تناولتها بأيدٍ مرتعشة، لم يعطني الفرصة، تناول العقود وأخذ يطوق عنقي بها، كانت مجموعة تكمل بعضها على شكل طبقات، جلس بعد أن قبل جبيني مما أصابني برعشة شديدة انتفض لها جسدي، تحدث بعد تناول مشروب مثلج.

* أنا لو لم ألمح ارتياحا لحد كبير من (كريستينا)، وهذا ليس غرورا بل هو ما تعلمته من سنواتي, الارتياح بداية الأشياء الجميلة، أنا هكذا، أسير حسب ارتياحي والحمد لله لم يخذلني للآن؛ لذا أقدمت على هذا الطلب دون تمهيد، لست متمتعا بعادات الغرب على الرغم من عيشي به كل عمري، أنا فعلت ما رأيته بحياتي في مصر، ولا تندهشوا أني مازلت متذكرا لأساليب

حياتهم، دوما يقولون: ادخلوا البيوت من أبوابها، وليس قفزا من نوافذها؛ لذا أنا جئت دون أن تعرف أو تتوقع، أظنك سيد (أنطوينو) تعرف عني الكثير، أنا ما أريد إضافته، أني لن أجعلها أو أجعلكم نادمين، كونوا على ثقة تامة من هذا, كانت ليلة بهيجة، كان قد قام قبل حضوره بترتيب حفل بقاعة راقية وكأنه كان على ثقة من طلبه، طلب أن يكون الزفاف بغضون شهور قليلة لحين إعداد قصر خاص لم ولن تدخله امرأة أخرى مطلقا، وقد كان، لم يتغير هو متجدد حتى بمشاعره ، لم يحدث يوماً أن تسبب لي بأي إيذاء نفسي أو بدني على الإطلاق، جبت معه العالم، كل لحظة أزداد تعلقا به، فقط أغار دوما من دوام حديثه عن مصر، أغار ولكنني لا أنكر أنني ازددت شوقا لها، والآن عرفت السبب، على الرغم من مرور يومين فقط إلا أنني أشعر بأنني أعرفها، ها هي حكايتي، ما يؤرقني عدم إنجابي منه، كم أحلم بهذا، فاجأتها بسؤال:

* هل للرجل وقت تتوقف به قدرته على الإنجاب ؟

أجابتها بضحكات عالية، أخذتها بحضنها وأجابت.

* لا يا حبيبتي، هذا أمر يخص النساء فقط، الرجل يظل قادرا على مدار عمره، أعرف أحد أقربائي أنجب وهو بالثمانين من العمر من ثالث زوجاته التي كانت تصغره بأكثر من أربعين عاماً، فلا تقلقي لكل شيء وقته المحدد سابقا.

حدثتها عن قصة زواجها التقليدي أو ما يسمونه زواج صالونات، صارحتها وقالت: إن هذا تقوله للمرة الأولى، إنها كانت كثيرة التخوف من مثل هذا الزواج، وكانت تسمع دوماً مقولة أن الحب يأتي بعد الزواج، ولكن ما سمعته من حكايات وهي بسنها الصغير أن هذا قول ليس صحيحاً إلا بحالات نادرة، فالغالب أن الزوجة تتحول بكثير من الأحايين إلى مجرد ديكور حياتي، أو إحدى مكونات منزل الزوجية، ولكن وبكل الأحوال هناك لكل قاعدة استثناء، وتحمد الله أنها حظيت بهذا الاستثناء، (رضوان) كان على مستوى حلمها وأكثر ، بل كل يوم يزيدها ولهاً وعشقاً له. وأخذتها بصدرها وأنامتها على ساقها، تداعب خصلات شعرها وكأنها ابنتها التي لم تنجبها، غفت وهي على هذه الحال.

..11

.. خرجا من البيت كل يضع ذراعه على كتف الآخر، يسيران كما كانا يسيران وهم صغار، خطوات متراقصة، تناسيا سنوات العمر الملقاة على كواهلهم, كان (لوكا) يعاود إطلاق صفيره المنغم، غريب هذا الرجل، لم ينس شيئا من الأمس، أخبره أنه ببداية الجولة يريد الجلوس على إحدى مقاهي الحواري، وعندما وجد علامات تساؤل، باغته برد.

* إن أردت أن تعرف كيف تسير الأمور وتعرف الشعوب على طبيعتها وبلا رتوش اقترب من الشرائح الكادحة، هم العنوان الحقيقي دون أي محاولات تجميل أو مكياجات، لا تأخذ الحقائق من السيارات الفارهة، والثياب الفاخرة، أو الشوارع المتسعة والبنايات العالية، ادخل الأزقة والشوارع الضيقة التي لا يمكن أن يمر بها أكثر من شخصين، المليئة بالحفر والمياه الراكدة، بالرجال الجالسين على مقاعد بها عرج وتشوهات من آثار الزمن، يدخنون السجائر بشكل يشبه

الهستيريا، السيجارة تعقبها أخرى، سلسلة لا تتوقف، مع الأريجيلات، ينفثون الدخان، لكل منهم طريقته في نفث دخانه، لا تستهين بأي تفصيلة أو حركة من حركات هؤلاء البسطاء، ألا يقولون: خذ الحكمة من أفواه المجانين، وأنا أضيف: اعرف سير الحياة بأي وطن من الوجوه المعروقة المتنافرة والمعفرة دوما،

* لك حق هذه حقائق لا يمكن تجاهلها، البنايات الفخيمة والسيارات ألفارهة و(البذلات) شديدة الفخامة، تعطى تقاريرا ليست حقيقية على الإطلاق ،تقارير أشبه بالتقارير التي يعدها المسؤولين للقيادات تحمل كلمة دائمة، كل الأمور على ما يرام، والحياة تسير وفق ما نريد، رسالة دائمة الترديد، ومع الأسف يدفع ثمن زيفها الشريحة الكبرى من المجتمع، ومع الأسف أيضا نجيد دوما التصفيق لكل ألوان الزيف وغير الحقيقي.

جلسا على مقهى بحارة لا منافذ لها، مغلقة من نهايتها، فاجأه أن يطلب (كركديه) مثلجا، كان يتنقل بعينيه بين الوجوه المحيطة بهم، وأذانه تلتقط حكاياتهم، على الرغم من غربته الطويلة، لم يفقد قدرته على التعامل باللغة العربية، يشارك من يضحك ضحكاته، يدخل بنقاش بأمر عام مثار، لفت الأنظار بلكنته المزيج بين العربية والأجنبية، ظلا لما يقرب من الساعة، ثم نهضا للسير بحارات مجاورة، هو مصر على رؤية الوجه الحقيقي لما لا تريد السلطات إبرازه، على الرغم من أن الوقت ليل إلا أنهم وجدوا النسوة يجلسن على العتبات ومداخل البيوت، يلتفن حول بعضهن، يتناوبن الحكايات، تخرج الضحكات من الصدور مجلجلة على الرغم من علامات الأسى وشظف العيش الذي يبدو من قسماتهن، كان يشير إلى التجمعات قائلا:

* هؤلاء يا عزيزي هم الحقيقة، هم العنوان، اسأل نفسك، لماذا هم يعيشون اليوم بيومه، لأن لديهم قناعة ورضى، وهذان يجلبان البركة، بالطبع لست مؤيدا لهذا الخنوع، لابد من السعي لتغيير الواقع، ولكن أؤيدهم ببساطتهم، البساطة تطيل الأعمار، مؤكد تقول: ما هذا التناقض، مؤيد وغير مؤيد، ولكن ماذا يفعلون وظروف الحياة لا تمنحهم فرصة السعي للتغير.

ظلا يسيران بلا هدى، لا يريد تغيير وجهات قدمية، السير بالمناطق الشعبية والعشوائية محبب له، هو افتقد هذا الجانب المعتم من الحياة، ظل حبيس حياة كلها أضواء شديدة تبهر العيون، تخفي الكثير والكثير من الحقائق، حبيس مجتمع لا يجيد إلا فن المجاملات المعلبة سابقة الإعداد، يرددونها كببغاوات، للحصول على هبات ومصالح ومكاسب من كل صنوفها, لا يعنيهم مطلقاً إراقة ماء الوجه، الآلاف وملايين المرات، الحياة التي تسير كما رسم لها، أشبه بمسرح كل يعرفه دوره المرسوم وخطواته أين ومتى تتحرك وكيف، هو دوما يقول إن هذا المجتمع لا يجد أوكسجينا ينعش مسامه، بل هو أدمن ثاني أوكسيد الكربون، فكل شيء بهذا العالم الآلي لا يضخ ولا يسمح بمرور هواء نقي، كم أشتاق لهذا العالم البسيط، عندما كان يخلو إلى نفسه كان شريط طفولته هو دائم المرور أمام عينيه، الطفولة بالقرية تحرر، عفوية مطلقة، لا يمر منتجها الحياتي واليومي على مكسبات الطعم وتغليفها بما لا يتناسب مع طبيعتهم، آه آه، لماذا نهرول وراء المصطنع والمفتعل والمعلب؟ أصبحنا ننساق للنداهات المستحدثة، التي اخترقت الكثير من أحلامنا البريئة والنقية، أصبحنا نستمرئ ونبيح لأنفسنا كل المحظورات لإشباع شهوة المال والسلطة والهيمنة والسيطرة والإمساك بتلابيب عموم البشر, أقدامهم قادتهم للشاطئ، جلسوا على صخور ناتئة، فتح أزرار قميصه للنهاية، قلده هو الآخر. يشعر أنهم يعيشون لحظات

صعلكة تمنياها من زمن بعيد، الإنسان دوما به حنين للطفولة، لفعل أشياء لا يستطيع إتيانها وهو بهذا العمر، طالت ساعات صعلكتهم، وعندما شعرا أن الوقت قد طال بهم، وأنه لا يمكن فعل الأشياء المرجوة دفعة واحدة، عادا مثلما ذهبا، الأيدي تحيط كتف كل منهما، خطوات موحدة، متناغمة ذات إيقاع واحد، دخلا إلى البيت، طالعهم نوم (كريستينا) على ساق (ناهد) وتداعب وجهها بحنان بالغ، الدهشة أخذتهم وتبادلا النظرات الباسمة، لم يريدا أن يزعجا هذه اللحظة، اكتفوا بإيماءة رأس قليلة، ودلفا بهدوء إلى الشرفة، كل منهم جلس على كرسي هزاز، يتمايلان يمنة ويسرة، أغمضوا العيون استدعاء لذكريات تاهت في خضم الحياة، ولكن النعاس أخذ منهما وهما على هذه فلبيا مطلبه، لم يستيقظا إلا على أصوات الآذان تأتي من كل الجنبات، وقف (لوكا) على السور لمشاهدة الهرولات من كل الأعمار إلى المساجد، والجلباب الأبيض يسود الملابس، تبسم لوحة إلهية عفوية استجابة لأمر المولى عز وجل، ما أجمل أن نهرول بكامل قناعاتنا وإرادتنا!

جاءهم اتصال هاتفي من (عبدالله التحيوي) يخبرهم أنه وصل القاهرة وسوف يمضي يومان لإنهاء بعض الأمور الخاصة، وعليهم أن يتجهزوا للذهاب إلى الغردقة، وعليهم استئجار مينى باص، للسفر، هو لا يرحب بالسفر بسياراتهم ولا يتحمل القيادة لوقت طويل، تبادلا الحديث معه بمداعبات لبعض الوقت، ذكراه باسمه (عبودة)، القرية بكاملها كبيرها وصغيرها، من يعرفه حتى من لا يعرفه كان يناديه به، حتى أباه ينادونه (أبو عبودة) على الرغم من أنه ليس الابن الأكبر، هذا الاسم الذي ظل مرادفا له حتى سئم منه وفر منه هاربا إلى بلدان شتى، حتى استقراره من قرابة الربع قرن بالعاصمة الفرنسية، وإن كان يتنقل بين بلدان شتى، اختار عالم العطور مجالا لعمله، منذ صغره ووجد به ميلا لعالم الروائح والعطور، ربما لعمله منذ أن كان بالعام العاشر أو أكبر قليلا بأحد محال العطور بالمنصورة، يملكه أحد أبناء القرية التي هجرها وأقام تجارته والتي بدأها موزعا متجولا يوزع إنتاج العطور على محال متناثرة، وأحيانا بمدن مجاورة، حتى استطاع بسنوات قليلة أن يكون له محله الخاص، ومع السنوات ازدادت خطوات نجاحه، حتى وصل إلى أن يكون الموزع الأوحد بالمحافظة، وهكذا دارت العجلة حتى صار موزع لكبريات الشركات العالمية الكبرى, عمل معه كل فترات الإجازات الصيفية، من باب تعود وتحمل المسؤولية، مع الخبرة الحياتية من خلال التعامل مع أنماط متعددة ومختلفة من البشر، والأهم من هذا هو نزع عباءة الاسم المرفوض منه، فلا أحد يعرفه بالمدينة؛ لذا عشق المدينة والمدن، ظل يعمل طوال سنواته حتى انتهى من دراسته الجامعية، كان قد فهم كل ما هو يخص هذا العمل، التركيبات والنسب بدقة، كيفية التسويق، وضع هدفاً أن يعمل بهذا المجال وأن يصل إلى مصاف الكبار، كان يراقب عن كثب الفنيين الذين يقومون بتركيبات العطور، كان أيضا كثير التساؤل، ألم بالكثير من المعلومات، في سنوات تالية بحث عن كتب تتناول هذه الصناعة، انغمس بها تماما، أصبحت هوسه الأول، طلب ذات يوم من صاحب العمل أن يمنحه بعضاً من المنتجات، يقوم بتوزيعها لحسابه الخاص دون أن يؤثر هذا على عمله، الكل كان يشيد به وبالذكاء الذي يغلف تصرفاته، كان يفصل بين حياته بالمدينة وحياته بالقرية، القرية أسرة واحدة الكل مترابط مع الكل، الوجع واحد، الفرح واحد، تشعرك الحياة بها أنك دوما تحت الأبصار ومجهرها، كل خطوة وكل التفافة وكل تصرف وكلمة رهن التدقيق والفحص، أنت دوماً محاصر، لك خط ومنهج لا يحق لك أن تخرج عنه أو تتمرد عليه، وإن أعلنت تمردا أصبحت عائقا خارجا عن تغريد السرب، المدينة براح واسع بلا حدود، كل مشغول بذاته، لا

رقيب عليك إلا ربك وضميرك وعملك، حرية منفتحة، قد تكون بلا حدود وبالتالي افعل ما شئت شريطة أن لا تتعدى على حريات الآخرين، وقد تكون مقننة ومقيدة لها أيضاً خطوطاً مرسومة ومحددة، ولكن بلا أن تكون تحت أعين الجميع، الحياة بلا حرية مثل الجسد بلا روح، آمن بهذا القول ويسير عليه حتى الآن، كان يعيش العالمين بمنتهى الإتقان، يوم أجازته يخرج كل تمرده المكتوم والمقموع، يمارسه بكل ما به، يلتقي بأصدقاء الحي والقرية والمدرسة، يحكى لهم عن الأيام الماضية، يتباهى بأنه قد تمكن من فهم جزئيات عمله، يحكي لهم عن المدينة وشوارعها وبناياتها، عن نسائها وعن أماكن التنزه وما بها من سبل الترف، الكل ينصت له وبه حنين أن يرى هذا فعليا، يلعبون الكرة حينا، يذهبون لصيد السمك حينا آخر، يلعبون لعبة الريف السائدة في هذا الحين (السيجة) الشبيهة بلعبة الدومنيو الفارق أن الأولى أدواتها حجارة، يمارسون الهرولات والمداعبات، يعودون إلى منازلهم وقد نالوا حصة كبرى من السعادة والحرية، وعندما انتهى من دراسته الجامعية كان قد قرر السفر إلى أوروبا، كانت نداهة الغرب قد تملكت منه، كان كثيرا ما تأتيه فرصة سماع بعض قصص أبناء بلدته الذين سافروا من سنوات وعاشوا حياتهم ونالوا قسطا كبيراً من النجاحات، بلدته وغالبية بلدان محافظته معروف عنها دوام هجرة الأبناء إلى أوروبا، الوجهة الأولى والهدف الرئيسي هي فرنسا، يعملون بمهن متعددة أغلبها أعمال المعمار وتجارة الخضروات والفاكهة، قريته لا تختلف عن قرى كثيرة، السفر منح أهلها القدرة على أن يخرجوا خارج إطار القرية التقليدي، الزراعة وبعض نشاطات محدودة، أصبحت بها مشروعات تجارية متعددة، وبنايات على كل الطرازات المعمارية، وسيارات فارهة، حياة قاربت إلى حد كبير حياة المدن، على الرغم من أنها أيضا أسيرة الإطار الريفي بكل طقوسه، بباريس عاصمة النور كما يسمونها، عمل بكل ما يخطر على البال ولا يخطر على البال، كان مؤمنا أن مزاولة أي عمل له ناتج يفيده بحياته، الأعمال حتى لو أنه لا تجمع بينها أي شراكة هي بالتأكيد متكاملة، سلسلة متشابكة، إلى أن توصل إلى إحدى الشركات المتخصصة في صناعة العطور، التقى بمسؤوليها وتحدث معهم، بالتركيبات العطرية ونسب كل جزء منها، وأضاف إليهم بعض تركيبات مصرية لم يكن بهم علم عنها، حاوروه لساعات، ذهبوا إلى معلوماته شرقا وغربا وبكل الاتجاهات، وجدوا منه ثباتا فكريا وانفعاليا، رحبوا به، ألحقوه بالقسم الفني وقالوا له أنه تحت الاختبار لشهر وبعدها يقيمون عمله، الغرب دوماً يفكر لخطوات واسعة ممتدة، قبل العمل لقاء مع متخصص سيكولوجي ومتخصص بطبيعة العمل، يحللون كل جوانب المتقدم للعمل، يتفهمون سلبياته وإيجابياته، وسلوكياته لكل أمر لديهم قانونه، أخذ عهدا على نفسه من اليوم الاول أن يحقق ذاته وأن يكون بمكانة مميزة وبخلال وقت قصير, كان متفانيا جدا بالعمل، كان يعمل بصمت، مع رؤية لكل حدث باهتمام، كان يتابع فنيات التركيبات، حتى جاء وقت أخذ يفكر بجدية بابتكارات جديدة لعطور بشكل مغاير ومميز، اختمرت الفكرة برأسه، جلس ليال مع حالة ممسكاً قلما يخط به ما يشبه المعادلات الكيميائية، توصل إلى بعض النتائج، قرر أن يجازف ويطلب تجربة أفكاره، المجازفة أمر ضروري لتحقيق الذات، إن تخوفت من خطوة حبيسة بصدرك لن تحقق بنسبة كبيرة أحلامك، ذهب إلى صاحب المصانع وجلس عليه، طلب منه أن يمنحه فرصة لإجراء تجارب عملية لبعض أفكاره، إن نجحت فقد حقق نجاحاً للشركة، وإن أخطأ هو مستعد لتحمل التكلفة طواعية، ربت على يده بمنتهى درجات الحنان، طمأنه أنه سوف يوفر له الخامات لإجراء تجاربه، وأيا كانت النتائج نحن ندعمك، أي تجارب تخضع للنجاح والفشل، وإن لم نتقبل الحالتين لن ننجح، لك كل ما تريد

ولديّ ثقة تامة من نجاح تجاربك، نحن أعيننا عليك من البداية، وجدنا منك طموحا وإصرارا، والهدوء يسود عملك، بدأ بإجراء تجاربه، طال الوقت، لم يستسلم للمحاولات الفاشلة، زاد إصراره، صاحب العمل كلما التقاه، يشير له بعلامة النصر تحفيزا له، لم يسأله مرة عن أي شيء، بعد أكثر من شهرين توصل لنوع من العطور تيقن أنه جديد، وله رائحة غير اعتيادية، لم يتهلل على الفور، رأى ضرورة التمهل حتى يطمئن على النجاح التام، جرب مرة واثنين وثلاث, تأكد من نجاح تجربته تماما, فرك يديه فرحا، ذهب إلى صاحب العمل، حاملا القارورة التي تحمل نتاج تجربته، صاحب العمل ما إن رآه ورأى أسارير وجهه، فهم الرسالة على الفور، نهض من فوره، عانقه وقبله وأجلسه أمامه، طلب منه الهدوء، كان صدره يعلو ويهبط بشدة، كأنه كان بسباق مارثون طويل جدا، التقط أنفاسه وتناول كوب الماء الموجود على المكتب، تجرعه دفعة واحدة، لم يبال لتساقط معظم الماء على صدره، مد يده بالقارورة إليه طالبا منه أن يستنشق رائحتها ويمنحه رأيه، فتح القارورة ووضع قطرات قليلة على ظهر يده، قربها من أنفه مرات، كل مرة تزداد انفراجة أساريره وتلونها بالدهشة مقرونة بسعادة، أخيرا صاح وهو ينهض عن مكتبة:

* عظيم، عظيم، ما هذا الإنجاز؟ كنت واثقا أنك ستصل لنتيجة مبهرة، صدقت أنت فعلا عبقري، بداية نذهب بأقرب وقت لتسجيله باسمك، ولكن لابد من تحديد اسم لهذا العطر، فكر باسم يليق به، فهو سيكون مفاجأة كبيرة لكل العاملين بمجال العطور، بالغد سيكون هناك عقد محرر يمنحك نسبة خمسة عشر بالمئة من حصيلة توزيع المنتج، وهذه أكبر نسبة منحتها لأحد، وأنا بانتظار الجديد، فكر باسم.

أخذ يقدح زناد فكرة يبحث عن اسم جديد وغير متداول، بعد وقت طال بعض الشيء، مشمولا بنظرات دائمة من صاحب الشركة، أخيراً ضرب كفيه صائحا:

* لنسمه (روح الفؤاد).

*(واو)، اسم رائع وغير مستهلك، أحييك، ليكن.

لحظتها لم يعرف سببا لاختيار هذا الاسم تحديدا، لا يدري طرأ على رأسه اسم الفتاة التي عرفها على مدار سنوات، كان ببدايات الدراسة الثانوية، يسافر إلى المدينة حيث مدرسته، تصادف وجودهما وسط الكثيرين والكثيرات بانتظار سيارات الركوب، جاورته مرات، تبادلا النظرات لأيام عديدة، الخجل منعه حتى من إلقاء تحية الصباح، تلتقي نظرات العيون الباسمة لمرات، العيون تحمل من الرسائل الشديدة البلاغة أكثر مما تقوله الشفاه، ظل الأمر على هذا لوقت طويل، ذهابا وإيابا، حتى أتى يوم وجاورته بالجلوس, تبادلا النظرات الأكثر تعبيراً، ألقى عليها بالتحية خافت الصوت، ردت تحيته، تشجع وسألها عن اسمها.

* روح الفؤاد.

ردد الاسم منبهرا، هذا اسم لا يوجد بين بنات قريته وربما محافظته.

أبدى إعجابه بالاسم، اكتفوا بتبادل البسمات طوال الطريق, تقاربا كانت لا تجلس إلا بجواره، الإحساس بالأمان أهم دافع للعلاقات الجيدة، هو حرص من جانبه على الأسراع إلى الصعود

إلى السيارة وحجز مقعدا ولا يهم لو ظل هو بلا جلوس، بدأ يسير معها بشوارع المدينة حتى تصل إلى مدرستها, وأيضا بالعودة، عرف أنها من أسرة هاجرت مدينتها (بورسعيد) إبان حرب السبعة والستين، لأكثر من عشرين عاما، أسرة كانت تضم رجلا بالخمسين من العمر وزوجته وولدين بعمر الشباب أكبرهم تجاوز الثلاثين بسنوات وهذا كان أباها، والآخر بالتاسعة عشرة وابنة وحيدة بالرابعة عشرة، جاء توزيعهم بهذه القرية، عاشا بأحد فصول المدرسة الابتدائية لشهور وسط عديد الأسر، الأب أو الجد ارتأى أنه من الضروري أن يكون لهم سكن مستقل، بحث طويلا حتى استطاع الحصول على سكن على أطراف القرية، الجد كان تاجرا للملابس الرجالية والحريمي بمدينته قبل الهجرة، عاوده الحنين إلى تجارته التي عرفها، فتح إحدى الحجرات وخصصها محلا، بدأ بالنزول إلى المدينة لجلب البضائع، استطاع على مدار سنوات قليلة أن يكتسب ثقة التجار الكبار، يمنحونه البضائع دون تحديد موعد للسداد، وأيضاً العملاء لثقتهم أنه يأتي بأجود الأصناف ولا يغالي بالأسعار، تزوج الابن الأكبر والدها (محمود فخر المؤمني) من إحدى فتيات القرية، كانت هي الثمرة الأولى للزواج، الجد ابتنى بيتا كبيرا، جمع به كل أولاده، حتى ابنتة زوجها لابن أخيه الذي أتى من (بورسعيد) للعمل مع عمه، منحهما شقة بالبيت، حرصاً منه على وجود ود وعلاقة دائمة بين الأحفاد، حاليا وبعد وصول الجد إلى عمر السبعين، اكتفى بالجلوس أمام المحلات، يتابع ويعطي رأيه ببعض الأعمال، يتولى كل شيء الولدان وزوج الابنة، كانت هذه قصتها، حكى لها عن أحلامه وطموحاته، وعن أصدقائه وعمله الصيفي، تقاربا وأصبحا يلتقيان لبعض الوقت بعد انتهاء اليوم الدراسي, تبادلا المشاعر بنقاء، سارت بهم الأيام على هذه الشاكلة، إلى أن جاء يوم مازال يوجعه، بعامها الأول بمعهد التمريض، الذي التحقت به لضمان العمل على الفور، تمت خطبتها لابن إحدى عائلات القرية، أصبح اللقاء لهما مستحيلا وهو قرر لعق ألمه والبعد حرصا عليها, كان كثيراً ما يبكي حينما ينفرد بنفسه، عام واحد وعادت الأسرة بكاملها إلى مدينتهم الأصلية، باعوا كل الممتلكات، يوم الرحيل مازال داخله، وقف على البعد بعد الفجر يراقب السيارات وهي تنقل الأثاث، ثم الرحيل بمينى باص يضم الجميع كبارا وصغارا، ظل يجري وراء السيارة يشير بكلتا يديه غير مبالٍ بأية نظرات توجه له، بكى كثيرا، كان كثيراً لأكثر من عام يلف ويدور حول المنزل، حتى أن أصدقاءه كان يشاكسونه ببيت الشعر الشهير (أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار... وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار), لم تغب عن باله، تابع أخبارها من مصادر شتى، من صديقاتها وفتيات عائلته اللاتي تعرفنا بها، عرف أن (نبيل الصعيدي) ابن القرية الذي خطبها قبل عودتهم إلى مدينتهم، نقل عمله إلى مدينتها، تزوجها بعد انتهاء دراستها، عملت بإحدى مستشفيات (بورسعيد), أنجبت ابنتين يفصل بينهم ثلاثة أعوام، زياراتهم للقرية كانت على فترات متباعدة، لم يرها ربما مرة أو اثنتين صدفة، مع الأيام وهرولته مع الزمن لتحقيق أهدافه ثم سفره للخارج تناسى كل شيء، فقط بإحدى زياراته جاءت له الأخبار أن (نبيل) زوجها توفي بعد خمسة عشر عاماً من الزواج تاركا الابنتان بعمر بين الثالثة عشرة والعاشرة، يودهم أهل أبيهم على فترات، حقيقة لا يدري لماذا جاء الاسم بخاطره واختاره اسما لأول منتجاته؟ حقا مهما تباعدت بيننا المسافات والأزمان تظل الكثير من ذكريات الأمس رابضة داخلنا بحلوها و مرها، العطر الجديد شهد رواجاً كبيراً وهذا عاد إليه بالربح الوفير، خصص الكثير من وقته للوصول لتركيبات عطرية جديدة، كان الحظ حليفه واستمرت نجاحاته، مما جعل لاسمه دويا، صاحب العمل كان يدفع به إلى المنصات الكبرى، جعله ممثلا

له وللشركة بكل شؤونها، كان يقدمه بكل مؤتمر للإعلان عن الجديد، تصاعد نجمه وأتت له عروض بمبالغ تفوق ما يحصل عليه من مرتبات ونسب، ولكنه رفض لأنه تعلم الوفاء وأن الخروج إلى مكان آخر يحتاج ترتيبات قد تؤدي إلى خسارات متنوعة بعد سنوات تصل إلى الخمس، ونجاحات مستمرة قرر أن يكون له مشروعه الخاص، كان يقدم قدما ويعود إلى الوراء أقداما، ولكن بالنهاية قرر الجلوس مع صاحب العمل، الرجل الذي منحه الفرص لإثبات جدارته وذاته، ووصل به إلى قمة الهرم العملي ، كان يأخذ بيده يصعد به إلى أن يكون قائداً لفريق عمل، وأن يجعله مميزا من جوانب عدة، وبالنهاية لابد من المجازفة وعرض أمر المغادرة بحب واحترام عليه، ما إن دخل وألقى التحية حتى وجد ابتسامة كبيرة تعلو شفتي (مسيوروبير)، الذي أشار إليه بالجلوس، الابتسامة تزداد مما جعله أسيراً للدهشة والتساؤلات الداخلية التي تروح وتجيئ داخله، أراد الحديث رفع المسيو يده بإشارة ألا يتكلم، مد يده وتناول كفه، ربت عليه مرات، تحدث:

* لا تندهش أعرف سبب حضورك الآن، الحياة علمتني قراءة الآخر، وأنا من فترة منتظر هذه اللحظة، أنت جئت لتطلب أن تستقل بذاتك، صح؟

أومأ برأسه موافقا، أكمل حديثه:

* وأنا موافق، ولكن بشكل آخر لا تتوقعه، منذ أن جئت وأنا أرى بك تشابها كبيرا معي، الطموح والهدف الموضوع أمام عينيك ويسير مع خطواتك، وأعرف جيداً من اللحظة الأولى أن هناك يوما تعلن فيه حاجتك لأن تكون صاحب عمل مستقلا، لن أطيل أنا أعرض أمرا قد يزيد دهشتك، أنا أعرض عليك الدخول معي بشراكة بنسبة تحدد حسب قدرتك، ما رأيك؟

من المؤكد أنه بهذه اللحظة تملكته كل الدهشة بشتى صورها، ما يستطع النطق، عصته الكلمات وتوقفت على أبواب شفتيه، ازداد تشبثا بمقعده خشية أن يصاب بنوع من فقد التوازن، فما يسمعه فاق ما كان يتوقعه، أفاق على صوته .

* مؤكد لديك سؤال ولماذا أنا تحديداً على الرغم من المئات الذين عملوا معي على مدار عقود، أجيبك بصدق، كنت أتابعك من كل زواياك، عملك وسلوكياتك وتعاملك مع الزملاء والرؤساء، على الرغم من تميزك في صناعة العطور والابتكارات المميزة التي أثنى عليها الجميع، المنافسون قبل الآخرين الموالين لنا، لم ألمح بك غرورا، لم تترك هذا المكان على الرغم من علمي أن هناك عروضاً أكبر من هنا بكثير، لم تفكر بتركنا أو بيع أفكارك للآخرين، ثم أمر مهم هو بصدق ولا أجاملك أني رأيت بك نفسي، لأني كنت مثلك ألتمس الخطوات والطريق، لذا أنا مصر على وجودك واستمرارك، ثم أنا قد نالت مني الشيخوخة، ولن أجد أمينا مثلك، هل أوضحت؟

لم يحظ بأي رد، فقد وجد أمامه فما فاغرا على سعته، وعينين ثابتتين، وبريقا غير متناه به تساؤلات عدة وعدم تصديق، صدرت ضحكة عالية منه، وأعاد احتواء كفه ضاغطا عليها لحد ما، خالطه.

* لا تندهش ولا تستغرب، ولا تفكر أني أدفعك لمشاهدة مشهد من مشاهد أفلامكم العربية، الشاب الذي يغترب ويتزوج ابنة صاحب العمل، ليس لي بنات، هو ابن وحيد لا أعرف عنه

شيئا غادرنا منذ أن كان بالعشرين من العمر، لا نراه إلا كل كم عام، ولكني اعتبرك ابنا لي، على فكرة أنا مغرم بمشاهدة أفلام من شتى البلدان، إن أردت معرفة شعب اعرفه من ثقافته، والسينما إحدى روافد الثقافة، أنا أتكلم (جد)، وعرضي فعلي، وصدقني أنا الرابح، لأني واثق من أنك عندما تكون شريكي سوف تتحمل مسؤولية إنجاح الشركة أكثر وأكثر، أفق ولنبدأ الخطوات الفعلية سوف نستدعي مثمنا ليحدد قيمة الشركة بكل أصولها، ثم لنرى ما نسبتك على حسب قدرتك المالية التي أثق أنها جيدة تمنحك نسبة معقولة تزاد مع السنوات، ومن اللحظة وقبل توقيع العقود أنت شريكي، نهض عن مكتبة، أنهضه وهو مازال يرتدي كل أردية الدهشة، هو غير مصدق أن الرجل قرأه بهذا الشكل، نهض متثاقلا يشعر كأنه ازداد سمنة، أخذه بين أحضانه، بادله العناق والاحتضان، وجد بعض دمعات ساخنة تداعب وجهه، دموع الرجل الذي أشعره بهذه اللحظة أنه ابنه.

بخلال أيام قليلة تمت الإجراءات بكل الهدوء والسلاسة، أخذ على نفسه عهداً أن يجعل الشركة أكثر تميزاً وألا يجعل الرجل يندم على شراكته بنسبة الثلاثين بالمئة التي ناسبت إمكانياته المالية، كان يتواجد بالشركة من اللحظات الأولى للصباح حتى وقت متأخر من الليل، يتابع الصغيرة والكبيرة، يقدح أفكاره بشكل دائم لابتكار التركيبات المميزة التي لا تتشابه مع أي منتج، كانت مساحة السعادة تتصاعد داخلة، لم ينس يوماً أهله، كان دائم التواصل معهم بالوسائل المتاحة للتواصل، كان يرسل الأموال بشكل يضمن لأبيه إعداد أخواته البنات الثلاثة بشكل يتباهى به أمام أصهاره، تم شراء أراض، وإعادة بناء البيت وزيادة مساحته على طراز معماري كان هو قد جعل مكتب هندسي شهير بباريس يعده، طراز لم تعرفه بلدته وربما دولته، مكون من عدد من الأدوار كل دور أشبه بفيلا مكونة من بهو متسع مع ما يلزمه من حمامات ومطابخ وحجرة مكتب ومكتبة وسلم داخلي يؤدي إلى حجرات النوم، كل حجرة ملحق بها حمامان، وشرفة كبيرة تلتف حول كامل البيت، تحولت حياة أسرته، على الرغم من غيابة لأعوام طويلة بالبداية وصلت إلى قرابة الخمس سنوات إلا أنه لم يتبدل ولم يغير من طقوسه, يعود ينزع الزي الرسمي ورباط العنق، يسرع بل يهرول إلى ارتداء الجلباب الريفي واسع فتحة الصدر، بل كثيرا ما كان يقلد أباه وأعمامه وأخواله يرتدي صديريا حريريا مقلما تحت الجلباب، وينتعل الحذاء الريفي الشائع بغالب الريف المصري، ما يسمى لديهم (البلغة), ولا يخجل إن ذهب إلى الحقل، يجتث الحشائش ويمهد الأرض، ويفتح القنوات لوصول المياه إلى كامل الأرض، وكثيراً ما كان يصر على جر الماشية حين أوبتهم من الحقل، يخرج فجرا وسط أبيه وإخوته بهم ما يشبه الهرولة للصلاة بالمسجد، يسير بشوارع القرية وأزقتها راغبا احتضانها داخله ونيس له بغربته، يلعب مع أبناء بلدته كل الألعاب بأريحية، يتعابث معهم بلا أي حواجز، يعيش طفولته كاملة، كان دوماً رهن طلب تردده أمه مثلها كل الأمهات أن يتزوج، كان يجيب:

* يا أمي لكل منا مكتوبه وقدره، لم يحن الوقت بعد.

كانت تخطره أنها لا تريد له الزواج بمن لا تعرف طباعنا ولغتنا وحياتنا، يضاحكها قائلا:

* يا أمي نريد تحسين النسل، أطفال شقر وبعيون ملونة، كفاية هذا اللون الخمري المصر على أن يظل واضعا بصمته علينا.

تضربه على صدره بحنان تعلو ضحكاتها

* اللون الخمري لون الرجولة، لوننا الذي يولد معنا، ولكن ماذا أقول الله أعلم بمن تكون من نصيبك، يا رب تكون بنت حلال وأصل يا رب.

واصل العمل الدؤوب ليل نهار، النجاحات تأتي مرافقة للجهد، المسيو (روبير) وكأنه أدى رسالته، ألقى بغالب المسؤولية عليه، لا يتدخل إلا ببعض الأمور التي يرى أنها تحتاج لخبراته المتراكمة، تجاوز الثلاثين ومازال أعزب، هو كان مترسخ به أن لكل إنسان قدره بكل شيء، حتى كان اليوم التي جاءته شابة تمثل إحدى الشركات بهولندا، جاءت لتبرم اتفاقات للحصول على إنتاج الشركة من العطور، من الوهلة الأولى وجد نفسه ينتفض مدهوشا، غير معقول، ملامحها مألوفة لديه، رآها من قبل، بها تشابها كبير من (روح الفؤاد), يا الله، أحس بأن تيارا كهربائيا قد مسه وأربكه، بعد فترة وجوم طالت بعض الشيء، أشار إليها بالجلوس، جلست وبداخلها دهشة من هذه النظرات التي تتفرس بها بشكل يثير التساؤل، سألته بغته:

* ماذا هناك مسيو (عبد الله)؟ هل بي شيء لا يريحك؟ أراك منذ أتيت نظراتك لم تغادر وجهي.

* لا ابدأ، كل ما هنالك أني رأيت ملامح لإنسانة كنت أعرفها من زمن بعيد، الشبه كبير، آسف إن كانت نظراتي أزعجتك.

* لا عليك، الأمر بسيط

جلسا للتفاوض، تباسط معها إلى حد كبير، لا يعرف سببا هو يتعامل مع الجميع بحيادية وبأسلوب واحد، كل فترة ينظر إلى زجاج الحجرة المجاورة له، حيث يوجد المسيو (روبير), يجده يبتسم وتتسع ابتسامته أحيانا، وأحيانا يغمز له بعينيه أو يومئ برأسه، رحب بها ووجد نفسه يطلب منها أن تكون مسؤولة عن منتجات الشركة ببلدان أخرى مجاورة لبلدها، ردت عليه:

* دعني أفكر وأدرس الأمر جيداً، أنا ممن يدرسون أمورهم جيداً حتى لا تتخبط خطواتي، ولكن مبدئيا أرحب ، سآتي إليك المرة القادمة حاملة دراسة شاملة لمجريات الأسواق بعدة دول.

شكرها وانتهى التفاوض معها بشكل جعل أسارير وجهها تنفرج بشكل كبير، أعطاها بطاقته الشخصية, وفعلت ذات الشيء، ودعها حتى سياراتها.

بهذا اليوم ظل شاردا لحد كبير، على نحو لم يعتده طوال عمره، معروف عنه أنه يجيد الفصل بين الأمور الخاصة والعملية، ما الذي اعتراه ؟ لا يملك تفسيرا، فسره وقتها ربما تذكر بها (روح الفؤاد)، والأمر سينتهي بعد ساعات، ولكنه كان خاطئا، فقد زادت مساحات الشرود والتفكير بها، صورتها تخايله مرات كثيرة، كثيرا ما يفيق على يد المسيو (روبير) توضع على كتفه وابتسامة عميقة متسعة تملأ صفحة وجهه، حاول مرات إبعاد رأسه عن التفكير بها، بالنهاية لم يجد بدا سوى بالاتصال تحت مبرر السؤال عن كيفية استقبال الأسواق الهولندية لمنتاجاتهم، عندما سمع صوتها شعر بنبرة فرح بصوتها وكأنها كانت تنتظر، المرأة على الدوام تريد أن تشعر بأنها هي المرغوبة وأنها تحت الاهتمام، تحدثا بشأن العمل بعض الوقت, أخبرته أنها انتهت من أيام من دراستها لعدد من أسواق دول مجاورة، وبأقرب وقت سوف تأتي للنقاش حول كل شيء، رحب بها، بالأيام التالية تحول إلى شعلة حيوية، شعر كأن الزمن عاد به بمعية

الصبا، قرر أن يطرق الحديد وهو ساخن غير عابئ أن يوصف منها أنه متسرع في إبداء مشاعره، المشاعر لابد أن تسكب على الفور، هي لا يجب أن تنتظر، التروي بالمشاعر خطأ كبير كثيراً ما ندفع ثمنه باهظا، حلاوة المشاعر أن تخرج خارج الصدور والأفئدة لحظتها، أتت بعد أسبوع من المهاتفة، دخلت إلى مكتبة يسبقها عطرها الذي ميزه بها، أنه أول ابتكاراته (روح الفؤاد)، يا الله حتى العطر هو عطرها، لما رأت أنه سوف يعود لدهشته باغتته بالحديث:

* ممكن مسيو (عبد الله)، قبل أي حديث، أعرف ما سبب دهشتك بالمرة الماضية وبكل صراحة؟.

ضحك وبصوت عال مما زاد من دهشتها، أشار إليها بالجلوس، جلست على مضض، وجهها كله تساؤلات.

* بصراحة وبلا مبالغة بك تشابه يكاد يكون تطابقا لقريبة لي، نفس الطول، نفس الملامح، قسمات وجهك، الاختلاف الوحيد هو شعرك الطويل المسترسل والأشقر، وإحقاقا للحق أنا لم أر شعرها، النساء بقريتنا يغطين رؤوسهن بشكل كامل، ولكني لمحت بعضه من تحت الغطاء أسود، هذا هو السبب، أنا لا أعرف شيئاً عنها منذ أن تزوجت وتركت القرية، هذا هو السبب.

* غريبة، ما تقول أن يصل بيننا الشبه لهذه الدرجة، سامحك الله لقد أمضيت الأيام السابقة نهبا للبحث عن تفسيرات، وما خطر ببالي هذا مطلقا.

* أقول لك أمرا، اليوم زاد الأمر أنك تتعطرين بذات العطر المسمى (روح الفؤاد) المسمى على اسمها.

* واضح أنها كانت قريبة منك جدا.

* هي كانت ابنة عمومتي، تربينا سويا (لا يعرف حتى الآن لماذا كذب؟).

آثر الكذب درأ لفتح جدال تساؤلي، قفز بها إلى الحديث بنطاق العمل، شرحت له كل شيء بالتفاصيل الدقيقة, واضح أنها مرتبة الأفكار والعقل، وضعت بين يديه دراسة وافية بمتطلبات البلدان ووجهه نظرها للتواجد بهذه الأسواق، أخذا وقتا طويلا لم يشعرا بالوقت الذي مر، كان (روبير) يراقب من وراء الزجاج, يبتسم ويحرك يديه بحركات دالة على الارتياح، نهضت تريد الانصراف إلى فندقها، أصر على تناولهم الغذاء سويا، مازحها.

* حتى أذهب عنك وجع التساؤلات والقلق الذي سببته لك من جراء دهشتي.

ضحكت وصاحبته بسيارته إلى مطعم فخم يشاهد من خلال الجلسة به سريان مياه، امتدت جلستهم والأحاديث المتبادلة وسط ابتسامات وضحكات لساعات طويلة، ذابت الحواجز وسقطت لحد كبير، حكت له حياتها بكل وضوح، قالت أن اسمها (مرجريت هانز) ويدللونها (مارجريتا) من أسرة بسيطة الأب يعمل بإحدى مزارع تربية الماشية وتصنيع الألبان والأجبان والزبد المشهورة به دولتها، والأم تعمل مديرة بمنزل أحد الاثرياء، لديها شقيقان وأخت، هي الكبرى، خرجت للعمل وهي بالعام الجامعي الأول بكلية الفنون، هي تعشق الرسم وكل لحظات الفراغ ترسم وترسم كل ما تراه أو تتخيله، لم ترتبط بأي علاقة لا من قريب أو بعيد مع أحد،

فهي مؤمنة على خلاف أبناء الغرب، أن الأنثى يجب أن تكون لرجل واحد، حدثته عن حلمها، أن ترتقي بسلم العمل وأن تكون قادرة على تولي مسؤولية شركة كبرى، هي مازالت بالسنة الثالثة من الدراسة، مصرة على إكمال دراستها إلى مرحلة كبيرة، وهو حكى لها عن قريته وعن الأب والأم وعن مشاكسات الطفولة، كانت الضحكات تخرج من الصدور صافية معبرة عن دواخلهم بنقاء، حكى لها عن رحلته مع العمل منذ أن كان يعمل بالمدينة وهو صغير، حدثها عن أحلامه، تطابقت الرؤى والأحلام، غادرا وللمرة الأولى تقدم ووضع ذراعها بذراعة يسيران ويكاد رأسها ينحني على كتفه، تعددت اللقاءات والتقارب، كان يفرغ مكنونه للمسيو (روبير) الذي كان يبدي سعادته باحتضانه وتساقط بعض من الدمعات الحارة معبرة عن سعادته وأبوته، بعد قرابة الستة أشهر من تقاربهما وتحقق كل منهما بالتوافق مع الآخر، قرر مصارحتها برغبته بزواجها، فعلتها للمرة الأولى منذ عرفته، تعلقت برقبته، وقبلت رأسه، أومأت له بالموافقة شريطة طلبها من أسرتها قائلة:

* ألا تفعلون هذا ببلادكم؟ هذا أمر يشعر أي إنسانة بالفخر لأنها مرغوبة وإعلان ذلك أمام عائلتها.

وافقها وقال لها: من الغد نعد رحلة الذهاب إلى عائلتك لطلبك ونعود ونحن زوجان بأمر الله.

* أريد منك أمرا، لكل منا احترام ديانة الآخر، ربما بعد مرور وقت أتحول إلى الاسلام، امنحني وقتا ليكون ذلك عن كامل إرادتي وقناعاتي.

وعدها هذا أمر مفروغ منه، لها مطلق الحرية، لابد لكلينا أن يحترم تفكير ورغبات الآخر.

أعدا العدة للسفر إلى مدينة (أوترخت) الهولندية، طلب من (روبير) المغيب لبضعة أيام ، الرجل كانت تغمره السعادة وكأنه ابن له، سافرا على متن الطائرة اختصارا للوقت على الرغم من إصرارها على محاولة السفر بسيارتها، هي تعشق هذه الرحلة الطويلة، لمشاهداتها مظاهر الجمال المتعددة من زروع وأشجار نادرة، وطرق ومبان، وصلا إلى مقر إقامة أسرتها، بيت صغير يتوسط حديقة، كان الأب والأم والأخوة بالانتظار، كانوا على علم مسبق بالزيارة، الاستقبال كان حافلا مليئا بكل ألوان الترحاب الصادق، تحدثا بموضوعات شتى، أعاد على أسماعهم التعريف به من زواياه، وتحدثا عن موضوعات عامة تطفو على سطح الأحداث اليومية، تباسطا وكأنهم تعارفوا سابقا، تناولا طعاما خفيفا، بعدها عرض عليهم أنه راغب بالزواج من (مرجريت), بعد أن لمحوا أمارات الفرح على وجه ابنتهم أعلنوا ترحيبهم، طلب منهم السماح بالحضور إلى باريس لتوثيق الزواج وإعلانه بالسفارة المصرية بها، اتفقا على أن يتم هذا خلال أسبوعين، غادر على وعد باللقاء قريباً وسوف يعد العدة لاحتفال يليق بها، أرسل من فوره رسالة إلى الأهل يخبرهم به بقرب زواجه، ابتسم وهو يتخيل والدته بعد معرفتها، مؤكد سوف تضرب صدرها وتقول:

* (يا خبر، الولد ندهته النداهه) وأخذته من أهله وأناسه.

قرر بأقرب وقت يرسل لهم صورا لها، حتى تعرف مدى جمالها وتطمئن، بل قرر على حين فجأة أن يرسل بطلب حضور الأب والأم ليحضروا حفل زفافه، وهو ما فعله لحظة وصوله أن

توجه للجهة المختصة بتوجيه الدعوات من خلال الخارجية الفرنسية، أعطوه تصريح زيارة لأسبوع، هلل؛ لأن هذه ليلة تكريم لأهله.

عاد إلى العمل بروح وثابة جديدة، المسيو (روبير) يتابعه ويشاركه الحوار ويدلي بدلوه بالشؤون الفنية ثم يربت عليه ويرميه بنظرات الامتنان، ويعود إلى مكتبه، يجلس يغفو حينا ويستيقظ حينا، السعادة تدفع بقدميه للوثوب عاليا، بذات الوقت ذهب إلى السفارة المصرية، وأعلنهم بموعد حضورهم لتوثيق زواج، كان ذهب سابقا للمركز الإسلامي وأخبرهم برغبته بعقد الزواج على الطريقة المصرية الإسلامية وبعدها يوثقه، هرولاته زادت بين أمور عدة، ولكنه لم يصب بأي إعياء أو تذمر، كان عندما يتذكر وقع زواجه على والدته، تعتريه نوبات ضحك عارمة، الجميل بالغرب أنه لا يقحم نفسه بخصوصيات أحد، خلاف كل الشرق يعشقون هذا بشكل شبيه بالإدمان، يبحثون عن سبل لحشر أنوفهم في كل ما لا يعنيهم!

كان يتعجل الأيام، صار يومه مشحونا يتنقل بين العمل وبين ترتيبات حفل الزفاف الذي اختار له مكانا جميلا على السين، واكترى منزلا فخما بمكان هادئ، بمنطقة الأوبرا الباريسية، وجهزه بالأثاثات الفاخرة والديكورات المريحة للأعين، وعند اليوم المحدد أنتظرهم، جاءوا بكرفان صغير، بذات اليوم استقبل أباه وأمه، جاءا بملابسهما التي اعتادوا عليها بالمناسبات، لا يدري لماذا جالت برأسه هذه الصورة المتخيلة، أنه ربما يكون أحد الصحفيين الفرنسيين متربصا بإحدى الزوايا باحثاً عن سبق صحفي، ورأي الأب والأم بأزيائهم غير المألوفة، تخيله يضع عنوانا كبيراً بالصفحة الأولى (فاطمة عقيل) الفلاحة المصرية تغزو فرنسا!! كتم ضحكاتهم داخله، الأب والأم أصابهما الذهول مما يرونه من بنايات عالية نظيفة كأنها بنيت من ساعات، والشوارع التي لا تلمح بها ولو قصاصة ورق صغيرة، والنظام لا ضجيج ولا أصوات أبواق أو أصوات بشر عالية، اكتفوا باتساع حدقاتهم وفغر الأفواه على سعتها, ألصقا وجهيهما بالزجاج متشبهين بالأطفال الصغار يستقبلون المشاهدات بوجهيهما، تم تعارف الأسرتين ببعضهما، أخذ (مرجريت) من يدها، قدمها إلى أمه وأبيه، الأم كأنما أصابها ماس كهربائي، الدهشة احتلت كاملها، اعتراها الصمت لوقت طال بالتحديق بها، وبالنهاية أخذتها بين أحضانها وانثالت عليها لثما، وبعدما أطلقتها من بين ذراعيها، همست لولدها.

* وقعت واقفا يا ابن (فاطمة عقيل)، كنت اسمع أن نساء الغرب جلد على عظم، باردات، ولكن هذه لا وألف لا، الجمال خلق لها, وعلى الرغم من أنها لم تتكلم كما أني لا أفهم كلامها أشعر أنها خفيفة الروح.

ضحك وألقى نفسه بين أحضانها وأخذ يقبل جبينها ويديها، استدار إلى (مرجريت) ترحم لها حديث الأم، علت ضحكاتها بشكل لم تعتاده أسرتها، ارتمت في حضن الأم وأخذت تقبلها قبلات محمومة وكأنها أمها وعادت إليها بعد غياب، توسط الجلوس بين الأسرتين يقوم بعمل المترجم بينهما، ألفه سريعة تمت بينهما، تبادلا الحكايات والضحكات، بظهيرة اليوم التالي خرجوا إلى المركز الإسلامي، تمت كل أمور عقد القران بيسر وسط أجزاء احتفالية هادئة بين الجميع، تبادلا العناق، أخذوا خطابا موجها للسفارة المصرية يفيد أنه تم عقد القران حتى يتم التوثيق الرسمي، بعد انتهاء الإجراءات انتحى به الأب جانبا.

* لي طلب عندك، ممكن تأجل حفل الزفاف ليتم بين أهلنا وناسنا ببلدك، تحمل ونفذ رغبتي، وما لمسته من عائلة عروسك فلن يرفضوا.

* أكيد الأمر أمرك، وهذا شيء يسعدني أن أحتفل بأيام زواجي الأولى بقريتي، سوف أخبرهم بهذا عندما نعود إلى البيت، ولكن لنقم بالحفل الذي أعددنا له من قبل ، تم عرض الأمر على أسرة العروس، وافقوا على الفور خاصة لأمنية تعيش داخلهم من سنوات طويلة، وهي زيارة مصر، وعدهم بحضورهم قبل الموعد بأسبوع وإعداد بروجرام سياحي ممتاز لهم، عاشا لحظات احتفالية بهيجة من رقص وغناء وفرحة متصاعدة من الجميع، عادت الأسرتان كل إلى موطنها على موعد بتحديد موعد للزفاف والسفر إلى مصر، الأيام تمر بطيئة عليه، جعل من ذاته أسيراً للعمل، كان على تواصل دائم مع إخوته لتجهيزات الزفاف، طلب منه أخوه (رفيق) الذي يليه بترتيب إخوته أن لا يحدد موعد الحفل إلا بعد أن يخبره بانتهاء كل الترتيبات، من إكمال تجهيزات الدور المخصص له بالبيت على أحسن وجه, وقال له: إن كنت تريد وقتا مع أسرة العروس بالقاهرة، خذ وقتك بجولاتك السياحية والترفيهية معهم، فقط حين نخبرك بتمام الأمر تكون على أهبة الاستعداد، اتفقت مع أحد الأصدقاء يعمل بمجال التصوير السينمائي بتصوير رحلتكم من القاهرة حتى القرية والحفل ليكون لديكم ذكرى دائمة، وافقه الرأي، أصر إصراراً كبيراً على حضور المسيو (روبير) بل زاد على الأمر بأن أخذ عنوان ابنه وأرسل إليه دعوة لمرافقة الأب وفرصة ليلتقي بأبيه الذي لم يره من قرابة الخمسة أعوام، استمر انتظاره قرابة الشهرين، كان على تواصل دائم مع (مرجريت) يخبرها بكل جديد، أتت إلى باريس مرتين زيارات عمل، أخبره (رفيق) بأن كل شيء أصبح على ما يرام وعليه تحديد موعد الحفل لتوجيه الدعوات وإعداد السرادق للحفل، طلب منه أن يمنحه ساعات ويرد عليه بعد النقاش مع العروس

لم يمر من الوقت إلا حوالي ساعة، أخبر أخاه أنه تم تحديد الموعد خلال عشرين يوما من هذا التاريخ، سوف يحضر مع أسرة عروسه إلى القاهرة بعد أسبوعين يمضون بعد الأيام بها، للتجوال بهم في متاحفها وشوارعها، اتفقا على كل شيء، قام بحجز الطيران للعدد الذي سيصاحبهم، تناقش مع مساعديه بالعمل لفترات طويلة عن العمل وكيف يدار خلال فترة غيابه التي قد تتجاوز الشهر، منبها على استمرار سير العمل على نفس منهاج السياسة الخاصة به، رتب كل الشؤون الخاصة به بباريس، أتوا من هولندا قبل السفر بيوم، أمضوه بالتنزه سيرا على الأقدام، عند الساعة المحددة كانوا بالمطار، تحركت الطائرة بموعدها المحدد دون تأخير ولو ثانية واحدة، هكذا الأمور لدى المجتمعات الغربية، كل يعرف ما عليه وما له، لا تجاوز الكبير متساو مع الصغير، العدالة سبيل للوصول لأكبر محطات التحضر، كان قد قام بالحجز بفندق (الشيراتون) جناح كامل لهم، وحجرتان: حجرة له، وأخرى للمسيو (روبير) وولده، الذي يبلغ من العمر ما يتجاوز الأربعين بثلاث سنوات أو أكثر ، رشيق القوام متناسق البنية الجسدية، صاحب بشرة بيضاء كلها دموية، عرف من خلال جلسة جمعته بالأب والابن أنه سافر إلى أمريكا وهو بعمر العشرين، مثله مثل كل أبناء الأرض يرون أن أمريكا هي الحرية وهي الأرض الوحيدة التي يستطيعون تحقيق أحلامهم بها، هو كان واحداً منهم، المغناطيسي الأمريكي له قوة جذب تفوق كل الحدود، مغناطيس يجعل من يقيم على أرضها يتحول بقدرة قادرة إلى لاعب يؤدى الدور الذي يوجه له دون أدنى تفكير أو جدال، هو هاجر وراء هذا

الجذب متخليا عن الرفاهية وبحبوحة العيش التي يوفرها له الأب الذي رفض الزواج بعد وفاة الأم ليتفرغ له ويوفر له كل أحلامه، هجر أباه وهجر ثروته وسافر قائلا: أريد أن أحقق ذاتي بعيدا عن أي شيء، تزوج من أمريكية من أصل لاتيني، تعمل بإحدى كبريات شركات التأمين، لها دخل كبير، لكل منهم ذمته المالية الخاصة به، ولكل مسؤولياته المحددة باتفاق مسبق، كل شيء بالحياة محدد، أحيانا النمطية والخطوط المحددة سلفا التي تجعل من بعض أمور الحياة قريبة الشبه من العمل الوظيفي أمرا جيدا، لا يوجد إلى حد ما المنغصات المعتادة بكل زواج، أنجب منها ابنتين، لم يرهما الجد إلا مرات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، أخذهم عشية وصولهم إلى جولة على النيل، ساروا طويلا ولم يشكوا من التعب أو الإجهاد، بعد هذه المسيرة أخذهم إلى باخرة نيلية تمخر بهم عباب النيل، وسط موسيقا هادئة تنبعث من كل أرجاء الباخرة، وبوفيه مفتوح به كل الأطعمة الشرقية والغربية، أمضوا سهرة أشبعتهم سعادة، عادوا إلى الفندق، ألقوا بأنفسهم على الأسرة وذهبوا في سبات عميق، بالأيام التالية خطط لزيارة الأماكن التاريخية والأثرية، أخذهم إلى الإهرامات, حضروا الصوت والضوء، استمتعوا برؤية غروب الشمس، ركبوا الجياد والجمال، تناولوا وجبات الطعام على مدار اليوم تحت سفح الإهرامات وبوجود مميز لأبي الهول، أخذهم إلى الأحياء الشعبية، الجمالية، بيت الشعرية، عماد الدين هذا الشارع الذي كان محل تنافس بين الفرق والعروض المسرحية، شهد (داود حسني ، سلامة حجازي، عبده الحامولي، منيرة المهدية، الريحاني والكسار وجورج أبيض ، وروزا اليوسف وبديعة مصابني) وكثيرون ممن كان ميلادهم الفني من هذا الشارع، ذهب بهم إلى شارع محمد علي، شارع أرباب الحرف والموسيقيين، شاهدوا بعض المحلات القديمة التي تزين جدرانها آلة العود والكمان وآلات أخرى، صحبهم إلى جامع عمرو بن العاص، أول مسجد بني بمصر، شاهدوا وهم مأخوذون من المشهد هرولة الناس من كل الأعمار للصلاة حال ارتفاع نداء المساجد، كان يقفز بهم ويتنقل بهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، يأخذهم لقمة الارستقراطية والفخامة والعالم المليء والمشحون بكل ما هو بذخ وترف وثراء، يعيشون لحظات حالمة بين صدح الموسيقات الغربية، وعالم السيجار والمشروبات التي تحمل أسماء متعددة الجنسيات، لمنتجات الدول احتلال للشعوب من خلال منتجاتها المبهرة والتي يسيل لها اللعاب، يعود بهم للجلوس ، يجلسون بين الحرفيين البسطاء الذين يحكون أيامهم مع رشقات الشاي ونفثات دخان السجائر، يمارسون ألعاب الورق والطاولة والدومينو، أعجبهم انصهار جميع رواد المقاهي الشعبية مع بعضهم، هناك تسقط الحواجز الطبقية، واللونية والفكرية، تجد العامل والمزارع والبائع المتجول والموظف البسيط والوافدين للمدينة يبحثون عن أقارب لهم وعن سبل عيش جديدة، والفارين من شظف العيش إلى شظف آخر أخف وطأة، تخرج نكاتهم وضحكاتهم من صدورهم صافية وكأنهم يوجهون لظروفهم المعيشية الصعبة آلاف اللطمات والركلات، يتعمد السير بهم بالحواري والأزقة، يخبرهم أن لكل مكان حكاياته وتاريخه، أخذهم لمطاعم الفنادق ذات النجوم ما فوق الخمسة، وأيضا إلى مطاعم العوام، أكلوا الفول والكشري وأكل المسامط، كانوا يتلذذون أكثر بالأكل الشعبي، والجلوس بين البسطاء، خاطبه المسيو (روبير) وهم يتناولون الكوارع بأحد مسامط وسط البلد:

*لكي تستطيع معرفة شعب عن قرب لابد لك معرفته من كل زواياه، جميلها وسيئها، وأنت خالفت قاعدة التجميل السائدة، نحن قد تعودنا عند قدوم ضيوف أن نضع أمام أبصارهم كل ما هو جميل، ونضع ستائر تخفي كل ما هو مشوه على الرغم من أنهما يكملان اللوحة، ولكن كل

العالم اعتاد إخفاء الجوانب المعتمة لتجميل الصورة, على الرغم من أن إظهار العتمة يساعد على محاولات إضاءاتها، لا يدركون أن وجود عتمات أشبه بديناميت متوقع تفجيره بأي وقت فينسف الإضاءات قبل مناطق العتمة.

وافقه على تحليله، وتعاهد مع ذاته أن يجعل إخوته يتجولون بهم بين الحقول والترع والمصارف, يجلسونهم على المصاطب ليسمعوا العفوية والتلقائية عندما تغادر عقال الألسنة.

اتصل به أخوه وأخبره أن كل شيء جاهز على وجه أقرب للكمال، أخبره أنهم سيأتون مباشرة على حفل الزفاف بعد الغد، أخوه طلب منه أن لا يغادر محل إقامتهم إلا بعد وصوله إليهم بصحبة عربة التصوير، اتفقا في الرابعة عصرا بعد الغد يتحركون من أمام الفندق، الطريق يحتاج لأكثر من ثلاث ساعات سفر.

بعصر اليوم المحدد للزفاف، اصطف عدد من السيارات بالمكان المخصص للسيارات أمام الفندق، من بينها سيارة مكشوفة بيضاء فارهة من أحدث الطرازات، مزينة بباقات وأزهار على شكل قلوب, مكتوب عليها اسما العروسين، يحيط بها أربع سيارات مزينة أيضاً، غادرا الفندق تتأبط ذراعه، ترتدي فستانا وردي اللون جاءت به من أكبر بيوتات الأزياء الباريسية، صنع خصيصا لها مع مجوهرات تتناسب مع اللون، حتى المكياج قام به متخصص مكياج اسم كبير بهذا العالم، ممن يتعامل مع نجمات السينما ونساء الطبقة المخملية بالفندق، الذي جاء للمرة الأولى في حياته منذ اللحظات الأولى بالنهار، قضى ساعات طويلة في تجهيزها، ركبا السيارة المكشوفة، سارت السيارات كأنها سيارات جهة سيادية تقطع الشوارع، تسير أمامهم على مهل شديد سيارة مكشوفة أيضاً لها عدد من المصورين المحترفين الذين يقومون بالتصوير من نقطة الانطلاق حتى وصولهم إلى سرادق العرس، لفت الموكب أنظار المارة خاصة وهو يمر في وضح النهار، بعض المارة أخذ يصفق وبعض النساء اللآتي تصادف مرورهن أخذن يطلقن الزغاريد المدوية، تتصاعد أغاني الأفراح بوقت واحد بالأغنيات المختارة، وعلى رأسها أغنية (مها صبري) الشهيرة.

* (ما تزوقيني يا ماما.. قوام يا ماما).

تقترب السيارات وتكاد تلتصق بالسيارة، يقذفونهم بالأزهار متعددة الألوان والرائحة، وسط الضحكات التي تجلجل وتكاد تصل عنان السماء، قطعوا الطريق المفترض أن لا يتجاوز زمن الساعتين أو أكثر قليلا، استغرق الوقت لأكثر من أربع ساعات، على مشارف القرية كان هناك حشد كبير من أبناء القرية تتوسطهم فرقة عزف بالمزمار وراقص للتنورة، وخيل يرقص، أنزلوهم من السيارة، أحاطوا بهم وسط دائرة العازفين وراقصي الخيل، التصفيق الحاد يتصاعد من كل المتواجدين، طال الوقت بعض الشيء، دخل إلى الدائرة أحد إخوته , أخذ بيديهم يقودهم إلى خارج الجمع المحتشد، عادا إلى السيارة، سارت بهم الهوينا نظرا للحشود الكبيرة المتواجدة، وصلا إلى حيث السرادق، توقفت السيارة تماما أمام منصة العروسين، فرق الرقص الشعبي، والغناء والزغاريد وكل ألوان البهجة كانت هي غلاف الليلة التي استمرت حتى الساعات الأولى من الصباح، قضوا أسبوعا بالقرية، كانت السعادة تغمرها، صرحت كثيراً فيما بعد، أنها للمرة الأولى بحياتها تفهم معنى الدفء العائلي، بقية الأهل كانوا يتجولون بصحبة إخوته بين كل شبر بالقرية، تآلفوا مع أهلها على الرغم من الفاصل اللغوي بينهم، الألفة تذيب

أي فوارق، عادوا إلى باريس، لتبدأ رحلة استمرت لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، لم ينغصها إلا رحيل المسيو (روبير)، بعد مراسيم جنازته، جلس مع ابنه، وناقشه حول أن يظل شريكاً أو يبيع حصته، وافقه على بيع حصته، اتسعت مساحة أعماله بمعاونتها له على فتح أسواق ببلدان عديدة، كان حريصاً على شراء الأراضي الزراعية لإخوته وبناء المنازل التي تليق بهم، وشراء الفلل بالشواطئ، كان يستدعي أبناء إخوته للعمل بشركاته, فجع بعد حوالي خمس سنوات بوفاة الأب وبعدها بشهور لحقت به الأم، ومن هنا زادت مساحات غيابه عن التواجد بمصر وبقريته، كان لا يبخل على قريته بإرسال المساعدات لبعض أهلها والتعاون ببعض مشروعاتها العامة، أنجب بنتا اتفق مع زوجته على تسميتها (روح الفؤاد) داعبته يومها قائلة:

* يبدو أنها قصة حب وليس كما قلت قريبة لك، عامة أوافق لأن البرفان المسمى باسمها هو الأشهر بين منتجاتنا، والابن أسماه (أكرم)، أصر على تعليمهم بأفضل المؤسسات التعليمية، تعلما بالسربون، الابنة اختارت الموسيقا، أثبتت براعتها وموهبتها، أصبحت ضمن العازفين بالأوبرا الفرنسية، طافت معهم العديد من الدول، والابن عشق البرمجيات، نال العديد من الدورات التدريبية ببلدان عديدة، يتولى الشؤون الخارجية لشركات الأب ومسؤول الاتصال والربط بين الشركات التي تتعامل معهم، على الرغم من غربته ومعيشته الطويلة بأوروبا لم ينس يوماً تقاليده الريفية، كان حريصاً على الصلاة وقراءة القرآن الكريم دوماً، منح زوجته مطلق الحرية في ممارسة طقوسها الدينية، لم يجادلها يوماً، الأبناء كان حريصاً على إدخالهم إلى الطقوس الدينية بالحوار وبالإقناع العقلي ونجح، صاروا يصلون ويقرأون القرآن الكريم ويصومون، وسلوكياتهم تسير بإطار الدين لم يحيدوا عنه مطلقا، كان على تواصل هاتفي مع صديقيه المقربين (رضوان أبو الحمد), و(لوكا ديموس), كان يلتقي (رضوان) على فترات متباعدة، ولكن كان يلتقي (لوكا) كثيراً لكثرة تردده على قبرص.

أما عن تواصله مع (رضوان) بعد سنوات طويلة من عدم التواصل، تواصل معه ببدايات غربته، ولكن بتوالي الأعوام تقلصت مساحات التواصل، غابت أخبارهما عن بعضهما، مؤخراً حصل على رقم هاتفه من (عبد الله التحيوي) باللقاء الأخير الذي أعلن خلاله زيارة مصر، تواصل معه، هو بغاية الاشتياق لصحبة الأمس، آه لو يعود بنا زمن الطفولة، ولكن هيهات ما يمضي لا يعود، ولكنه بكل الأحوال هو مخزون رائع راسخ داخلنا، نعود ونجتره بين الحين والآخر.

تم الاتصال مع (حسين) لتعريفه بضرورة حضوره مع زوجته وابنته بعد الغد بمكان سكن(رضوان) قبل العاشرة صباحا، أكد على حضوره بالموعد، اختطف التليفون من يد (رضوان) شاكسه ضاحكا قائلا.

* لا تأتي مرتديا ثوب العقلانية والحكمة، انزعهما عندك ولا أقول لك: احرقهما، سوف نعود مجانين طوال أيام الإجازة.

شاركه من الطرف الثاني ضاحكاً وممازحا.

* تمر الأعوام بلا عدد وتظل مجنوناً كعهدنا بك، أعدك أحاول فقط محاولة لا تعاتبني إن ظللت على حالي.

طال الحديث بينهم مع التذكير ببعض المواقف القديمة، مغلقا بالضحكات العالية والخافتة.

طلب أن يذهبوا جميعاً إلى (بئر مسعود), شاكسه (رضوان):

* هل مازالت لك أمنيات أخرى ؟

* الإنسان يا صديقي لابد أن يظل بحالة تمنٍ دائمة وإلا صار بلا طموح وتتوقف حياته عند حد معين لا يمكن تخطيه، وهنا يكون بحالة أقرب للركون والموات.

* صرت فيلسوفا.

* الأيام ومتغيراتها والناس وتحولاتها إن لم تعيها وتفهمها لن تستطيع ترويضها.

* لك حق.

أسرعوا بالنزول والذهاب إلى (بئر مسعود), وقفوا حول البئر، الكثير من كل الأعمار يحيط بالبئر، الكل يقذف بعملات معدنية، يتمتم بهمس أو بصوت أقرب للخفوت، يبوح بأمنياته، الدهشة تعتري ملامح زوجة (لوكا), لا تفهم أو تستوعب ما يحدث أمام عينيها، تتنقل عيونها بين الحشد الملتف حول البئر وزوجها، الذي بعدما لمح توهج دهشتها وكثرة علامات الاستفهام على الواقفة على شرفات شفتيها وقسمات الوجه، رفع اليد بما ينبئ بطلب الإنصات إليه، امتثلوا لإشارته.

* بداية هذه اللحظة تذكرني بلحظة مماثلة من أكثر من سبع وعشرين عاماً، فقط كنت وحدي بلا وجود لحشود، ممكن أشخاص لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، كنا بعد منتصف الليل، بوقت اشتد فيه المرض على أبي، كنت أتعذب لألمه المكتوم والمعلن همسا، ضاقت بي الدنيا، على الرغم من أني كنت أدير العمل بمنتهى الدقة ويمكن أكثر من أبي، ولكن الهم الذي سكنني، ماذا بعد رحيل الأب؟ وهذا كان جليا للجميع طال الأجل أو قصر، صحيح يترك لي ثروة طائلة لا يشاركني بها أحد, ولكن أيضاً لا توجد لي ثروة عائلية, أقارب من بعيد لا أعرف سوى أسمائهم، لم أرهم أو يروني, إذاً هناك مسافات بعيدة، فكيف أشعر بالأمان، كان أبي بلحظات وعيه القليلة وساعات غيابه عن الوعي لا يفتر عن ترديد رغبته بأن يدفن باليونان، دوما يردد بكلمات تخرج بصعوبة ومتقطعة من شفتيه.

* لكل إنسان مواطنه الأصلي حتى لو لم يولد به أو يعيش على أرضه، بالنهاية هو يحمل الانتماء إلى موطنه.

يومها جثوت على ركبتيّ قريباً جداً من فتحة البئر، أخذت أقذف قطع النقود المالية بلا إدراك لكمها وقيمتها، تمنيت وأنا أكاد أصرخ.

* يا رب أعني على غربتي القادمة، أنا بالطريق إلى بلد لا أعرفه ولا يعرفني، لأعيش بين أناس لا يجمعني بهم إلا أننا نحمل انتماء لوطن واحد، أعني على قادم أيامي، على أن أحقق أحلامي بأن يكون لي نجاحات وقفزات متصاعدة، أعني على أن أتعايش مع محيطي الجديد بما لا يخل بطقوس حياتي، من هو دوماً رفيقي.

واليوم جئت لأقدم الشكر للرب وبذات المكان الذي تمنيت به، واليوم سوف أتمنى أمامكم أمراً واحداً، أن أكمل حياتي على هذه الأرض التي شهدت ميلادي وبدايتي رجل أعمال، وأن تظلوا معي كما كنا بأيامنا الأولى، وما نسيت أن أخبركم به هو أني مازلت أحمل الجنسية المصرية التي أصرّ أبي أن أحصل عليها قبل مرضه بسنوات.

واستدار مرتميا إلى أحضان (رضوان), يتبادلان حديث الدموع، عاود الحديث مختنق الصوت.

* آمنت أننا مهما تغربنا نظل مشدودين لمسقط رؤوسنا حتى لو كنا نحمل جنسيات أخرى ومزدوجة، أنا أصريت على وجود جنسيتي المصرية، أنا طفت العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوباً، لم أجد مثيلا لهذا البلد، لا أجامل أو أبالغ، هذا البلد تذوب بين ناسها بأسرع وقت ممكن، يشعرونك أنك واحد منهم، كلهم أحاسيس تظهر ولا تخفي، صدقوني لو قلت: إني كنت عندما ألتقي بأي مصري أو مصرية بأي بلد كنت أهرول لمصافحته، كنت أستمد منه دفئها، وكم من مواقف دهشة تعرضت لها لقيامي بهذه الهرولات والمصافحات، ما كان يعينني هو تلقي رسائلها من مصافحة ناسها، يااااه كم أحب هذه البلد، واليوم أشهدكم على قرار أخذته وهو أن تكون المقر الرئيسي لشركاتي وأعمالي هنا، ورحلاتي هي للفروع، من هنا تدار كل أعمالي.

طلب من كل منهم أن يتمني أمرا، (كريستينا) قذفت قطعة النقود بمرح وصاحت:

* أتمني أن أظل أعيش هذه السعادة مع حبيبي زوجي.

أما (ناهد) فتمنت:

* أتمنى أن أعيش ما بقي من العمر بين زوجي وأولادي وأحفادي.

(رضوان) تمنى:

* أن أعيش يومي في طاعة الله، وأن نعود كما كنا مجموعة أصدقاء مقربين بلا فراق.

أخذوا يتأملون المحيطين بالبئر، شاب وشابة يتمنيان أن يكملا الطريق سويا، وأخرى تتمنى أن يمن الله عليها بالذرية، وأخرى تتمنى أن يعود الزوج إلى صوابه، ومن يتمنى أن يوسع الله رزقه، أخذوا طريق العودة، لنوال بعض الراحة، بالغد العودة إلى القاهرة وإعداد عدة السفر إلى الغردقة، وانتظار حضور(حسين) وعائلته.

..12..

..بهذه الليلة نام الجميع نوما عميقا ، كل منهم بكامل الهدوء النفسي، لم يؤرق نومهم أيٌّ من أنواع الأرق، هذا أخذهم إلى النوم حتى ظهيرة اليوم التالي، حينما تجمعوا على مائدة الإفطار كانوا يتبادلون النظرات الحبلى بتساؤل وحيد: ماذا حدث للنوم كل هذا الوقت؟ على مدار حياتهم لم يحدث لهم هذا مطلقا، فهم من حملة رؤوس دائماً بحالة يقظة، تفكر حتى وهي نائمة، هم دائمو التفكير بالأمس واليوم والغد، يستدعون الأمس، يفكرون في نسلهم من أولاد وأحفاد، هم من جيل خلق لتحمل مسؤولياته من البداية إلى النهاية، خرجا سويا لشراء بعض حاجيات

ومتطلبات السفر، مع محاولات عدة من (رضوان) لإقناعه بأن كل شيء متوفر بالغردقة ولا ضرورة لهذا، قال له مرات:

* نحن ذاهبون إلى مدينة سياحية بالدرجة الأولى، وبالضرورة توافر كل شيء لها، نحن لسنا ذاهبين إلى صحراء جرداء.

لكنه أبي وأصر على ما يريد، صاحبه على مضض غير قانع عن هذه الرغبة، تركا الزوجتين تعدان حقائب السفر وما يلزم لفترة الإقامة، تجولا كثيراً بالمحال، أصر (لوكا) على شراء ملابس بحر (لرضوان)، حاول الرفض كثيراً وهدد بالعودة وحيداً وتركه يفعل ما يريد، فهو لم يعتد النزول إلى البحر مطلقا، يكتفي بالجلوس على مقعد قريب من البحر، عاري القدمين، يعشق أن تداعب المياه قدميه مدا وجزرا، والتأمل بمن يرتادون الشاطئ، ولكن أن يرتدي ثياب البحر لا وألف لا، هو لا يتخيل نفسه مرتادا مياها عاري الساقين وعاري الجزء الأعلى منه، ويحيط به جمع من البشر ، نساء ورجال، شباب وشابات يمارسون العبث بكل ألوانه، شاتمه قائلا:

* أعرف تماماً سبب رفضك، هل تظن أني نسيت يوم ذهابنا طأبورا برفقة معلمة الفصل إلى الوحدة الصحية لأخذ حقن (الطرطير) للقضاء على البلهاريسيا المتفشية بهذا الوقت؟ يومها كنت أنت رافضا الذهاب وحاولت كثيراً الفرار من الطأبور، ولكنهم أحكموا السيطرة عليك، طول المسافة من المدرسة إلى الوحدة الصحية وأنت تبكي مر البكاء وتصرخ بعلو الصوت، كتفوك وأنت تتناول الحقنة، وأخذت بالعويل بلا انقطاع لدرجة أنهم ذهبوا بك إلى البيت، يومها قابلك أبوك بنظرة لوم عنيفة صارخاً بك.

* هل أنت صغير لتبكي؟ يا حبيبي هذا بحر وليس ترعة ولا توجد حقن(الطرطير)، لا تقلق سوف أكون بجوارك حتى لا يقترب منك أي جنس بشري، ولو أردت أن أصنع حاجزا وأكتب لافتة: ممنوع الدخول إلى هذه المنطقة، منطقة محظورة ، يوجد بها (رضوان أبو الحمد), أفعل وأطلق ضحكاته عالية غير مبال برواد المحال، بالنهاية لم يكن أمامه الا الامتثال.

طلب منه أن يذهبا إلى مقهى (الفيشاوي) القريب من (محطة سيدي جابر للسكك الحديدية)، سأله:

* هل المقهى شبيه تماماً بمقهى القاهرة؟

* مؤكد هناك فارق، مقهى القاهرة تؤمّه جنسيات شتى وأصحاب قلم بشتى فروع الإبداع، أما هنا مجرد مقهى عادي وإن كان يؤمّه أحيانا حسبما سمعت بعض كتاب الإسكندرية وضيوفهم.

جلسا بحدود النصف ساعة على المقهى، تناولا الشاي، (لوكا) كان شغله الشاغل هو متابعة الخارجين والداخلين من وإلى المحطة، كل يحمل بطياته الكثير.، هناك من يحمل وجعا، وهناك من يحمل أحلاما، وهناك من يحمل شوقاً طال انتظاره ليلتقي بحبيبة أو زوجة، وهناك وهناك ، لم يطل بهم المكوث طويلا، عرجا وهم بالطريق على أحد محلات الأسماك الشهيرة، طلبا أسماكا مشوية ومقلية مع أرز السمك وما يلزم من شهيات، عادا إلى البيت يحملان حبورا، فور

دخولهم نادى على(فابيو) الذي أتى مهرولا على الرغم من كهولته، ولكنه وهذا ما يثير تساؤلات فابيو أنه مازال رشيقا يشعرك أنه بمقتبل العمر، خاطبه:

* أعد نفسك أنت وأحفادك، سوف تأتون معنا، لا تتأخر بتجهيز ما يلزمك، على فكرة أحضرت لك ملابس بحر لأعرف صدق حكاياتك عن كونك كنت سباحا كبيراً.

* والله كنت سباحا وكنت أمثل بلدي بالمسابقات الدولية ورشحت فترة لعبور المانش ولكن سامح الله أباك قدس الله روحه اختطفني بحبه وإنسانيته ومنعني من التتويج العالمي وأن تحتل صوري كل الصحف والمجلات، ولكن الحق كسبت أباك وكسبتك أنت.

تعالت ضحكاتهما الرنانة تخرق هدوء المكان مرددا بكره نرى المياه تكذب الغطاس، بعدها اكتفى الرجل بإيماءة من رأسه وأخذ طريقه للانصراف، ما إن دخلا حتى طلبا من الزوجات إعداد الطعام لحين الانتهاء من اغتسالهم وبعدها مؤكد سوف يخلد الجميع للنوم إلى ما شاء الله، أمامهم سفر طويل إلى القاهرة، يسافرون بهدأة الليل، ثم أن وجبة السمك تسبب في الغالب بعضا من الوخم الذي يستدعي النوم، بعد الغذاء دخل كل إلى حجرته وذهب في نوم عميق، لم يستيقظوا الا عند الثامنة مساء، نفضوا غبار النوم بحمامات دافئة منعشة، طلب(لوكا) مكتب السيارات طالبا سيارة لتأخذهما إلى القاهرة بعد ساعة على الأكثر، تأكدوا من جاهزية كل الحقائب، جاءهم من يخبرهم أن السيارة بالانتظار، استقلوها طلبوا من السائق عدم الأسراع، الاحاديث المتبادلة القليلة تتم بينهما، ثم أخذ كل منهما بالشرود قليلا، كل منهم يتذكر لحظة لقائهما الأول، كانا يلعبان الكرة كل منهم بفريق، كل منهم يرى الآخر للمرة الأولى، كانا بحوالي السابعة أو الثامنة من العمر، كان كل منهم يلعب منافسا للآخر حسب مركزه بالملعب، وكان لابد لهما من المواجهات المباشرة لمرات عديدة، في إحدى هذه المرات اصطدم (لوكا) بعنف (لرضوان) الذي صرخ متألما ولكنه نهض ولطم (لوكا) أكثر من مرة، أخذ الذهول منه بعض الوقت، ولكنه أسرع بالإمساك (برضوان) طارحا له أرضا وأخذ يكيل له اللطمات واللكمات، والصراخ يتعالى، حتى فرقوا بينهما وهرول كل منهما مليئا بآثار الضرب، دخل كل منهما إلى حجرته مغلقا بابها عليه، مرتميا على الفراش ملتحفا بغطاء على الرغم من أن الوقت كان صيفا ولا يستدعي الأغطية، ادعى كل منهما النوم، تخيلوا أن الأمر لن يعلم به أحد، ولكنه لم يكن حقيقياً، عند طعام العشاء افتقدت كل أسرة طفلها، ذهبت كل أم إلى حجرة ولدها لتدعوه للعشاء، فوجئت الأمهات أن كلا منهما مغطى تماماً بالغطاء السميك، الدهشة اعترت كل منهما، رفعتا الغطاء وفوجئتا بالخدوش والدماء المتجلطة على الوجوه، نادت كل منهما على زوجها، جلس كل أب بجوار ابنه متسائلا عن السبب، بين البكاء والكلمات التي تخرج أشبه بالكلمات المتقاطعة حكى كل منهما ما حدث، طلب كل أب من ابنه أن يغسل وجهه ويرتدي ثياباً نظيفة لمصاحبته، خرج كل منهما وربما بذات التوقيت، كل يجر طفله جرا، ومن المصادفات التي لا تحدث إلا نادراً ونادراً جداً أن يلتقيا في منتصف الطريق بين منزل كل منهما، بادر الحاج(الحسيني) (ديموس) بالقول دون أن يعطيه فرصة البدء:

* أنا جئت به ليعتذر لكما، ولكن العذر أنهما أطفال لا يعون ما يفعلون، شقاوة عيال.

ضحك (ديموس) بل قهقه لوقت طويل، وتكلم تخرج الكلمات تتخللها الضحكات المتتالية، مما أصاب (الحسيني) بالدهشة، نظراته مصوبة تتساءل، لم ينتظر طويلا جاءته الإجابة.

* معذرة يا حاج أنا أضحك على أن كلا منا جاء وهو يحمل اعتذرا للآخر، سبحان الله على توارد الخاطر والفكرة، فعلا هم أطفال وليسامح كل منهما الآخر، وأشار إلى ولده طالبا منه احتضان(رضوان) وتقبيل رأسه والاعتذار له، وهو ذات ما طلبه الحاج من ولده، ارتمى كل منهما بأحضان الآخر، تبادلا العناق والقبلات، من هذه اللحظة لم يفترقا وصارا متلازمين دوماً، تجدهم دائماً معا، أفاق كل منهما من شروده الوقتي، تبادلا النظرات، اعتلت بسمة عريضة وجه كل منهما، بادرة (رضوان) بالقول:

* ألم تكن تفكر بما أفكر به أنا، أجزم أنك كنت تستعيد معرفتنا الأولى.

لم يُجب، بل ارتمى بأحضان صديقه يربتان على بعضهما، يضحكان بصوت عال، مما أصاب الزوجتين ومن معهم بالدهشة، حكيا الموقف لهم، تشارك الجميع بالضحك، عقب (لوكا).

* عرفت الآن أن التشابه موجود، حتى بالأفكار، وعرفت أننا جميعاً ندور بدائرة كبيرة تضيق أحيانا وتتسع أحيانا ولكن بالنهاية لابد لنا للعودة لنقطة البدء، سبحانك يا رب.

طلبوا من السائق أن يفتح المذياع وبصوت عال درأ النوم عن أعينهم، أخذ كل منهم طريقه إلى حجرته وكذا خصصت حجرة (لفابيو) وحفيديه، لم يمض وقت طويل حتى كان الجميع بحالة نوم عميق، استيقظ (رضوان) على رنين الهاتف، (حسين) يخبره أنه بخلال نصف ساعة يكون أمام البيت، وأن لديه خبرا سارا بشأن أرض السرايا، وأنه توصل لأرقام (صلاح وكارم أولاد الباشا حسن الفراهيدي), حينها تهللت أسارير (لوكا) وصرخ فرحا، بل إنه وقف على ساق واحدة ورقص رقصة فرح، وبذات الوقت اتصل (عبد الله) يخبرهم أنه بوقت الظهر يكون متواجداً، وتأكد من وجود السيارة التي تقلهم جميعاً، بالموعد المحدد وصل الجميع، أخذوا يصطفّون بانتظار السيارة، صعد الجميع للأماكن المخصصة لهم وهم بحالة إشراق واضح يرتسم بكل صوره على القسمات، انطلقت بهم السيارة على مهل حسبما طلب (لوكا) فهو لا يحب أن تمر المشاهدات التي يمرون بها بشكل لا يمنح فرصا للتأمل، المقارنة بين ما كان وما هو واقع أمر مهم لديه، يرسم له خريطة التغيير من كل الزوايا، الاجتماعية والثقافية والمعمارية والسلوكية، مؤشرات لصعود أو هبوط، هو يجيد هذا التحليل من خلال عمله ورحلاته المتعددة، بكل رحلة يقوم بها حتى ولو كان الفاصل الزمني ليس كبيراً يوجد التغيير، ما كان يثير دهشته هو التغيير التام بمفردات اللغة والسلوكيات، كثيراً ما كان يرى جنوحا حادا للتمرد على إطار حياة ظلت سائدة لقرون، يتبادل الحديث بينهم ثم يعود إلى حالته الأولى من التأمل، جميعهم يعرفون هذا عنه منذ الصغر ، ما كان يفلت شيئا يراه دون أن يتناوله بتفسيراته الخاصة وتحليلاته، لكل إنسان طباع يمارسها ويعيشها مهما أصابتها رياح المتغيرات، بعد مسيرة ساعات وصلوا إلى حيث القصر المنيف وليس (فيلا) كما كان يقول دائما (عبد الله) وقفوا دقائق يتأملونه من الخارج، شاهق الارتفاع مكون من أكثر من طابق، تلتف به الأشجار من كل جوانبه، إلا من جانب الشرفات التي تطل على الطريق، بُني على طراز معماري يجمع بين الإسلامي والبيزنطي، ألوانه فريدة تجمع بين بانوراما برع من عملها، أشار إليهم بالدخول، طلب منهم ترك حقائبهم أمام المدخل طالبا أن يصاحبونه بجوله تعريفيه بالمكان، كلما سارت خطواتهم تزداد مساحات الدهشة، أركان للجلوس معدة بأشكال متباينة تختلف كل منها عن الأخرى، من زوايا الشكل والطراز ولكن بالأخير يجمع بينها تناسق جمالي، أكثر من ثلاثة

حمامات سباحة، أحدها محاط بما يشبه السور قال لهم: إنه مخصص للسيدات، وأخبرهم أن بأحد الجوانب، حمامين چاكوزي مقسمين للرجال والنساء، كل خطوة تتصاعد معها آهات الدهشة، يكتفي (لوكا ورضوان) بالربت عليه إبداءً لإعجابهم بما يرون، طالت جولتهم لأكثر من نصف الساعة، ولم تنتهي المشاهدة، طلبوا منه تأجيل البقية لوقت آخر هم بحاجة إلى الراحة، دخلوا إلى بهو واسع شديد الفخامة والديكورات الرائعة وعدد من الصالونات بين (المودرن والكلاسيك) تتناثر بأرجاء المكان، اتسعت حدقاتهم وتبادلوا النظرات ، على أحد درج البهو القريب من سلم الصعود وجدوا سيدة لا يمكن وصف جمالها ورشاقتها، من جمالها اشتق الجمال، أشار إليها (عبدالله) وقدمها لهم.

* (مدام سميرة) مديرة المكان.

طالبها بإعداد الطعام بخلال ساعتين بعد نومهم لبعض الوقت، اكتفت بابتسامة قصيرة علت الشفتين.

رحب بها الجميع بإيماءات من الرؤوس، أخذوا طريقهم إلى الصعود ، كل منهم حسب اختيار مكان إقامته، (رضوان) اختار الدور الأخير لعشقه للأدوار العليا، والثالث اختاره (حسين), وكان الثاني من نصيب(لوكا)، وهو كان من نصيبه الأول، داعبه (لوكا) .* عليك حراسة المكان وسكانه.

الطابق ليس مجرد طابق يعلو آخر، بل قل: قصر يعلو قصرا، مظاهر الرفاهية تسود المكان، (ديكورات) على أعلى مستوى، تحف و(أنتيكات) تملأ جنبات المكان، الصالة تنبعث من جنباته تلاوة القرآن الكريم بصوت خافت، كل حجرة تنبعث موسيقا ناعمة هادئة شديدة الهدوء مما يساعد إلى نوم هادئ، تضم سريرين وحماما مستقلا حسبما قال، المياه به تصنع ما يشبه المساج المائي وبأكثر من مستوى بين البارد والدافئ، وبكل حجرة يوجد تليفون داخلي، تمتم كل منهما داخليا.

* زده يا رب العالمين، وضع الله أمامه فوضعه الله في معيته.

ألقى كل منهم نفسه على فراشه وذهبوا جميعاً برحلة نوم عميق مليئة بكل ارتياح وهدوء نفسي، كل ما يتذكرونه أن ذاكرتهم صارت صفحاتها بيضاء تماماً لا تحمل بها أي شيء، لا يعرفون مساحة الزمن الذي مر عليهم وهم نيام، صحوا بوقت يكاد يكون واحداً، على صوت رنين الهاتف المجاور لكل فراش، يخبرهم أن عليهم الحضور، الطعام جاهز، تدافعوا لإزالة آثار النوم عن أعينهم ونزلوا، المائدة تتوسط البهو، مليئة بكل صنوف الطعام، وأطباق الفاكهة وقوارير المشروبات، أشار إليهم بالجلوس، وأشار أيضا إلى (فابيو) وحفيديه، وأيضا إلى (سميرة), حاولوا الرفض أصر قائلا: لا فرق بيننا، أنا ضد الطبقية وأعقبها بضحكات عالية ملأت أرجاء المكان ضجيجاً مرحباً به, الطعام تتخلله أحاديث وحكايا تدعو للضحكات، انتبهوا وسارعوا بالجلوس بالشرفة المطلة على الطريق والقريبة من البحر، النسيم يأتيهم ينعشهم، تناولوا العديد من المشروبات، النساء يجلسن بركن قصي يحكين عن بعض مواقف مرت بهن تجمع النقيضين: المؤلم والمفرح، عند إعلان مغيب الشمس طالبهم (عبدالله) بالنهوض والذهاب إلى الشاطئ الخاص به، حتى يستمتعوا بلحظة أوبة الشمس إلى مكان راحتها الليلية، أماكن جلوس

معدة جيداً تظللها مظلات مصنوعة من أعواد البوص وأجزاء من النخيل، السؤال الأول الذي فاجأ به (لوكا) حسين.

* ماذا عن موضوع السرايا، هل أعلنتهم عن رغبتي للشراء.

* بالحقيقة أخبرتهم أن هناك من يريد الشراء بجدية ولم أعلمهم عن هويتك، تاركاً الأمر برمته لحين اللقاء معهم، هم بانتظارك بعد أسبوع من الآن بنادي الإعلاميين بشارع البحر الأعظم لقربه من سكنهم، وعليك تحديد الزمان، معي أرقامهم.

* إذاً اتصل بهم الآن وأخبرهم بأننا نلتقي بهم مثل هذا اليوم الثامنة مساء، وعليهم الحضور مع محاميهم وكافة أوراق السرايا، وأنا سوف من خلال (رضوان) نرى محامياً يصاحبنا.

أخذ (حسين) جانباً وأجرى الاتصال المطلوب وتم التوافق على الموعد.

(مارجريتا) وجدت نفسها مشدودة إلى (ثريا) بعد عديد من النقاشات التي جمعت بين مجموعة النسوة، انتحت بها جانباً وأخذا يتناولان أطراف الحديث، حتى أن (ثريا) أخبرتها عن تجربتها الزوجية، بل تركتا الجلسة وأمسك كل منهما بيد الأخرى وساروا على الشاطئ، شعرتا بأن هناك ما يجمعهم على الرغم من الفارق العمري، فكرت بأمر بأن تزوج ابنها (أكرم) الذي قارب الخامسة والعشرين والرافض للزواج منها, همست لنفسها، سوف أرتب للأمر مع (عبدالله)، ضمتها إلى صدرها وقبلتها كثيراً على رأسها.

طالت بهم جلسة البحر والتي تتخللها الحكايا وتناول بعض المسليات، النساء شعرن بالبرد فطلبن الانصراف، فما كان عليهم سوى الانصياع لطلبات الزوجات، الكل ينصاع للنوم، انتظارا ليوم جديد قرروا أن ينزلوا للبحر بعد الفجر مباشرة، وتسليم أنفسهم للبحر يقذف بهم يمنة ويسرة ،النساء اكتفين بالجلوس على حافة الشاطئ، يداعبن المياه بأقدامهن، يتأملن عبث الرجال الذين تحولوا إلى صبية صغار يقذفن بالمياه عليهم ويتسابقون سباحة ويهرولون وراء بعضهم، الضحكات تعلو خارج الصدور لا يصاحبها أي وجع أو هم، ما أجمل أن نستعيد طفولتنا التي نتناساها بخضم هرولتنا نحو الحياة، الطفولة الحياة بلا أي تحمل المسؤولية وانعكاسات الأحداث عليهم، يخرجون من البحر، يلقون بأنفسهم على الرمال، ينتظرون سياط الشمس تلسعهم تعطيهم مساحات من الدفء والحيوية، الذهاب هرولة إلى مائدة الإفطار الجاهزة تماماً من كل الصنوف، تزداد شهيتهم وشهيتهن بعد هذا المارثون اليومي، الأيام الجميلة تمر سريعاً، أربع ليال مضت، كأنها ساعات أو لحظات، التقارب كان سريعاً وإلى حد غير متخيل بين النساء، (مارجريتا) ذات ليلة حدثت زوجها بوضوح عن محاولة ترتيب زواج ابنهما (أكرم) من (ثريا)، أثنت عليها كثيراً قائلة:

* البنت متزنة، عاقلة، مثقفة، من الواضح أن لديها قدرة على التحمل.

* هذا أعرفه لأني أعرف (حسين) وكيفية تربية أولاده، المشكلة ليست هنا، المشكلة ابنك الذي يرفض، ولكن لنحاول ربما يكون قد جاء قرار الله، أمامنا متسع من الوقت، عندما نعود نتناقش وندبر لهم لقاءً، يا ميسر يا رب.

بعشية الليلة الأخيرة تجمع الرجال على الشاطئ وعلى الرغم من لسعات البرد لحد ما الا أن الدفء غمرهم عندما بدأوا بالحكي والنبش بمكنون الحكايات المختزنة داخلهم، زعق (لوكا) صارخاً.

* لتكن هذه ليلة الأمس البعيد، وليسامحنا الله على بعض النميمة.

أشاروا إلى (حسين) بأن يكون صاحب السبق، وضع سبابته أسفل ذقنه، وأخذ يمرجح رأسه يميناً ويسارا كأنه يزيح عنها ثلوج الأيام.

* ما أتذكره دوماً هذا العام الذي تعرضت به البلدة لسيول لا مثيل لها كل السماء فتحت صنابيرها بلا حدود، كم من البيوت تهدمت، ومنسوب المياه يغطي قامة طفل بالعاشرة، الصراخ والعويل يسود القرية، الرجال أخذوا بشق مصارف بين شوارع القرية والترعة وتركيب ماكينات المياه على رأس كل شارع وشفط المياه لصبها بالقنوات التي تصل إلى الترعة، الصراع محتدم بين السيول وبين الرجال، والنسوة كل ما كان عليهم الحرص على الأولاد وإعداد الطعام للرجال، الذين استمروا لثلاثة أيام متصلة، حتى سكتت السماء وأرسلت السماء بعضا من أشعة الشمس، الكل سعى لبناء ما تهدم من بيوت، ولكن من جراء هذه المعاناة سقط الكثير مرضى وأسلم الروح قرابة العشرة أشخاص، هذه لا تغيب عن ذاكرتي على الرغم من أني كنت بحدود السابعة أو الثامنة من العمر، أمر آخر وغريب أن هناك عاما أسميته أنا عام الجثث، كل شهر تقريباً تربض بحواف شاطئ الترعة جثة من الجثث، يندفع أهل القرية للمشاهدة، والخفراء تأتيهم أوامر شيخهم الزاعق على الدوام، أبعدوها عن زمامنا، ينزلون بقطع من الشجر يدفعون بالجثة إلى تيار المياه ليأخذها نحو بلدة أخرى ومؤكد ينم ذات الحال، القرية تقف عن بكرة أبيها كل يفسر ويحلل ويؤلف حكايات ولكن الحكاية الحقيقة تظل مجهولة إلى أن تستقر عند قرية وتقوم الشرطة بالمعاينة والتحري، لكل جثة حكاية منها هذه الجثة التي أبت كل محاولات الخفراء دفعها بعيداً ولم يكن هناك بد من إبلاغ الشرطة التي جاءت وعاينت وسألت ووجهت اللوم للعمدة ورجاله لمحاولاتهم تغيير وجهه الجثة، بالتحري الذي استمر أياما اتضح أن الجثة لأحد التجار كان له وسيط من القرية يدله على بضاعته، تقاربا والتاجر كثرت زياراته للقرية ولمنزل الوسيط تحت أستار الليل، توطدت العلاقة بينهم وزادت هداياه، أبهر الزوجة التي خاطبها بالنظرات ثم بالمداعبات اللفظية، ثم دبرا أمر لقاءاتهم الخاصة، طال الأمر حتى كان يوم تم ضبطهم متلبسين، فأتى الوسيط بسكين وانهال عليه طعنا بل وأمر زوجته العشيقة أن تشاركه الطعن حتى أسلم الروح، حملاه ليلا على حمارهم وقذفوا به بعيدا بحوالي أكثر مما يقرب من كيلو بالقرب من قرية مجاورة، ولكن الجثة أبت إلا أن تعود إلى قريتنا وتم إماطة اللثام عن الجريمة، دخل الوسيط السجن، والعشيقة ولت فرارا لم يعرف لها مكان للآن وكانت بلا أولاد.

تناول منه خيوط الحديث (عبدالله).

* لن أذهب بكم كما ذهب (حسين) إلى ماض بعيد، سوف أحدثكم عن أمس قريب ربما لم يمر عليه إلا عشرة أعوام أو أكثر أو أقل ، هل تتذكرون (حازم عطوان)، هذا الولد المكتنز الوجنتين من صغره وكأن زيادة عمره مؤشرها زيادة وجنتيه، وجنتاه اللتان كانا دوماً كثيرة التعرض للصفع من قرناء فصوله التعليمية، من صغره وعرف عنه أنه دائم النظر لما يملك

الآخرون، حسود وغيور، لازمه هذا حتى وصل إلى كلية العلوم، بعدها عمل بأحد معامل التحاليل الطبية بإحدى المستشفيات, تعرف على أحد العاملين بمجال الصحافة الإقليمية، استطاع بأسلوبه المعتاد التقرب لمصادر الأخبار بكل الطرق، عرف أماكن سهراتهم، قام بتجنيد بعض الفتيات اللاتي يحلمن بعالم الصحافة، دفع بهم إلى الأقسام الشرطية يتقربن لمن يتلقون أخبار الجريمة على تنوعها، بخلال شهور زاد توزيع الجريدة وزادت مواردها الإعلانية، بمواسم الانتخابات على اختلاف وتنوع مسمياتها يضع خطة محكمة جلبا لإعلانات كل المرشحين وفبركة قصص ذاتية مع عنهم لا تمت للواقع بصلة، ولكنها تضعهم بمصاف أصحاب الخوارق، بخلال عامين أقنع صاحب الجريدة أن يتحول إلى شريك له, تقرب بفترة من عالم الكتاب والمثقفين بالمحافظة، سعى للحصول على عضوية نقابة الصحفيين ولا تعرف كيف حصل عليها على الرغم من أن الصحيفة غير رسمية، وسعى إلى الحصول على عضوية نادى أدب المدينة، وبأساليبه بعد فترة استطاع الوصول إلى رئاسته، وإلى رئاسة نادي الأدب المركزي للمحافظة، قطع حديثة بضحكة عالية أثارت دهشة الجميع، لم يتركهم طويلا نهبا لها, أكمل:

* تذكرت حين هاتفني يوماً وكنت على صلة قريبة منه إلى حد ما، أخبرني أنه يدعوني لحضور مناقشة رواية له أسماها (أبي الذي مات), يومها ولا إراديا خرجت كلمات ساخرة مني، قلت له كنت تسميها (أبي السقا مات), وبطبيعة الحال لم أذهب فلا طاقة لي بتحمل لقاء كثيرمجاملات وإطراء وقليل شعارات وكلمات مكررة معتادة تقال بمثل هذه لفعاليات، فوجئت بعد فترة بوجوده ضمن الكتاب بصحيفة كان لها مسمى ذائع بهذا التوقيت، وبعدها بشهور أطل علينا من خلال برنامج تلفزيوني بإحدى القنوات الخاصة، لم أعد أهتم بمتابعته ربما لتوقعي نجاحاته التي لا تعتمد إلا على الفهلوة ومعرفة من أين تؤكل الكتف، وأساليب المداهنة وركوب الموجات المتتالية، غابت عني أخباره ولم أهتم بمتابعته مطلقا، حتى كنت يوماً جالسا بأحد (كازينويهات) جزيرة (رودس) بانتظار بعض رجال الأعمال لإبرام بعض الصفقات، وقعت عيناي على شخص جالس بأحد الأركان وحده، بثياب شديدة الفخامة، يرتدي نظارة شمسية من النوع الفاخر، أخذت أتأمله مرات حتى أتحقق من أنه نفس الشخص، تأكدت نهضت ذاهبا إليه، لم ينتبه إليّ، وضعت يدي على كتفه، نظر إليّ وبوغت للحظة ولكنه نهض محتضنا لي، دعوته على مشروب سألته عن سبب وجوده، قال إنه بانتظار بعض الأصدقاء لإنهاء بعض الأمور ، فترة قليلة أتى إليه ثلاثة رجال لم ترحني سماتهم، تركتهم له، وغادرت، عدت إلى مائدتي، أتابعه عن كثب، طال بهم الوقت بين نقاشات يبدو أنها كانت على المقابل، علمت فيما بعد بسؤال النادل عن هؤلاء الرجال قال: إنهم يقومون بتوفير رخص لصحف، فهمت كل شيء، ولم أعرف عنه شيئا بعدها، أظن (حسين) ممكن أن يكمل، استكمل الحديث (حسين):

* بالحقيقة لم يتغير مساره كثيراً، صفقات مريبة تعود عليه ببعض الأموال، بفترة تالية أطاح بصاحب الجريدة، واستمر بالرقص على كل الأحبال، يلتصق تماماً بالكفة العليا، وكلما تغيرت ظروف الأمور يقفز بسرعة للكفة الرابحة، حتى جاءت ثورة يناير واختلط الحابل بالنابل، ركب موجة الإخوان، التصق بهم تماما، لم يعد يغادر من مقر الإرشاد، يدس أنفه بقرارتهم، شارك برابعة والنهضة ويشارك بخطط التنكيل بالأفراد والشرطيين والجيش، تصاعد نجمه، تجده يطل من كل النوافذ الإعلامية، حتى قيل وقتا ما أنه رشح وزيراً للإعلام، ولكن لم ينل هذه الحظوة،

ثورة يونيو قطعت حبال أهدافه ورغباته، اختفى لم نعد نسمع عنه شيئا، حتى فوجئنا به يطل علينا من منابر تركيا التي خصصت للهجوم على مصر وقيادتها، مات أبوه ولم يستطع حضور جنازته، إخوته أصبحوا يتبرأون منه، ومازال يعيش هناك يقال إنه يمتلك (فيلا) فاخرة بحي تقسيم التركي وأنه يتقاضى مقابلا كبيراً بالدولار مقابل كل حلقة، ما زاد عليه كلما طل علينا أنه زاد بحجم وجنتيه بكل اختصار أراه نسخة كربونية من شخصية (محفوظ عجب) التي برع بتصويرها (مصطفي أمين) بروايته (صاحبة الجلالة) هناك أمر آخر أريد الحديث عنه إن أذنتم، أتته موافقة الجميع:

* سوف يلفت نظركم قبل دخولكم إلى طريق القرية أو للأمانة كل طرق القرى المجاورة وبعض مدن المحافظات شلالات من الدعاية المكثفة، مجموعة شركات العادلي للاستيراد والتصدير، تجد منها شركات للسيارات على كل نوعياتها ومراكز صيانة، استيراد مواد غذائية، حديد تسليح، اسمنت ، وغيرها لسنا ضد الثراء لأي إنسان، ولكن الثراء المقنن الذي جاء نظير جهد سنوات، ولكن أن يولد بهذا الشكل بين يوم وليلة فهذا المدهش والمثير للتساؤل، كلنا نعرف (محمود العادلي) رأس هذه الشركات، أنه كان عاملا بشركة سماد طلخا مثله مثل المئات من أبناء القرية الذين يعملون بها، إنسان بسيط قطعة أرض ودخله من عمله يعيش مستورا مثل الكثيرين، ما جد عليه بسنواته الأخيرة، كان يذهب كل يوم جمعة إلى قرى مجاورة تشتهر بعسل النحل ويعود محملا بكميات كبيرة منه، عبارة عن عبوات متعددة الأشكال والأوزان، وكل يوم بالصباح أثناء ذهابه للعمل يحمل بحدود العشرة كليوات من عبوات العسل، هذا الحال ظل عامين أو ثلاثة على الأكثر ، تقاعد من العمل ولكنه استمر بالذهاب بحمولته اليومية، وبغتة وبلا سابق أي مؤشرات فوجئت القرية بمحل كبير والمكان مميز يحمل اسم العادلي لمنتجات العسل ممتلئ عن آخره بكل منتجات العسل، بديكورات مميزة وإعلانات تملأ الطريق بالقرية تماماً، وبسرعة بل لنقل بهرولة شديدة وجدنا فروعا ومخازن، وعلى المسافة منذ الخروج من القاهرة حتى تصل إلى بلدتنا تجد عشرات من معارض السيارات على تعدد استخداماتها، ركوب، نقل ثقيل، نقل خفيف، نصف نقل، باصات، مينى باصات، وهبطت على القرية كل نوافذ الإعلام بكل صوره وبكل نجومه الكبار يأتون بكاميراتهم يجرون اللقاءات، حتى أتى وقت أن تنقلت بين القنوات تجدهم يطلون عليك من كل البرامج المدفوعة الأجر بالتأكيد، حتى تندر أهل القرية بأنه من الممكن أنك عندما تفتح صنابير المياه مؤكد تجد لهم وجودا، إضافة إلى نجوم الفن والرياضة مصريين ومحترفين، صارت بلدتنا مكانا يحج إليه المشاهير طوال العام، انتقل النشاط إلى أنشطة أخرى وبذات الهرولة، حار الناس بتفسير هذا الثراء الفاحش، منهم من قال: إنه عثر ببيته أو بقطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها على خبيئة أثرية، وأنه وضعها (بأجولة) أي: الشوال باللهجة المصرية، وأخفاها لبعض الوقت، وبحث عمن يسوقها، وهناك الكثيرون المعلومون والمستترون بهذا العالم، لديهم استعداد بلا أي تورع لبيع بلدانهم وتاريخها، وصل لأحدهم ساعده بتصريف هذه الخبيئة مقابل نسبة كبيرة، وهناك من قال: إنها عملية توظيف أموال أو تمويلات خارجية أو غسيل أموال لصالح كبار أصحاب الحيثية الذين يحبون الاختباء وراء آخرين، كل هذا قيل ويقال وسيقال ودون أدلة، دوماً تجده يجمل شوارع القرية، يدفع مصروفات الدراسة للكثيرين، يتكفل بالعديد من الأسر التي تعاني، يضيئ الشوارع، وأشياء أخرى، هذا كله أيضاً لا يمر مرور الكرام على الجميع، يفسرون أنها ستار لما خفي والعلم عند الله، وبالفعل مازال كل يوم تجد قفزة كبيرة بأنشطته، الحاج (محمود العادلي) ازداد

صحه وكأن الثراء يضيف عافية ويزيد من إعادة الخلايا إلى حالتها الأولى، يجلس على كرسيه أمام المحل الأول، يحيط به عدد كبير من الوجهاء ومن أصحاب عضوية المجالس النيابية، حتى أن شباب القرية تندر بأن طلبات الإحاطة وسن قوانين تصدر عن مطبخه الخاص، وأقول لكم الحق: إن مطبخه أيضاً متكفل بكل شؤون القرية، وأيضاً تجد صفين من رجالات القرية الذين لا يعملون، يجلسون بانتظار بعض تعليماته بأي عمل أو بانتظار النفحات، ولكن هل تعرفون من أكثر التصاقا به من بدايات إلى نهايات اليوم وعلى حسب التوقيت الذي يعلنه الحاج (محمود), (فتحي المأذون) هذا المتلون حزبيا والدائم البحث عن عباءة حزبية يخوض بها الانتخابات التي خاضها كثيرا وعلى كل مستوياتها وفشل بها جميعا ، ولكنه صار مدمنا لها، تنقل بين كل الأحزاب المصرية شهيرها ومجهولها، ملتصق به تماماً حتى تندورا أنه يكاد يكون العباءة التي يرتديها الحاج، تأتي به سيارة وتعود به سيارة أخرى من رهط السيارات الكبير الذي يملكه، الوجبات تأتيهم من أكبر مطاعم المدينة، بنى لكل من أولاده بيتا على أحدث طراز أما هو فمازال يقيم ببيته القديم وعلى حالته التي لكي تصل إليه لابد لك من الوصول إليه بالسير بالجنب، هو بحارة شارعها لا يصل إلى المتر، ومازالت التساؤلات مثارة بلا إجابات.

تبادلوا النظرات وضرب بعضهم كفا بكف، عقب (لوكا).

* على فكره هذه ظاهرة عالمية، هناك منظمات وعصابات كبرى تدير مثل هذه الأمور يسمونها مافيا، والأغرب أنها بالغرب تأخذ سمة الشرعية وتدفع الضرائب على الرغم من أن كل أعمالها مشبوهة، ولكن العالم كله تبدل، دول تهيمن وتسيطر وتحرك الخيوط كما تريد وبما يتوافق مع ضروریاتهم، فلا غرابة أن تجد لهم أذنابا بكل بلد وفي كل مجتمع، هذه المجتمعات تغمض أعينها مادامت تضيف إلى مواردها ولتذهب كل الاخلاقيات والمشروعيات إلى الجحيم.

نظروا إلى (رضوان) يحثونه على الحديث، طلب منهم هدنة للتهدئة وتناول بعض المشروبات لتزيح جفاف الحلوق مما قيل، بعد مشروب مثل تحدث:

* لعلي هنا أتكلم عن ظاهرة سادت وتسود من عقود، ظاهرة أشبهها بالسوس الذي ينخر في أوصال الوطن، وهذه نماذج لا تؤثر بأي حال من الأحوال ولا تلوث الثوب الأزهري حامل لواء الإسلام الوسطي ، التسربل بالدين وبثياب غير الثياب الحقيقية لبعضهم، سوف أحدثكم وربنا يسامحنا لأن أحدهم وهو (فتوح حماد) بين يدي الله، ولا تجوز عليه الا الرحمة، والله هو صاحب الحساب، عرفناه جميعاً وإن كان يكبرنا بعقد أو يزيد ، ابن وحيد ومعه أخت واحدة، الأب يمتلك عدد من الأفدنة، نال من الدلال ما لا يمكن وصفه، حتى عماته الثلاث اللاتي لم ينجبن على الرغم من زواج كل منهن أكثر من مرة دون تحقيق حلم الإنجاب، والغريب أن كلا منهن بزواجها الأخير كن يتحولن إلى أرامل ويرثن ثروات كبيرة، كانت كل طلباته مجابة دون نقاشات، كان شديد الشغب مع الجميع يثير المشاكل، يغازل بنات القرية دون أي رادع، ألحقه أبوه بالتعليم الأزهري بحثا عن بعض من التهذيب السلوكي، ولكنه ازداد شغبا ما من يوم إلا مشاجرة بينه وبين آخرين سواء من القرية أو من قرى أخرى، كوّن له فريقا ينصاع لأوامره للحصول على بعض المال منه، عندما نال الشهادة الثانوية الأزهرية قام الأب بالتوسط لدى قريب له أحد أعضاء الجمعية الزراعية للعمل، وبالفعل عمل أمين مخازن، إلى جانب دراسته بكليته الأزهرية، دراسته لم تكن تسير سيرها المفترض، طالت فترة دراسته،

حتى إنه استمر بدراسته الجامعية حتى تجاوز الثلاثين، الغريب على الرغم من الثراء الفاحش الذي يعيش به إلا أنه خلال توليه أمر مخازن الجمعية تعرضت للسرقة مرتين، والمثير للتساؤل هو أن من يسرق كان يسرق الأصناف غالية الثمن ولا يقرب للأصناف الأخرى، وهذا ألمح وأشار إليه دوماً، ولكن كانت تمر مرور الكرام وتقيد ضد معرفة الفعل، ولكن بعد عديد السنوات إحدى قريباته وهي على فراش الموت اعترفت للجالسين حول فراشها وهي تعاني سكرات الموت أنها كانت هي من تخفي المسروقات حتى تنتهي هوجه التحريات ويقوم بيعها لأحد تجار الأسمدة والمبيدات بقرية مجاورة كان يطلقون عليه نظراً لقصر قامته وطريقة سيره الغريبة (الأرنب), وطلبت من أولادها ألا يسير بجنازتها أو يحضر عزائها وياحبذا لو منع من دخول بيتها، لم يبوحوا بالسر ولكن أحد الحاضرين لحظة البوح أشاعه، تغيرت نظرة الناس إليه، أنهى دراسته، وتزوج ممن كانت الشغل الشاغل لكل شباب القرية، هي تزوجته لما يمتلكه وما سوف يمتلكه من ميراث عماته، بحث عن سفر للخارج حتى يتخلص من نظرات أهل القرية، بالفعل نال السفر للسعودية إماما لأحد مساجدها، كان يتمتع بقدرة فذة للخطابة فشاع صيته ووصل أسماع الكبار بالمملكة فطلبوه لأحد كبرى المساجد، دوماً المسجد مكتظ، أصبح له ركن خاص للفتوى وإبداء الرأي بالمسائل الفقهية، زادت ثروته بوفاة الأب والعمات وما يحصل عليه من رواتب ومقابل فتاويه، إلى حد ما نست القرية ما كان، عاد إلى القرية بعد ما يقرب من عشرين عاماً، بعد عام واحد وطُلب من دولة الكويت، لا نراه إلا أسابيع كل عام، أنجب من زوجته ثلاثة أبناء وابنتين, عاد بعد أن أصيب بمرض حار به الأطباء، أنفق الكثير على رحلة علاجه، ظل طريح الفراش لقرابة عامين، كان القول الشائع أن علاجه طال لتطهير أمواله، مات ذات صباح، خرجت القرية تشيعه تبكيه وتدعو الله أن يغفر له، رحمه الله، الآخر يكاد لا يختلف كثيراً، يذهب صباحا إلى معهده الديني بالمدينة حاملا مطواه داخل قفطانه، كثير الشغب وكأنه خلق للشغب، مارس رياضة الكاراتيه التي كان يسير بشوارع القرية تراه يقوم بحركة من ألعابها ضد أي أحد من المارين به، تدبرعمٌ له يعمل بعمل مهم بالسعودية بعمل له بعد انتهاء التعليم الجامعي، ظل لأكثر من عشر سنوات هناك، أنجب أولاده بها، عاد وسعى لأن يكون المأذون الشرعي وحصل عليها بعد وساطات عديدة، كل هذا جميل، ولكن عندما توفي عمه وزوجته وكانا بلا أولاد نسي شرع الله وقال: إن عمه كتب له كل شيء وأظهر أوراقا تشير لهذا، ثار إخوته وطعنوا بالتزوير، استمر الأمر سنوات ما بين تأجيلات وطعون واستشكالات وغيرها من حيل المحامين، طوال هذه الفترة كان قد استولى على قطعة أرض أملاك دولة وأقام سورا حولها، بعد مداولات لسنوات بأروقه المحاكم ثبت تزويره ونال حكما بالسجن لخمس سنوات، خرج بعدها لا يستطيع الخروج من بيته لشهور ولكن خرج وعاد إلى عمله كمأذون ولا نعرف كيف عاد، أظنكم عرفتموه (عماد الميرغني)، ما أردت أن أقوله أن هناك كثيرا من المتسربلين تسللوا لحياتنا على حقائق مغايرة لحقيقتهم، قس على هذا الكثيرين بكل مفاصل الدولة، هم يتوالدون ويتزايدون بشكل مخيف، ولكن ربك بالمرصاد، ولكن العظة هنا أن الله يمهل ولا يهمل، والسؤال الدائم هنا، لماذا القانون لا يطبق بحذافيره ودون تروٍ أو منح فرصة للدفاع إلا على الفقراء الذين تلفق لهم وتلصق بهم تهما لمجرد أنهم حاولوا مقارعة رؤوس الكبار حتى لو من على مسافات طويلة وبعيدة، ولا يعرف الطريق مطلقا ولحقب زمنية طويلة تتعاقب خلالها الأجيال وتتبدل أماكن إلى الفاسدين المعروفين لكل الناس، بالفعل تساؤل يسكن حشايا الكثيرين، ولكن يبدو أن لا جواب وسيظل القانون يسن وينفذ على الكادحين والمعدمين

ومن لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم إلا إذا انصاعوا وأذعنوا وجثوا على ركبهم وبهم استعداد لتنفيذ أي أمر حتى لو قاموا بفعل القردة، عجين الفلاحة وما شابه؟ وهل من الضروري أن نرى البقع السوداء على الثوب الحياتي الأبيض ولماذا؟ وهل من الحتمي أن يطال ثوب الحياة الكثير من الرتوق والبقع السوداء، تعرفوا ما مشكلة البشرية؟ المشكلة أن الجميع ينتظر أن تأتيه كل الأيام والليالي الجميلة دون سعي أو جهد منه، الجمال لا يأتي وحده لابد من السعي له، لو فعلنا هذا من الممكن أن نبعد أي بقع وأي رتوقات بثياب الحياة، شاركه الجميع هذه التساؤلات التي لا يوجد لها إجابات أو من المحتمل إيجاد أي إجابات لها!!.

أمن الجميع على قوله ونهضوا للنوم.

13..

عند انبثاق فجر اليوم التالي، كانت السيارة تقف أمام القصر، توالى نزولهم كل يحمل حقائبه، كانوا قد اتفقوا على الذهاب إلى القاهرة وانتظار لقاء (صلاح وكارم) لشراء السرايا، (لوكا) قال: إنه حجز بفندق، (وعبدالله) أفاد أن له شقة بالتجمع, (حسين) وأسرته سوف يقضيان اليومين عند (رضوان), كان قد تم الاتصال بالمحامي (فكري الخياط) ليكون على أهبة الاستعداد للحضور إليهم حال طلبه، بليلة الأمس تحدث (عبد الله) مع زوجته حول ما اقترحته بشأن ارتباط ولدهما (أكرم) بثريا، اتفقا على أن يطلبها من أبيها وأن تكمل دراستها العليا بجامعة (السوربون) وتكون تحت رعايته وهو يتكفل بكل شيء نظراً لعلاقاتهم القديمة وأنها مثل ابنته (روح الفؤاد)، من المؤكد سيرفض كثيراً ولكنه واثق من قدرته بمعاونة (رضوان) على إقناعه، وبعدها سوف تسير الأمور سيرها الطبيعي، وتم التوافق على أن يكون هذا بعد إنهاء أمر أرض السرايا، السيارة تنهب لهم الطريق والكل أسلم قيادة لنعاس هادئ ربما يتخلله بعض الذكريات، تم إيصال (لوكا) إلى الفندق مودعا لهم ومؤكداً على (حسين) تأكيد الموعد مع أصحاب السرايا، ضاحكاً:

* قبل أن يفكر بها (محمود العادلي) من مثله تتمدد عباءته كل لحظة.

ثم أيضا إيصال (عبد الله) وزوجته إلى فيلته بالتجمع الخامس، أشار إلى (حسين) .

* ليلا بيننا حديث تليفوني مطول، لدي أمر أود عرضه عليك.

ثم كانت نهاية المطاف بيت (رضوان)، الجميع أخذ طريقه إلى حجرات النوم راغباً بالاسترخاء والإمساك بتلابيب كل اللحظات والتي عاشوها بين الأمس واليوم، والكل أخذ طريقه إلى حجرات النوم مهرولا طلبا للاسترخاء والإمساك بتلابيب النوم محتضنين أيام عاشوها بين الأمس واليوم، لم يصدق كل منهم أنهم استغرقوا كل هذا الوقت بالنوم، الساعات بمعاصمهم تشير إلى قرابة العاشرة مساء، يا الله أكثر من سبع ساعات من النوم العميق، اتصل (لوكا) طالبا من (حسين) الاتصال حالا (بصلاح وكارم) والتأكيد على لقاء الغد، بالثامنة مساء بنادي الإعلاميين، وسوف يأتي ليصطحبه هو و(رضوان) الذي عليه التأكيد على المحامي، وأنه سيتواصل مع (عبدالله)، كلهم شركاء له بالأمر، قام بعمل ما طلب منه, طال بهم السهر كل

بمكان إقامته الخاصة، بعد صلاة الفجر، أسلم كل منهم قيادة للنوم من جديد، اليقظة كانت قرب العصر ، صلوا ما فاتهم من صلوات، جلسوا لتناول الغذاء، النساء صممن على الخروج بعض الوقت، زوجة (حسين) بها رغبة لزيارة المسجد الزينبي وبعض مساجد آل البيت إن سمح الوقت، وافقوهم على أن يكونوا بغاية الانتباه على حالهم، وإن عادوا بعد مغادرتهم لا يقلقون سينهون مشوار (لوكا) مع أصحاب السرايا ويعودون بلا تأخير، جلس كل منهم بزاوية من زوايا الشرفة ممسكاً بكتاب الله، يقرأون بخشوع تام، لا يشغل بالهم وفكرهم شيء مطلقاً، فالله هو الأمان الوحيد في فوضى الأرض الدائمة، استمر بهم الأمر بلا مدى، لم يخرجوا من القراءة إلا على رنين الهاتف الخاص (برضوان)، أتاه صوت (عبدالله) يخبره أنه أسفل البيت ومعه (لوكا)، التقيا معا حالا وأنهم بالانتظار، كان رده ربع ساعة ونأتي إليكما، أسرع كل منهم بتبديل ملابسه، هبطوا الدرج على مهل، كل منهم ركب سيارته، ساروا أشبه بموكب خلف بعضهم، ساعة وكانوا يقفون أمام أبواب نادى الاعلاميين بشارع البحر الاعظم، ترجلوا ودخلوا صحبة واحدة، ما إن دخلوا فوجئوا (بلوكا) يسبقهم إلى أحد الأركان، ويقف أمامه ساهما شاردا، تبادلوا النظرات المتسائلة والدهشة، تدور أعينهم بمحاجرها، لم يطل بهم الأمر كثيراً، أجلسهم حول مائدة بذات الركن، أشار إليهم بالإنصات له:

* لا تندهشوا هذا الركن تحديداً يذكرني بحدث من أكثر من ثلاثين عاماً، يومها أخذني صديق لي ينتمي للجالية اليونانية وكان له بعض محاولات كتابات الشعر، سافرنا من الإسكندرية إلى القاهرة، وصلنا بحدود الثامنة مساءً، وجدنا لهذا الركن تحديداً رجلا يتوسط مجموعة من الناس، توليفة من أنماط بشرية مختلفة، تجد الحرفي والصنايعي والفلاح والمثقف والارستقراطي شديد الثراء وعطورهم المختلفة ما بين الرخيص المصنع محليا ويدويا والغالي الوارد من بيوت العطور العالمية، والثياب المختلفة، الكل يجلس دائرة حوله بل أن بعضهم يجلس أرضا، همس لي صديقي باسمه (محمود السعدني)، الاسم لم يكن غريباً عن مسامعي، تذكرت أنه يسمى (الولد الشقي)، جلسنا بين الجالسين، نسمع له وحمدا لله أننا جئنا قبل بداية حديثه، قبل الحديث يشاكس هذا وذاك، يلقي بصفات ذات طابع ساخر على بعضهم، وبعد إفراغ جرابه من نكاته ومسمياته، يستند تماماً إلى مقعده، يتحدث ولا تسمع أي همس، حتى يخيل إليك أنهم فقدوا أنفاسهم وأسلموها لملك الصمت، يتحدث:

* بداية معرفتي بعالم المثقفين والصحفيين كان عن طريق صديقي الرسام الكاركتيري الكبير (طوغان)، طلب مني مصاحبته إلى حي الجيزة، دخل بي إلى حواري وأزقة مليئة بالحفر والمياه والراكدة والأسنة، والأطفال الذين هم عنوان لكل ألوان البؤس، أسير بجواره وأنا أنظر إليه مراراً متسائلا إلى أين يأخذني هذا (الطوغان)، كان قد أخبرني أننا بالطريق لتجمع مثقفين من زبدة المجتمع الثقافي والصحافي، كلما زاد سيرنا كلما التساؤل يأكل داخلي، كيف يكون هناك أي مثقف بمثل هذا المكان، ولكن تمتمت ربما سخطاً لم أظهره، ربما الثقافة لا تثمر إلا بمثل هذه البيئات البائسة، وصلنا إلى بيت أسفله محل للسمين (حشايا الحيوانات) من كبده وكوارع ومخ وممبار وخلافه، رائحتها تأتينا من على مسافات بعيدة، صعدنا إلى الدور الثاني، طرق الباب، فتح الباب عن عملاق حافي القدمين، قادنا إلى حجرة جانبية وأجلسنا على حصير مهترئ، وقدم لنا الشاي، كل هذا وأنا لا أعرف من يكون، نفد صبري، زغدت (طوغان) بصدره موجهاً بصري بحده، فهم مغزاها، مال على مهمسا (زكريا الحجاوي)، الاسم جعلني

أجد نفسي جالساً على ركبتي أتبادل النظر بين (طوغان) ومن قال إنه (زكريا الحجاوي) غير مصدق، (زكريا الحجاوي) كان شهيرا جدا بالفن الشعبي، جاب كل البلاد بحثا عن التراث الشعبي، وكم من أسماء قدمها لهذا الفن (خضرة محمد خضر)، و(محمد طه)، و(أبو دراع) وغيرهم، بعد استيعاب الحدث وتباعاته من الدهشة، غادرنا الأخ (زكريا) للحظات وعاد مرتديا زيا أفرنجيا شديد الفخامة، حينها أيقنت أنه هو (زكريا الحجاوي), قطع حديثه بضحكات صاخبه، وكأن الثياب توثيق لأصحابها، صاحبنا إلى مقهى (عبد الله) بميدان الجيزة، مقهى يجلس به صباحا تجار القطن، وبعض من أتى لحضور جلسات بمحكمة الجيزة، وبعد الظهر يجلس إليها المثقفون والكتّاب على تنوع أجناسهم الإبداعية والفكرية، صحبنا إليها ووجدنا العديد من الأسماء التي كنت أحلم أن اقترب منها وأراها بعيوني، وجدت (أحمد رشدي صالح) أحد كبار كتاب الفن الشعبي، و(أنور المعداوي)، و(سيد قطب) و المحامي الشرعي الشهير حينها (عبد الحميد قطامش) وآخرين، بالفعل هم زبدة المجتمع، من هنا بدأت علاقتي بهذا المكان الذي لن أكون مبالغا إن قلت: إنني سكنت به كل أوقاتي، به كانت انطلاقاتي وله تعرفت على (الخميسي)، صاحب المقولة الشهيرة لتعريف نفسه (أنا مثل الكرة كلما قذفت لأعلى عاودت الرجوع إلى الأرض بأقصى سرعة), وصاحب التنوع ما بين مؤلف وموسيقا وشاعر ومخرج وممثل، من منا لا يذكر له أوبريت (وداد الغازية), وأيضا دوره بفيلم (الأرض), وفيلمه الشهير (حسن ونعيمة), وتعرفت (بمحمد التابعي) و (أحمد الصاوي محمد) وغيرهم، بصراحة هذا المكان كان فأل حسن عليه، وذكرت هذا بغالبية كتاباتي، بعدها هذا الحكي عنه تطرق عن علاقته بالسادات، مدحه كثيراً وذمه كثيرا، قال: إن (الحجاوي) أيضاً كان هو بداية معرفته به، حكى بطريقته التمثيلية الساخرة التي يعبر بها بحركات مصاحبة، أنه ذات صباح ذهب إلى بيت (الحجاوي) وطرق باب الشقة، فتح له الباب قاذفا إليه بسؤال:

* هل معك فلوس؟

* أي فلوس، المليون فلوس والقرش فلوس.

ضحك.

* أقصد الفلوس من هذا الصنف(القرش).

قلت له.

* نعم معي.

* تعرف السني (بتاع الفول) أحضر لنا فولا وبصلا وباذنجانا مخللا ودفع إليّ بصحن.

هرولت إلى السني وعدت أدخلني حجرة يجلس بها شاب رياضي مفتول العضلات يتكلم بطريقة خاصه به، وكان ودودا وعندما يضحك يعود بظهره يلصقه بالمقعد الجالس عليه ويرفع قدميه دون إرادة إلى أعلى كأنهما يسبحان بالفضاء، عرفني به، إنه (اليوزباشا أنور السادات) وكان وقتها مفصولا من الخدمة، وكان (الحجاوي) قد أخفاه عند هروبه ببلدته بالمنزلة، ومن اللحظة الأولى حدث ودٌّ وألفةٌ كبيرة بيننا، اختلفنا كثيراً، وتوافقنا قليلا، ودخلت السجن مرات بعهده, وغادرت مصر إلى عدة بلدان في عهده، ولكنه دون قصد فتح لي معارف وعلاقات مع رؤساء

وأمراء دول ذهبت إليها، ولكن إحقاقا للحق كان رجلا طيبا ودودا، ولا أحمل نحوه أية ضغينة، حديثه يتشعب إلى مناطق عدة، شيق يجعل الكل على رؤوسهم الطير، والوقت يمر بلا أي إحساس بمساحته أو مسافته، انتبه صديقي لماذا جاء؟ تقدم بقدمين مرتعشتين تهتزان كأنهما عودان من البوص تطيح بهما رياح عاتيه، مد إليه يده بورقة مكتوب بها إحدى قصائده، قرأها بتمعن، ثم وضع يده على كتفه، قائلا بصوت جهوري:

* غداً أنتظرك بقهوة (عبدالله) بميدان الجيزة، هي معروفة لن تتوه عنها، ربما تكون أنا، وربما أكون أنا (الحجاوي الجديد), داعب وجنتيه.

انصرفنا وصديقي كأنه يمشى بالفضاء يدندن ويصفر ويصفق ويرقص غير مبال بمن يمر بنا، عدت ليلتها إلى الإسكندرية تاركاً إياه، بعدها علمت أنه أصبح ضمن العاملين بروزا اليوسف تنشر له قصائد قصيرة يجاورها رسم كاريكتوري معبرا عنها، غادرت مصر ولم أعد أعرف عنه شيئا، هل عرفت سر ذهابي لهذا الركن؟

أخذنا الطريق إلى مائدة قريبة من المدخل نراقب المدخل بانتظار وصول (صلاح وكارم), وصلا بعد وصولنا بما يقرب من الساعة معتذرين عن تأخرهما بسبب حضور صديق لهما إلى زيارتها، جلسوا إلى المائدة وبينهما المحامون، تناقشوا طويلا، قالوا: إن أرض السرايا وصية أمهم, وما كانوا يريدون التخلي عنها ولولا أن ظروف الحياة غالبة، طال التفاوض لوقت طويل بين شد وجذب حول السعر، وبالنهاية وافقوا مع ابتسامة (لوكا) التي تنبئ عن سعادته بانتهاء التفاوض بالسعر الذي قد حدده من قبل، اتفق المحاميان على القيام بكل الإجراءات بموجب التوكيلات التي حصلوا عليها من الطرفين، أعطاهم (لوكا) شيكا بأكثر من نصف الثمن، وتم الاتفاق على الذهاب غدا لتسليم الأرض إليه، تبادلوا الأحاديث الجانبية عن أمور شتى، مال(رضوان) على(حسين) مهمسا.

* منذ أن وعيت وأنا لا أرى (كارم) إلا مرتديا هذا الزي، نفس اللون ، نفس الطراز، أليس غريبا هذا؟

ضحك (حسين) محاولا إخفاء ضحكته.

* على الرغم من هذا الثراء إلا أنه تحديداً على خلاف أخيه شديد البخل.

نهض الجميع للانصراف، قال (صلاح) لهم:

* أنا وأخي وافقنا على عرضكم لسبب مهم أننا نأبى أن نبيع لأصحاب سطوة مالية لا ندري من أين هبطت ثرواتهم، وأنتم مؤكد تعرفون مقصد كلامي.

أومأوا جميعاً بالفهم، ودعوا بعضهم على وعد بالسفر باكرا إلى القرية، اتفق (لوكا) على مصاحبة الأخوين معه، اتفق الجميع على اللقاء بميدان التحرير صباحاً بالعاشرة، وعاد الكل إلى مسكنه.

عند العاشرة تماماً كان الجميع متواجداً بسيارته، بانتظار حضور (صلاح وكارم), بعد حضورهم انطلقوا على الفور إلى القرية، ما إن خرجوا من نطاق المدينة وأصبحوا على

الطريق الزراعي إلا واجهتهم العديد من معارض السيارات تحمل لافتة (مجموعة شركات العادلي للتجارة), والإعلانات تحتل كل شبر من الطريق، الدهشة تنتاب الجميع والسؤال الذي يموج داخلهم، هل المال صار احتلالا من نوع جديد؟, مؤكد السطوة المالية صارت تتحكم بكل شيء، بداية من أصغر بقعة على الأرض إلى أكبر الدول، هناك صراع قائم لمن يستحوذ على مقدرات الشعوب وتسيرها على حسب منهجهم الخاص، إذا أردت أن ترى الحقيقة شاهدها من أصغر بقعة تعطيك الإجابة عن أحداث العالم وما تفكر فيه، والإجابة الوحيدة هي أنه علينا أن ننتظر من يفوز ، المال أو ميراث الشعوب والأفراد من تاريخ وإرادة، وصلوا بعد قرابة الساعتين، ذهبوا بالنساء إلى منزل (حسين) ليتفرغوا لإكمال إجراءات قياسات الأرض ومطابقتها على المستندات، أتوا بدلال المساحة الذي أجرى كل القياسات والأبعاد من كل الجهات وتم التحقق من سلامة كل شيء، تم الاتصال بالمحامين من الطرفين لتعريفهم بصحة كل شيء والمطالبة بإنهاء كافة الإجراءات بخلال وقت قصير، أبلغ (لوكا) الأخوين أن باقي مستحقاتهم سوف تكون لديهم بخلال أيام قلائل، طلب من (رضوان) إرسال أبعاد الأرض إلى ولده (إسلام) ومطالبته برسم معماري مغاير تماماً لأي نمط سائد وتمنى منه أن تغلب عليه العمارة الأندلسية، هو منذ زار أسبانيا وهو مولع بطرازاتها المعمارية، وأن يحيط بالمبنى مساحات خضراء من كل جانب، ويتكون المبنى من خمسة طوابق، بالإضافة إلى (روف) كبير على كامل المساحة يُعد مكانا للسهر وقضاء المناسبات، والطابق الأرضي بهو كبير بها المرافق وحجرات للمكتب والمكتبة، ولن يتم هذا بخلال أشهر قليلة وعليه وترشيح شركة لها اسم كبير بالتنفيذ، وأن عليه المتابعة بصفة دورية، قبل المغادرة أتى بمن حفر عمقاً كبيراً ووضع لوحة مكتوب عليها (فيلا الأصدقاء), طلب من (حسين) التجهيز غدا لنحر بعض الذبائح وتوزيعها على أهل القرية احتفالا بما تم، عادوا جميعاً إلى بيت (حسين)، طلب (عبد الله) حضور كل النساء يريد الحديث للجميع بحضورهم، أتوا تحلق الجميع حوله.

* بالحقيقة هناك أمر هو من أفكار (مارجريتا) ووافقتها عليه، الأيام الماضية التي عشناها سويا أعادت لنا الكثير مما غادرناه بفعل المسؤوليات وهذا بتصوري مبرر ليس منطقياً، فمهما تباعدت بنا الأزمان والمسافات علينا دوما أن نظل متماسكين بما عشناه سابقا، وعلينا تقويته بدوام التواصل الحقيقي، ولذلك فكرت (مارجريتا) بعد معايشتها معكم وعدم شعورها بالغربة أن تقترح على أخي (حسين) وزوجته ونحن نعرف أن (ثريا) ابنتنا طموح وتعشق العلم؛ لذا نعرض عليكم إكمال دراستها العليا وحتى الحد الذي تحلم به بجامعة السوربون وتكون تحت رعايتنا، ونتولى شؤونها ابنة لنا، وأتمنى منكم جميعاً أن تؤيدونني بهذا المطلب، ما رأيكم؟

فوجئ (حسين) وزوجته وابنته بالعرض حاول مرارا الفكاك من هذا العرض المغري، ولكنه لمح بعيون ابنته رغبتها بهذا، وأيضا تزكية الجميع له والإصرار عليه، فما كان عليه إلا الإذعان، طلب (عبد الله) إعداد كافة الأوراق لتكون معه حين سفره بخلال أيام، وسوف يكون على تواصل دائم معهم حتى تصل إلى باريس وكل شيء معد وجاهز بالشكل المناسب، تعانقت كل النساء مع (ثريا) مهنئات لها، نهضوا آملين بجوله متحررة تأخذهم أقدامهم حيث تريد وتشاء، تشابكت أيديهم ساروا بين الشوارع والحواري والأزقة، تأملوا البيوت القديمة والحديثة، هناك نماذج بين القديم والجديد كلاهما لا يمكن الفكاك له من الآخر، ساروا بين الحقول، بين الزروع يزعقون على من يعمل بعلو الصوت، جلسوا تحت أشجار التوت والجميز، أرادوا أن

يتسلقوها لم يستطيعوا أحسوا بغصة، فلقد انتصر الزمن عليهم، مر الوقت عليهم كأنه لحظات، الوقت السعيد يمضي سريعاً ويهرول، عادوا وهم بحال غير الحال كأنهم عادوا سنوات للوراء، وجدن النساء يجلسن على حصير حتى (مارجريتا وكريستينا) وجدوهن على نفس الجلسة، وبشكل أقرب إلى التعود السابق، كُنّ يتبادلن الحكايات كل واحدة بلغتها ولكنتها والضحكات أتت إليهن عن بعد، نظرن إلى بعضهن، وابتسمن وقلن: لقد صنعنا حزبا نسائيا ربنا يلطف بنا.

باليوم التالي تم نحر الذبائح بعدد كبير وقام الشباب بتوزيعها على كل بيوت القرية كبيرها وصغيرها، حالة من البهجة تسود كل الربوع، أخذوا طريق العودة تاركين (حسين) وأسرته مع التأكيد على إنهاء كل الأوراق المطلوبة والحضور بها إليه بأقرب وقت ممكن قبل سفره بخلال أسبوع، وطالب (لوكا) من (رضوان) الاتصال بابنه كل فترة قصيرة لمطالبته بالإسراع بتصميم القصر الجديد، بل طلب منه أن يدعه يحدثه ويشرح له رؤيته الخاصة وهو ما حدث، (إسلام) أكد له أن كل شيء سوف يسير على حسب ما طلب وضاحكه.

* لتعلم يا عمي أن التكلفة سوف تكون فوق تخيلك.

* يا ولدي لك ميزانية مفتوحة ما يهمني أن أجد قصراً حلمت به يجمعني مع رفقائي ما تبقى من أيامنا، سوف أعود وأترك كل شيء للأولاد وأتمتع بعودتي إلى مرفأ أيامي السابقة، يا ولدي مهما أخذتنا الحياة ودفعت بنا إلى أتونها التي لا ترحم، بنا حنين دائم لأن نعود كما بدأنا، نكبر ونكبر ولكن الطفل داخلنا لا يكبر أبدا، إن كبر الطفل داخلنا يوماً تأكد أننا بطريقنا إلى النهاية، على الإنسان أن يتمسك بالطفل القابع داخله حتى يظل ممسكاً بالسعادة ولا تفلت منه.

غادر الجميع كل إلى مقر إقامته، على وعد باللقاء قريباً وقبل السفر وبعد وصول الرسوم الهندسية وبدء الشركة التي سيحددها (إسلام) للتنفيذ، ووعد (لوكا) بالحضور مرة بالشهر، وكذلك (عبد الله) كان نفس الوعد، عاد كل منهم إلى حياته المعتادة، انتهى المحاميان من إنهاء إجراءات إثبات نقل الملكية، حينها أعلن (لوكا) سفره وصاحبه على الطائرة (عبدالله) الذي طلب أن يقضي أياما بقبرص، دارت الأيام دورتها الطبيعية التي لها هي قرارها الأوحد، بعد عودة (عبد الله) إلى باريس بأيام أجرى اتصال مع (حسين) يخبره بقبول (ثريا) بجامعة السوربون وأنهم بانتظارها لمقابلة لمعرفة اختياراها، وأن عليه التجهيز لسفرها على وجه السرعة، وأنه أعد لها إقامة بالمدينة الجامعية بالجامعة حتى لا تشعر بحرج، أما بعد يومين من حضورها فستصاحبها (مارجريتا وروح الفؤاد) بجولة لتعريفها بباريس، أخبره (حسين) أنه سيسعى لإنهاء الأمر بأقرب وقت ممكن وشكره لجهده، نهره لأنه يعدها بمنزلة ابنته، (لوكا) على تواصل دائم مع (إسلام) يستحثه لإنهاء المخطط المعماري والتشاور حوله للوصول لأقرب تصور له مع سرعة الاتفاق مع شركة لها اسم كبير بعالم الإنشاءات، مع تفويضه هو بمتابعة العمل دوماً، ذات يوم وصله عن طريق نظام (الفاكسميلي) الرسم، الذي أبهره، كانت دهشته كبيرة وكأن (إسلام) كان معه بذات الرؤية، وأخبره بموافقته على ما وضعه من تصور، أخبره بعدها بأيام قليلة أنه اتفق مع شركة إنشاءات معمارية بليجيكية ذائعة الصيت لها شركاء مكاتب هندسية بالقاهرة على قيامهم بالتنفيذ وأنه سيرسل له عقد الاتفاق ليرى ما به من بنود، وهو ما تم بعد أيام بعد تعديل بعض البنود وخاصة مدة الانتهاء الذي طلب أن لا يزيد عن تسعة أشهر وأن يسلم له المبنى كاملا من كل الوجوه، (ثريا) ذهبت إلى باريس التي وصلتها

والنهار يودع يومه، كان باستقبالها كامل الأسرة, (عبدالله) وزوجته وابنته وابنه، ذهبا لها إلى فيلتهم القريبة من برج ايفل الممكن رؤيته من شرفة الفيلا من زوايا متعددة، كان العشاء معدا محاطاً بأضواء الشموع الملونة، وإضاءات خافتة مع ورود تحتل كل الأرجاء، تحدثا حول القرية وعلاقته بأبيها والحكي عن مواقف طريفة جمعتهم، الضحكات تعلو بلا أي عوائق، بعدها صحبتها إلى حجرة خصصت لها، ولكنها فاجأتهم بطلب أن تشارك (روح الفؤاد) حجرتها، استجابا لها، كانت تهدف إلى معرفة الكثير عن الأسرة وعن باريس وطقوس الحياة لها، لم يقترب النوم من أعينهن طوال الليل يتكلمن كل منهما تحكي كل شيء عنها، على الرغم من أنها المرة الأولى التي يلتقيان بها إلا أن الألفة قاربت بينهما سريعاً، سألتها (روح الفؤاد):

* قالت لي أمي: إنك تحبين الشعر بشغف كبير، وأظن أننا متوافقتان بهذا، وإن كنت أنا أقرأ كثيراً لشعراء فرنسيين وقليلا لشعراء عرب، قرأت لشعراء الفرنسية (أدولف دوماس، أدواف فافر، أناتول فرانس، أندريه بلسو) وآخرين، وقرأت للإنجليزيين ،(الآن هالس و الدوس هكسلي) وبعض العربية على رأسهم (نزار قباني، فاروق جويده)، والعراقيين (بدر شاكر السياب، والجواهرى، ونازك الملائكة) يعني تنوع وماذا عنك؟

* أنا من الصغر أهوى قراءة الشعر من مختلف العصور، ولكني أشاركك بقراءاتك (لنزار قباني، وأحمد عبد المعطي حجازي) كما قرأت ،(لحافظ إبراهيم) شاعر النيل، وقرأت (الشوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقي) وأشاركك ببعض القراءات للشعر العراقي، منذ الصغر وأنا اسمع جملة تتردد دائماً، القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ؛ لذا كان شغفي بأدب هذه البلدان مع مصادر أخرى لبلدان عربية أخرى.

طال بهما الحديث، قبل أن يخلدا للنوم قالت لها (روح الفؤاد):

* أنا تحدثت معك بشأن الشعر؛ لأن أمي أخبرتني بهذا ثم هي أعدت لك هدية لن أخبرك بها، ندعها مفاجأة لك، تصبحي على خير.

ناموا في ساعة متأخرة من الليل، وعلى الرغم من ذلك جاءتهم طرقات خفيفة تدعوهم لجولة صباحية قبل أن تصل المدينة حد الصخب والضجيج، إن أردت أن تعرف المدن على سجيتها عليك أن تراها بثيابها الحقيقية التي لم تتغير أو تتلون أو تختلف بعد، عليك رؤيتها قبل أن تغتسل وتضع كل (الميكاچات) على ملامحها فتختفي الحقيقة, نهضتا مسرعتين وكأنهما نامتا لساعات طوال، وقت قليل وكانوا أمام الفيلا، (أكرم ووالدته) بالانتظار، انطلق بهم إلى أحياء المدينة، سان جيرمان، الحي اللاتيني, الحي السابع، بيغال، مونمارتر،، السان ايليزي، وغيرها من الأحياء الشهيرة، أخذهم إلى مطعم على ضفاف السين، تناولوا الإفطار بشهية وسط حكايات وضحكات تنساب من الأفئدة شديدة العفوية، عادوا إلى الفيلا وقد غادر الوسن كل ما بهم، جلستْ وسطهم بالبهو، طلبوا منها أن تحكي طفولتها، الطفولة هي المؤشر الحقيقي للشخص، شردت لفترة حيرة من أين تبدأ، ولكنها بسرعة حددت البداية.

* لعلني أتذكر البدايات وأنا بعمر السادسة، يمكن القول: إنها سنوات التمييز والفهم المبدئي، كنت مدللة من الجميع، لم أطلب شيئا إلا وجدته مجابا، ولكني بذات الوقت لم أكن من النوع كثير الطلبات استغلالا لهذا الدلال، وكنت من الصغر ومنذ أن ذهبت إلى كتاب الشيخ (

محروس التلباني)، وجدت نفسي شغوفة بالتعلم، بالقرآن الكريم، بتعلم اللغة، وكنت حسبما قالوا سريعة الفهم والاستيعاب، حتى أن الشيخ جعلني أحيانا أقرأ القرآن وهم يرددون ورائي على الرغم من عمري الصغير، أبي كان سعيداً بهذا التوفيق، بدأ يأتي إليّ ببعض قصص الأنبياء والصحابة، والمجلات المصورة، ربما هذا كان سبباً بأن محيط صداقاتي كان محدوداً، لا يتعدى حدود بنات العائلة وواحدة أو اثنتين من خارجها، كنت أود تعلم كل شيء، بي شغف كبير للتساؤل الذي أراه مفتاح المعرفة، حتى بسنوات الدراسة كنت دائمة التساؤلات حتى نعتتني إحدى المدرسات بلقب (ثريا تساؤلات) ، والحقيقة لم أغضب من هذا المسمى بل كنت سعيدة به لأنه أعطاني نوعاً من التميز، وصارت حياتي على هذا النحو، التفوق والبحث عن المعرفة وزادت قراءاتي وتعددت إيمانا مني أن للمعرفة زوايا عديدة وعلى الإنسان أن يقترب منها ليستطيع فهم الحياة، لم أنساق لأفعال المراهقة والتفكير بفارس أحلام بمواصفات معينة، تركت كل أموري لله، وربما كانت عفويتي سببا لتجربتي المؤلمة، ولكنها كانت درساً ربما كان شديد القسوة، ولكن تعلمت أن عليك أن تتروى بقرارتك ولا تندفع نحو أمر لا تعيه تماماً ولا تنخدع بالبريق والمظاهر المؤكد هي تخفي الكثير، وضعت أمام عينيّ أن أصل إلى أقصى درجات العلم، وأصارحك عمي (عبدالله) أني حلمت كثيراً بهذه الجامعة تحديداً لمعرفتي أنها قدمت للبشرية أسماء كتبت وسطرت تاريخاً مؤثرا بحياة الشعوب والشخوص، طبعا من أولهم، (رفاعة الطهطاوي) وعميد الأدب العربي (طه حسين)، وبعض الأجانب بالعصر الحديث مثل، (جرارد شالياند)البلجيكي المتخصص في علم السياسة والاستشراق، (الينوس طربان) الإيرانية المتخصصة بالعلوم وعلم الفلك والفيزياء، (أن دنهل) البريطانية والروائية الشهيرة، آلاف من الأسماء خدمت البشرية بشتى العلوم ، هذه أنا باختصار.

وجدت نظرات الانبهار تعلو كل الوجوه، بادرها (عبدالله) .

* بسم الله ما شاء الله فكر مرتب وذهن متوقد محدد الهدف، ما كنت أعرف أن لدينا ابنة بهذا التفكير الناضج, حرسك ربي.

أما (أكرم) اكتفى لإبداء رأيه بابتسامات عريضة سادت ملامحه، نهضت (مارجريتا) ذاهبة إلى حجرتها، غابت دقائق وعادت تحمل بين يديها حقيبة أنيقة، قدمتها إليها.

* هذه هديتي الأولى لك, ما إن عرفت ولعك بالشعر إلا وذهبت إلى بعض المكتبات الكبرى والتي بها قسم للإصدارات العربية، انتقيت لك هذه المجموعة من الأشعار المتنوعة بين الحديث والقديم، لعلها تروق لك.

عانقتها وقبلتها، خاطبتها.

* حضرتك أسعدتني لأنك جئت لي بونيس أنا أعشقه، شكرا لك بجد.

نهضت طالبة أن تذهب إلى الحجرة لتسترخي قليلا، الجميع فهم أنها تريد أن تلقي نظرة على دواوين الشعر، بالفعل سارعت إلى فتح الحقيبة، العديد من دواوين الشعر، لأسماء كبيرة تعرفها وقرأت لها، وجدت ديوانا تحت عنوان (رسائل إلى امرأة) لشاعر عراقي اسمه(مهند الشاوي)، بالحقيقة أول مرة تسمع عنه، ولكنها تعرف أن العراقيين بارعون بالشعر، وكم من شاعر أو كاتب مميز لم يجد مساحات لأن يكون متواجداً بقوة وعن استحقاق مثل الكثيرين،

وإن كان الكثير منهم له طريق مفتوحة بالعلاقات والشللية وتلاقي المصالح، بكل دروب الحياة من هم بالظل دون إرادتهم أو لأنهم لا يعرفون إلا الطريق الواحدة وغير المتعرجة، ولأنهم لا يجيدون السير بالدهاليز التي تحتاج إلى مواهب أخرى تختلف كل الاختلاف مع مواهبهم الإبداعية، ولعل هذا صار سائدا بكل طرق الحياة، على خلاف النظرية الاقتصادية التي تقول (العملة الجيدة تطرد الرديئة)، مع الأسف أصبحت مقولة معكوسة، وتحول الكاتب إلى موظف ولم يعرف الطريق إلى مقولة (ألبير كامو)، الكاتب راصد للحياة وليس موظفا بها، أمسكت بالديوان، قرأت:

* في عينيها تنبت الحروف حرفاً حرفاً

في عينيها تكتمل القصيدة.

* نكهتها جنوبية

وجبهتها جبلية

راقية الحسن

جميلة الصوت

كأنها قيثارة سومرية... أهديها سلامي.

* سألتني :

كم قطعة من السكر تحتاج لقهوتك؟

أجبتها: وهل مع قهوة بنكهتك

أحتاج إلى سكر

* امرأتي الأولى أنت

وامرأتي الأخيرة أنت

وما بين عينيك وعينيك

غنت كل النساء.

تاهت بين القصائد، شعرت كأن هذه الرسائل إليها، شاعر يقدس المرأة لكل ما بها ولم تقتصر رؤيته على الجسد كما يفعل الكثيرون، لم تنهض من جلستها إلا بعد أن انتهت من الديوان كاملا، وسألت نفسها: هل تلتقي بمن يفهمها إنسانة قبل أن تكون أنثى؟ وضعته جانباً وألقت بنفسها على الفراش وسمحت للنوم أن يأخذها برحلة طويلة.

.. الأيام تهرول وكل شيء يهرول معها، السباق ابدأ لا ينتهي، حركة البناء تسير متسارعة، (حسين) تفرغ تماماً لمتابعة كل شؤون البناء، (إسلام) على تواصل دائم مع الشركة المنفذة، قد تطرأ تعديلات يتناقش معهم بها حتى يصلوا إلى نقطة اتفاق، (لوكا) يأتي مرة بالشهر يمكث أياما، يتجول بين ما تم تنفيذه، يبدي بعض الملاحظات، يجلس مع (حسين) الذي دائماً يقدم بيانا تفصيليا بما تم صرفه، يحرر له شيكا بمبلغ ضخم، ويغادر مطمئناً تماماً إلى أن الأمور تسير حسبما فكر وأراد، (ثريا) تم التحاقها بكلية الآداب قسم اللغات الشرقية، هي ترى أن بها رغبة لتعلم لغات تكاد تندثر، تم تسكينها بالمدينة الجامعية، وكل نهاية أسبوع تأتي إليها (روح الفؤاد) التي تشعرها أنها توأمها، لتأخذها لقضاء الإجازة معهم، تتحدث مع أسرتها كل يومين صوت وصورة عبر آلات التكنولوجيا الحديثة، بالآونة الأخيرة وجدت بصر (أكرم) لا يغادر صفحة وجهها مطلقا، ولمحت مرارا بسمات تعلو شفاه الأب والأم، حتى فوجئت أحد الأيام له يأتي إلى كليتها، يطلب منها الجلوس إليها لبعض الحديث، انتابتها الدهشة لبعض الوقت، وشردت قليلا تحاول التكهن بما يريده، وافقته آخذين الطريق إلى كافتيريا الكلية، أخذا يتفرسان كل منهم بالآخر، يتبادلان النظرات المتسائلة، طال بهم الصمت هي تنتظر أن يتكلم، وهو يحاول جاهداً الإمساك بخيوط الكلام الذي كلما أراده يتبعثر من على شفتيه، أخيراً بعد فترة صمت وتململ كثير بالجلسة وخبطات الأرض خبطات قلقة تحدث:

* لن ابدأ بمقدمات، ولك الحق بدهشتك ما الذي يدفعني للحضور وأنت عادة وسطنا بإجازاتك وأريد القول بما أريد أمام الجميع، الشهور الماضية أزالت الكثير من الحواجز بيننا، ولكن هذا أمر لا يمكن أن يقال إلا بين الاثنين بيني وبينك، (ثريا) بكل وضوح وصراحة تامة أنا معجب بك، ربما بدا هذا من اللحظة الأولى، ولكني بطبعي حذر دوماً بكل خطواتي، قلت: ربما أنك جديدة على الأسرة ودائما الجديد له جاذبية، هكذا تصورت بالبداية، ولكن مع مرور الوقت والحوارات وجدت نفسي تتعلق بك كثيراً، وباختصار دون إطالة أود ان أتقدم إليك وما كان عليّ إلا أن أحضر إليك وأحدثك وجها لوجه، لا أطلب الرد منك على الفور، فكري مرات وأيا كانت إجابتك أنا مرحب بها، إن وافقت لك تحديد الكيفية وإن رفضتي اعتبري أني لم أحدثك ويظل الاحترام الإنساني بيننا.

أطرقت برأسها إلى الأرض وداعبت خصلات شعرها وكم من مرة مررت يدها على وجنتيها تمتص الحرارة المنبعثة منهما، تنظر إليه ثم تعود لخفض نظراتها، أصابعها تنقر على المائدة نقرات أشبه بدقات موسيقية موحدة، وهو أيضا لا يحرك ساكناً، مجرد نظرات مصوبة إليها تبتهل إليها بالحديث:

* بالحقيقة أنا سعيدة بوضوحك وتصالحك مع ذاتك، وتفكيرك بأن هذا أمر لابد أن يتم النقاش به بين الطرفين، دون الإجراءات الروتينية، وهذا لا يغفل أننا أيضاً لابد من السماع لرأي أهلنا وحكمتهم، أشكرك على عرضك الذي يشرفني، ولكن لي وجهة نظر على الرغم من ترحيبي بمبادرتك وعرضك الأمر على صاحبة الشأن حتى تقف على أرض صلبة، أرجو أن تؤجل هذا إلى إجازة الجامعة، والحضور إلى أهلي والطلب منهم مباشرة وحين يريدون قراري سأعلنه أمام الجميع ، أنا لا أفكر مثل الأخريات أن أخجل وأهرول إلى حجرتي وأرتمي على الفراش، وأقول لكم الرأي: قرار الزواج قرار لابد أن يكون صادرا بكامل الإرادة من صاحبة الشأن،

كلها شهر وقليل من الأيام، سوف تعرف ردي ساعتها، وثق أن الله هو الذي سيملي عليّ القرار، أرجو أن أكون قد أصبت بالرأي.

* بالحقيقة على الرغم من أن الرد مبهم ولكني أرحب برأيك ولتكن مشيئة الله من قبل ومن بعد.

* كل ما عليك أن تنتظر وتخبر عمي ووالدتك برغبتك، وننتظر قرار الله والأيام.

نهض مودعا لها للمرة الأولى يحتوي يديها بين يديه، ويربت عليهما وهو يحمل أملا كبيرا بالغد، وعادت تحمل نقيضين: سعيدة بهذا الشعور وبذات الوقت لديها هاجس كبير، هو شاب عاش كل عمره بأوروبا ومعروف عنها أن الحرية لديهم مطلقة، والشباب والشابات لهم شطحات بلا أي حدود، ومن الممكن أن تكون له علاقات، ولكنها بذات الوقت ردت على نفسها، لا وألف لا عمي(عبدالله) لا يمكن أن يسمح بتجاوز العادات والقيم التي تربى عليها، أما (أكرم) كان يعبر عن سعادته بالسير قفزا، هي لم تغلق الباب بل تركته مفتوحاً لحد ما، أسرع بالاتصال بأبيه طالبا منه أن يعود للبيت بأسرع وقت ممكن يريده هو وأمه بموضوع مهم لا يحتمل التأجيل، ضحك أبوه به حدس عن الموضوع العاجل، أخبره أنه بخلال ساعة سيكون بالبيت، كانت الجلسة تجمع بين التفاهم والسعادة، الأب ينظر للأم بعدما عرض عليهم الاقتران (بثريا)، لم يخبراه أنهما خططا لهذا، وأنه بمطلبه قد حقق أمانيهم، عندما أخبرهم عن الحديث الذي دار بينهما، أشادوا بها وبعقلانيتها ووافقاها على حديثها معقبين:

* بنت أصول تفهم الحياة كأنها بعمر كبير.

اتفقوا على الذهاب جميعهم بعد الإجازة الجامعية إلى البلد وطلبها رسمياً، ولا نظن أن (حسين) قد يبدي أي اعتراض.

المباني تزداد سرعة العمل بها، ربما طوال الأربع وعشرين ساعة، كل من يمر بها يقف مندهشا، البناء يشير إلى أمر لم يعهدوه لا بالقرية أو حتى بالمدينة، (حسين) يكاد يكون متفرغا للإشراف، كل يوم يرسل صورا لما تم، تأتيه اتصالات من (لوكا) يتابع ويسأله عن مدى احتياجه لأموال أخرى ليرسلها له، اعتاد أن يأتي مرة كل شهر، يقضي يومين أو ثلاثة ويعود، (رضوان) انشغل بعمله الوظيفي إلى حد كبير، لم يحضر إلى القرية إلا مرتين أو ثلاثة خلال الستة أشهر الماضية، ولكنه كان هو يتابع مع (إسلام) كل شيء، أتت إجازة الجامعة، عاد الجميع إلى القرية، كان (عبد الله) قد اتصل (بلوكا) طالبا تواجده بذات الفترة، ذات مساء صيفي مصاحب بنسمات وادعه التقوا ببيت (عبدالله) وإخوته، تواجد (رضوان) وزوجته، وتواجد (لوكا) وزوجته، بدأت الجلسة بحوارات متعددة الزوايا والاتجاهات لوقت طويل وسط أجواء من الألفة والسعادة، قطع هذه الحوارات والنقاشات الجانبية (عبد الله):

* طلبت منكم جميعاً التواجد بهذا اليوم لأنكم أسرتي، ولأن الأمر يحتاج رأيكم وشراكتكم معي، بلا إطالة أنا أتقدم لطلب يد ابنتنا (ثريا) لابنكم (أكرم).

صمت بعدها وأخذ يتبادل النظرات بين الجميع، لم يمهله (حسين) وقتا طويلا، جاء رده:

* من المؤكد أن (ثريا) ابنتكم مثلما (أكرم) ابننا جميعاً، والحقيقة أنا لا أستطيع إلا الترحيب والسعادة بهذا الشرف، ولكن لأننا تربينا على أن لصاحبة الشأن قرارها، فلنا أن ننتظر رأيها.

ووجه بصره إلى ابنته مشمولة بسمة صافية تعلو الشفاه، لم تجب بل نهضت مهرولة إلى حجرتها، تعقبها الضحكات، نهضت الأم إلى حيث حجرة ابنتها قائلة.

* بأمر الله خير، هكذا كل البنات الخجل يسودهن بمثل هذه الأمور، لحظات وأعود لكم.

أخذوا بالحديث في زوايا متعددة، بحثا عن إزاحة بعض القلق الذي يعتريهم، (عبدالله) تناول أطراف الحديث:

* ألا يشغل بالك أمر يشغلني منذ أن التقينا، بعد أن أخذتنا الحياة كل منا إلى طريق، وتباعدت بينا المسافات، ولكن على الرغم من الحياة المختلفة والأجواء والطقوس المغايرة بكل بلد نعيش به، إلا سبحان كأن هناك مغناطيسيا هو حجر الزاوية، نذهب بعيداً، ولقاءاتنا متباعدة وبالمصادفة، ولكن بالنهاية جميعنا يعود إلى نفس الدائرة، التشابه يا سادة هو نداء دائم، ينادي كل من يحملون تشابها معيناً ولا أقصد هنا التشابه بالملامح، أقصد التشابه بالأفكار، بالميول، بالتعامل مع المواقف، بذات الطقوس أو التشابه معها، ونحن خير مثال، عدنا كما كنا، وكأننا نولد من جديد، أليس هذا واقعا ملموساً؟ وهذه رسالة من الله أنه على كل إنسان أن يظل بحالة بحث دائم عن من يشبهونه بالكثير من زواياه.

أيده الجميع، فالكل راوده نفس التفكير، اعتراهم الصمت، حتى أتت الأم تصحبها الابنة تتعثر بخطواتها، جلسا على كرسي واحد تكاد الابنة تجلس على ساق الأم التي ضمتها بيدها، الأم:

* الحمد لله، يا حاج (حسين) ابنتك أعلنت موافقتها، وعليك أنت باعتبارك ولي الأمر أن تعلن هذا.

لم ينتظر أن تنتهي من حديثها.

* على بركة الله، مبارك لنا جميعاً.

نهض الجميع يعانقونه، وأيضا النساء التففن حول (ثريا) يمطرونها قبلات، نهضت (ناهد) مقتربة من (ثريا)، نزعت سلسلة ذهبية من حول عنقها وطوقت بها عنق(ثريا):

* هذه كانت هدية من أمي، أم (رضوان) يوم خطبتي، وعلى الرغم من أنها غالية عليّ ولكنها ليست بغالية عليك، فأنت أيضا من العائلة.

علت الزغاريد، وبعد الهدوء قليلا أشار إليهم (لوكا) طالبا الحديث:

* ما دمنا وصلنا إلى هذه الحالة من التوثيق بالمصاهرة، دعوني أقرر شيئا، بخلال شهور قليلة يكون القصر جاهزا من كل شيء، وسنفتتحه بحفل زفاف أولادنا وقضائهم أسبوعاً به، وهذا خير افتتاح بالفرح، هذه واحدة، الأخرى بعد الأسبوع سوف نصاحبهم جميعاً لشهر عسل كامل برودس، بأفخم القصور على الشاطئ مباشرة، والثالثة لا حديث بأي تفاصيل بهذا الشأن من تجهيزات وشبكة ومثل هذه الأمور، هم أولادنا جميعاً، أرجو أن لا نتشابه مع الآخرين بهذه

الشكليات، سوف نقوم بكل ما يلزم محبة لهم، لا اعتراض مطلقا، وجه هذه الجملة إلى (حسين) تحديداً الذي اكتفى بأن أطرق برأسه موافقا، عقب (عبدالله) قائلا:

* مؤكد كلنا آباء لهم، ولكن أعلن أن هناك فيلا مجهزة تماماً بحي (مونمارتر), فيلا مجاورة لفيلا (روح الفؤاد) حين يأتيها نصيبها، ثم غداً ودون إبطاء سوف نذهب جميعا إلى حي الصاغة بالمنصورة وللعروسة أن تنتقي ما تريده دون أي حرج، ثم بعدها نجلس بإحدى قاعات فندق (مارشال) للاحتفال بالخطوبة مقتصرا الأمر على محيطنا العائلي الضيق، ثم وعد مني أمامكم سوف تظل (ثريا) بمضمار العلم إلى أبعد حد تصبو إليه، وربنا يديم علينا الفرح.

عقب (حسين):

* أشكر لكم جميعاً هذا الشعور الجميل، وأنتم تعرفون أني طوال العمر لم أفكر لا بثروة ولا مناصب ولا أي شيء أعتبره عارضا من عوارض الدنيا، كل ما كنت أسعى إليه أن أصل بأولادي إلى بر الأمان وأن أجعل منهم قريبين من الله يعرفون حدوده وحقوقهم وحق الآخرين، وأحمد الله أني حققت حلمي، ووصلت إلى كل ما صبوت إليه، ما يهمني من (أكرم) أن يكون لها أبا وأخا وصديقا وحبيبا وزوجا، وأن يراعي الله فيها، وأنا واثق أنها ستكون نعم الزوجة وتدفعه إلى المزيد من النجاحات، ندعو الله لهم بالبركة والستر الدائم يا رب العالمين.

شاركه الجميع الدعاء، طالت بينهم الجلسة بين أحاديث كلها فرح وبأصوات صاخبة وضحكات عالية.

بصبحية اليوم التالي وبعد الظهيرة تجمع رهط كبير من السيارات، ضمت الأقارب والأهل، أخذوا الطريق إلى حي الصاغة بالمنصورة، تجمع الجميع أمام المحل المختار الذي يتعاملون معه من فترة طويلة، الأم وابنتها (مارجريتا) مع ابنها هم دخلوا إلى المحل لانتقاء ما يريدون، على مدار الساعة يقلبون بين المصوغات، ينتقون ثم يتراجعون، خرجوا بعد اختيار ما توافقوا عليه، تم احتفال بسيط بإحدى قاعات الفندق، أغاني أفراح وزغاريد، ثم عادوا إلى القرية بعنوان واحد يجمعهم هو السعادة، كان الرجال الأربعة يسيرون على خط واحد كل منهم يحتوي كتف الآخر ويربت عليه بين الحين والآخر، بخلال أيام عاد كل منهم إلى حياته كما اعتادها، (لوكا) سافر إلى قبرص وانشغل بأعماله، (عبدالله) عاد إلى باريس يتابع مجريات شركاته، (ثريا) لحقت بهم بعد نهاية الإجازة، تلتقي مع (أكرم) بنهايات كل أسبوع، يتناقشان بأحلامهم وخطواتهم القادمة، يرسمون ويلونون أحلامهم وطموحاتهم، يتابعون تجهيزات فيلا باريس، تتصل بوالدها كل أسبوع تطمئنه وتطمئن عليهم، البناء يزداد استكمالا ، الأيام تسير على حسب وتيرتها وكما تريد، الحياة قدريات مكتوبة لا يستطيع أي أحد أن يحوّل دفتها، الحياة خطان، خط يفهمه من يملك البصر والبصيرة حينها يكون متوازنا يقف على أرض صلبة واثقا من خطواته محدد الطريق والهدف، والآخر من لا يتبين الخيط الأبيض من الأسود ولا يجيد تمييز الطريق وبالتالي تهتز قدماه وترتعش خطواته فيتهاوى ضالا للطريق، ينتظر من يمد يده له يدله على جادة الطريق، وقد يظل قابعا حيث تهاوت قدماه ولم يستطع النهوض، لأنه معصوب البصر والبصيرة من اللحظات الأولى، بعد شهور قليلة اتصل حسين (بلوكا) أخبره أن كل شيء تم، الأدوار الأربعة، كل منها قصر مستقل بذاته، أجابه بأنه بخلال أسابيع تصله شحنة الأثاثات، وسيخبره بالجديد أول بأول، وعند تمام الأمور سنحدد موعداً لحفل عقد قران وزفاف (ثريا

وأكرم), بخلال أيام قليلة أخبره أن شحنة الأثاث بطريقها إلى ميناء الإسكندرية، وعليه أن يعد شاحنات متخصصة بنقل الأثاث، كما أن عليه الاتفاق مع بعض المتخصصين بفرش الأساس بحرفية عالية، أخذ الأمر منه أياما يهرول بها هنا وهناك، صباح يوم جاءه الهاتف يخبره أنه بالغد تكون الشحنة قد وصلت، من فوره صاحب الشاحنات والرجال المتخصصين، على مدار أسبوع تم الانتهاء من فرش القصر بكاملة، كان (لوكا) قد حدد له ما يخص كل طابق من أثاثات، بعدما قام بإرسال صور للوضع النهائي إلى(لوكا) الذي سارع بالاتصال (بعبد الله) ينبئه بأن كل شيء جاهز وعليه تحديد موعد عقد القران مع (حسين)، وكلفه بأن يعدّ (الرووف) أحسن إعداد من تجهيزات فراشية وإضاءات وأيضا إضاءة شاملة لكل الأماكن المحيطة بالقصر، واتفاق مع فرقة موسيقية ومطربين وراقصين، يريدها ليلة تكون حديث الجميع لوقت طويل، قائلا له:

* هي ابنتي قبل أن تكون ابنتك، كل تكاليف هذه الليلة عليّ، يقضيان أسبوعا وحدهم بالقصر، ونحن نغادر جميعا إلى قبرص ورودس، يكملان شهر العسل ونحن نستجم ونعيش وقتا جميلا، أدام الله أفراحنا.

أخبره (حسين) أن كل هذا لن يكون قبل شهر بعد الانتهاء من العام الدراسي، اتفقا على التواصل بينهما وبين الجميع حتى يكونوا على أهبة الاستعداد من أجل هذه المناسبة السعيدة.

الزمن يركض والكل يركض معه سعياً وراء مناسبة تختلف كثيراً عن كل ما سبق، قبل الموعد بأسبوع وجهت الدعوات لوجهاء القرية والمحافظة وبعض الشخصيات العامة، وتزينت الشوارع وإضاءات تزين القصر بكامله، والرمال الحمراء تكسو كل الطريق إليه، باليوم المحدد كانت الفرق الموسيقية تصطف أمام القصر من ساعات الصباح الباكر تعزف موسيقاها وأغاني الأفراح تصدح من أكثر من مكان مجاور، الأمر الرائع بالريف أن تجد أي شعور يخص أحد أفرادها يتحول إلى خصوصية الجميع، الأصدقاء الأربعة يقفون يرحبون بالجميع يشعرونك كأنهم توائم، وكأن الزمن قد عاد بهم إلى الوراء سنوات، عند السادسة بدأت السيارات المصاحبة لموكب العرس تطلق أبواقها منغمة، رهط كبير من السيارات يحيط بسيارة العروسين المزينة بكل جنباتها بالورود وتعلوها صورة للعروسين متشابكي الأيدي، توقفت أمام باب القصر تماماً، أسرع كل منهم إلى باب من الأبواب، يفتحه، مد(حسين وعبد الله) يديهما ممسكين بيد العروس والعروسة، (نجوى ومارجريتا) بالخلف، تعقبهما (ناهد وكريستينا), الزغاريد ترتفع وتطير إلى السماء، صار المكان مغلفا بالزغاريد والغناء الصاعد من الأفئدة بصدق، أحاطت الفرق الموسيقية بالعروسين ليصعدوا السلم وعلى مهل وسط موسيقا زفات العروسين لمطربي ومطربات الزمن الجميل، مها صبري، محمد فوزي، محمد رشدي، عايدة الشاعر، وأغنية و(ناظم الغزالي، ومائدة نزهة) العراقيين، (طالعة من بيت أبوها رايحه بيت الجيران)، ساعات طويلة مضت بعرس امتد حتى تباشير الفجر، ما بين رقص وغناء وفرح غطى كل الأرجاء، تمت زفتهم إلى الطابق الثاني الذي اختاراه سويا، غادر الجميع تملأ السعادة كل جوانحه.

خلال الأسبوع المقرر وجودهم به قبل السفر، كانوا لا يفترقون إلا عند ساعات النوم، كانوا يخرجون صباحاً يتجولون بين الحقول، يتقفون أمام أماكن بعينها يعيشون أمامها بعض ذكريات

الأمس البعيد، يضحكون حتى تمتلئ عيونهم دموعاً ضاحكة، تجدهم يجلسون على بعض من قش الأرز موجود على رأس أحد الحقول، يتداعبون ويتشاكسون وبدواخلهم يتمنون لو يستطيعون التمرغ عليه مثلما كانوا يفعلون وهم صغار،، قد يجلسون لصيد السمك، يحفرون للحصول على الديدان التي تستخدم طعما للأسماك، يعودون واضعي الأيدي فوق أكتاف بعضهم، يسيرون بخطوات واحدة، أحيانا يذهبون مع نسائهم إلى أحد الحقول التي يمتلكها أحدهم, يفترشون الأبسطة ويجلسون يتناولون الطعام بين كثير من الضحكات والنكات والمشاكسات والتذكير ببعض نوادر لمواقف مرت بأحدهم، انتهى أسبوع العسل، كان (لوكا) قد أعد الطائرة الخاصة، قضوا شهرا بين قبرص ورودس ولارنكا وليماسول وغيرها من المدن، تنقلوا بين الشواطئ البديعة، زاروا شركات (لوكا) تعرفوا بولديه (جون ومارك) شابان تجاوزا الثلاثين من العمر، يحملان ملامح أبيهما تماماً، الود ساد بينهم وكأنهم لم يفترقوا مطلقا، تعاهدوا على اللقاء بصفة دورية وقضاء أيام معا، تهرول الأيام وراء بعضها وتتلاحق الأشهر، يلتقون كل شهر يعودون إلى أيامهم وأحلامهم وطموحاتهم، يرتدون الملابس الريفية، حتى (لوكا) أصر على أن يرتديها، يجلسون على مقاعد أمام القصر، يتبادلون التحايا مع المارين بهم، يأتيهم بعض المعارف القدامى والأقارب، السؤال الدائم الذي يوجه لهم:

* تباعدت بكم المسافات والأزمان، كل منكم أخذ طريقا مغايرا للآخر، ولكننا نرى كأنكما لم تفترقوا مطلقا.

يتبادلون النظرات المليئة بريقاً من الفرح، يبتسمون بلحظة واحدة، يبادر أحدهم بالإجابة:

* قد تتباعد بنا الحياة، وتأخذ كُلا منا إلى مسار مغاير، لعمل مختلف، لحياة مختلفة، ولكن بيننا جميعاً ما يناديناً، التشابه، لكل إنسان ما يشبهه، وليس المقصود تشابه الملامح والقسمات ولون البشرة، التشابه هنا هو تشابه الأفكار، تشابه الأرواح، بالرؤى، بتحليلات المشاهد والمواقف، هناك فهم مشترك بيننا، التشابه متوارث عبر الأجيال لو راجعتم سيرة الآباء والأجداد ستجدون أن لكل منهم أصفياءه والأصفياء يحملون تشابها مع الآخرين، حتى لو كان تباعدنا لأعوام طويلة؛ لذا كانت عودتنا؛ لذا كان تقاربنا؛ لذا كان ارتباطنا الروحي والفكري والإنساني، علينا إن كنا نريد الحياة الهادئة المتصالحة مع الذات أن نبحث دائماً وبلا كلل عمن يشبهنا.

طنطا،صباح الخميس 30ديسمبر2022

المتشابهون

يخلق من الشبه أربعين..جملة تتردد دومًا بالكثير من الأمور الحياتية، الغالب الأعم يقولها بشكل أقرب للعبثية، غير قانع أنها حقيقة مؤكدة، لكل منا من يشبهه ملامحًا، روحًا، فكرًا، فليبحث كل منا عن المتشابهين ليأتنس بهم.

ISBN 978-9950-04-471-5

samirmansour.ps
samir@mansour.ps
samirmansourbookshop
Samir_Mansour_bookshop
samirbookshop